
الدكتورة سامية القطان
كيف تقوم بالدراسة
الكلينيكية
الجزء
الأوّل

كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية

(الجزء الأول)

تأليف

الدكتورة / سامية القطان

دكتوراه في العلاج النفسي - جامعة الكاثوليك - واشنطن

تقديم ومراجعة

دكتور صلاح مخيمر



مكتبة الأنجلو المصرية

مقدمة المؤلف

كان ذلك منذ سنوات عندما برزت فى رأسى فكرة هذا الكتاب كحلم بعيد يراود خيالى بينما كنت غارقة فى أول دراسة كلينيكية مكتملة بالنسبة لى وبالنسبة إلى كليات التربية بمصرنا الغالية . وبعد ذلك تتابعت الدراسات الكلينيكية فى رسائل الماجستير والدكتوراه وكانت كلها بالضرورة تحت إشراف إستاذى الدكتور مخيمر الذى كان وما يزال رائد الكلينيكية الذى أرسى دعائمها فى مصر كمنهج من المنهجين العملاقين فى علم النفس سيان فى صورتها الخاصة أو صورتها التى تعرف بالكلينيكية المسلحة . وما أكثر ما عانى حتى يتيح للكلينيكية مكانها إلى جانب التجريبية فى كلية التربية الأم بجامعة عين شمس قبل أن يمضى بها مريدوه إلى بعض الجامعات الإقليمية .

وكان أستاذى يبذل من الجهد المضنى بإخلاص العالم وتفانيه مما يتحدى كل قدرة على الوصف وهو يعد الواحد بعد الآخر من طلبته مريدى الكلينيكية التى تستهدف فهم الإنسان فى أعمق أعماقه على الطريق إلى علاجه عندما يقتضى الأمر. ويتميز أستاذى على غزارة علمه ومعارفه بانفتاح عقلى يرحب بكل جديد . ويتقبل برحابة صدر كل ما يصدر عنا نحن طلبته من انتقاد أو اعتراض على آرائه، ومن هنا فقد تابعناه وتبعناه يمضى فى مسار حياته من التحليل النفسى الذى يرفض ما عداه إلى الانتقائية العلاجية التى تنفتح لكل النظريات وتستعين بشتى فنيات العلاج النفسى تبعا للخصوصية الفريدة للحالة موضع العلاج .

برزت فكرة هذا الكتاب منذ سنوات وراحت تقوى مع الزمن، يشد من أزرها ما أستشعره فى أعماقى من إشفاق على أستاذى وهو يتجشم أعظم العناء فى تدريب طلبته على الكلينيكية والتشديد عليهم فى مراعاة معاييرها، بحيث ترتد كثرة الوقائع على تباينها إلى وحدة المبدأ التفسيرى الواحد .

وبجامعة الكاثوليك بواشنطن تحول الأمل الذى كان يراودنى إلى تصميم يبلغ مستوى العقيدة . وما أسعدنى اليوم عندما أقدم هذا الكتاب وفاء لأستاذى ولدينه الكبير الذى يحتم على أن أكون حلقة فى تتابع الأجيال العلمية، تنقل إلى الخلف خير ما أخذته عن السلف وقد أضافت إليه ما يشاء الله لها من إسهامات فى العلم .

ويزداد اليوم عرفانى لأستاذى وقد دفعه حرصه العلمى على أن يتفضل بمراجعة هذا الكتاب فى أدق تفصيلاته قبل أن أدفع به إلى المطبعة ، بينما دفعه تقديره العلمى لى إلى أن يخص كتابى هذا بتقديم يعتبر بذاته إسهاما عملاقاً فى مجال مناهج البحث فى علم النفس .

والله الموفق ،،،،،

سامية القطان

فهرس الجزء الأول

الفصل الأول
في مناهج علم النفس

الفصل الثاني
في المنهج الكلنيكي وفنياته

الفصل الثالث
في المناهج السيكودينامية
مفاهيم - مفاتيح كإطار تفسيري يتيح الفهم

تقديم

بعد ثلاثين عاماً من التخصص النفسى أجدنى على قناعة تامة بأمرين ، هما وإن لم يضعانى فى خصومة صريحة مع أستاذى لاجاش (الذى أرسى دعائم المنهج الكلينيكى ونافح عن الكلينيكية المسلحة فى كتيبه الشهير «وحدة علم النفس» والذى هو واحد من أعظم أساتذة علم النفس فى القرن العشرين إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق) ، ومع أستاذ الأساتذة كيرت ليفن الذى أبان عن أن العملية العلمية الحقيقية لا يمكن أن تكون بغير التحول من الأسلوب الأرسطالى إلى الأسلوب الجاليلى فى تناول الوقائع (والذى يعتبر بحق بعد فرويد ثانى عمالقة علم النفس) ، فهما على الأقل يضعانى على خلاف معهما إن لم يكن خطوة إلى الأمام على الطريق التى استهلاها .

ويمكن تلخيص هذين الأمرين على النحو التالى :

١ – المنهج الكلينيكى هو وحده المنهج التخصصى لعلم النفس (فليس المنهج النقدى غير صورة أخرى له تقوم على نفس الأسلوب الجاليلى فى تناول الوقائع وتستند إلى نفس معايير المنهج الكلينيكى) . أما المناهج الأخرى– بما فى ذلك المنهج التجريبى السيكومترى– فلا يمكن إلا أن تكون مجرد مناهج مساعدة . فما من علم نفس ممكن إلا بالحالة الفردية ؛ طالما أن العلم فى معناه الدقيق يستحيل بغير الفهم .

٢ – المنهج السيكومترى هو بالضرورة المنهج التخصصى لعلم النفس الاجتماعى . فالجماعات والمجموعات سواء كانت تجريبية أم ضابطة ، موضع دراسة أو موضع مقارنة، تظل كلها وما تتمخض عنه من متوسطات تجريدية (إحصائية) مجرد تفكير بلغة الفئات والأصناف على طريقة الأسلوب الأرسطالى فى تناول الوقائع . فليس فى علم النفس من مكان لا للعميان كجماعة ولا للأعمى بحروف التاج إن جاز القول . وكذلك الحال بالنسبة إلى المبصرين وإلى المدرسين وكل ما يقوم على لغة التفكير بالفئات والأصناف والجماعات .

وهذان الأمران على الرغم من جدتهما التى تكاد تبلغ حدود ثورة كوبر نيكيه ،

ليسا في واقع الأمر غير نتيجتين منطقيتين تلزمان بالضرورة عن الحقائق التي انتهى إليها ليفن ولاجاش . ففى نهاية الفصل الأول من كتابه الشهير «النظرية الدينامية عن الشخصية سنة ١٩٣٥ ، يقرر ليفن ما يلي :

«وبدلاً من الرجوع إلى المتوسط التجريدي لأكبر عدد ممكن من الحالات المعطاة تاريخياً ، ينبغي الرجوع إلى العيانية المكتملة للحالة الفردية» . وبالحالة الفردية هذه إنما يعني ليفن الحالة النقية ، هذه هي التي تتبدى فيها العلاقة الأساسية بين الجنبات الرئيسية للظاهرة على نحو استثنائي من الوضوح يمكن للعالم أو الباحث أن يبلغ (بأن يبنى في ذهنه) نمط العلاقة المثالية ، هذه التي تتجسد في الواقع العياني في تشكيلة من التباينات لانهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية . معنى هذا أن ليفن قد دلل على أن العلم بمعنى الكلمة إنما ينتج – إن جاز القول – من الحالة الاستثنائية ، بعد أن كان الكل يتوهم أن العلم ينتج من التواتر أو انتظامية الحدوث بحيث يكون الاستثناء في هذه الحالة الأخيرة أمراً لا مفر منه بل ويثبت بوجوده القاعدة والقانون . لم يعد من الممكن مع ليفن أن يقوم ولو استثناء واحد ، وهذا هو العلم بمعنى الكلمة ، وهذا بالطبع هو الأساس الذي يقوم عليه المنهج الكلينيكي الذي يستند إلى النهج الجاليلي في تناول الوقائع هذا الذي يقوم على العمومية الحقة بقيامه على الاستقراء المركزي لحالة فردية واحدة .

فقانون الجاذبية (سقوط الأجسام) والذي توصل إليه نيوتن لم يكن نتاج التواتر بأن رأى مئات الآلاف من التفاح وهي تسقط على الأرض ، بل كان نتيجة لحالة واحدة أتاحت له أن يبنى في ذهنه نمط العلاقة المثالية لظاهرة السقوط . ومثال آخر يقدمه ليفن عن قانون تدحرج الأجسام على السطوح المائلة . فمثل هذا القانون هو الآخر لم ينتج من رؤية مئات الآلاف من الأحجار وهي تتدحرج على سطوح مائلة ، بل من حالة واحدة كانت العلاقة فيها بين الجنبات الرئيسية للظاهرة من استثنائية الوضوح بحيث مكنت لاستثنائية ذهن الباحث أو العالم أن يبلغ إلى نمط العلاقة المثالية ، ومن هنا فالقانون يصور تدحرج كرة مصقولة بشكل مطلق على سطح مائل أملس بشكل مطلق ، ويكون على الشخص في كل حالة عيانية أن يقوم بالتعويض بلغة المعادلات ، مما يعني حساب درجة الاحتكاك وزاوية الميل في الحالة التي تعنيه .

فإذا ما انتقلنا إلى لاجاش وجدناه فى كتيبه الشهير «وحدة علم النفس» يعرض لنا فى منافحته عن الكلينيكية المسلحة هذا الذى يمكن للكلينيكية أن «تفيده» من التجريبية، وذلك الذى «تحتاج» فيه التجريبية إلى الكلينيكية . وغنى عن البيان عظم الفارق بين «يمكن أن تفيده» وبين «تحتاجه»، فالتجريبية تحتاج إلى الكلينيكية فى الاستطلاع والتنقيب وصياغة الفروض ، وفى إقامة الوحدة الكلية للنتائج الجزئية التى ينتهى إليها المنهج التجريبى السيكومترى ، هذا إلى المسالك العيانية التى يستحيل استحداثها . فالتجريبية لا غنى لها عن الكلينيكية ، بينما الكلينيكية تقوم بدراسة كل المسالك العيانية للإنسان ، السوية منها وغير السوية، وتبلغ من ذلك إلى نظرية عامة عن السلوك الإنسانى على النحو الذى يتضح فى نظرية التحليل النفسى . فتسلح الكلينيكية بالتجريبية والسيكومترية لا يمثل «حاجة» لا غنى عنها بل مجرد «إفادة» متاحة .

وسوف نقف الآن وقفة عجل عند التجريبية ثم السيكومترية لنتبين بعض ما يكمن من فجوات وراء ذلك البريق الزائف للمعمل التجريبى والقياس النفسى فى حالة الإنسان .

إن التجريب المعملى كما نعلم يقوم على نفس الأساس الذى تقوم عليه السيكومترية ونعنى تثبيت جميع العوامل فيما عدا عاملاً واحداً وألا يكون من المستحيل بالنسبة إلينا أن ترد النتائج (المتغيرات التابعة) إلى المتغير المستقل الذى نعمل عليه . وبدهى أن يكون هذا التجريب المعملى فى ذروة تألقه من مواد الطبيعة وأشيائها وربما أيضاً (ونقول ربما) مع الكائنات الدنيا فى السلسلة الحيوانية ، حيث يظل التجانس – فيما يبدو على الأقل – كبير إلى الدرجة التى تسمح بالتعميم . فإذا ما انتقلنا إلى التجريب على الإنسان استحال تثبيت العوامل إلى أكذوبة فلا يبقى للتجريب من شئ غير بريق أدوات الصنعة العلمية . ذلك أن تثبيت الخبرة الماضية عند الأفراد شأنه شأن تثبيت المثير الخارجى مسألة تتخطى حدود القدرة البشرية . وبدهى أننا عندما نفشل فى تثبيت كل العوامل الأخرى (فيما عدا المتغير المستقل الذى نعمل عليه) بحيث يفلت ولو عامل واحد من التثبيت ، تنهار العملية العلمية كلها ومن أساسها، فيكون من المستحيل علينا نسبة النتائج إلى المتغير المستقل بحسبانه وحده مسئولاً عنها

وسبباً لها . وإذا كانت استحالة تثبيت الخبرة الماضية عند الأفراد مسألة لا تحتاج إلى بيان فقد يكون من المفيد أن نذكر البعض بأن هذه الخبرة الماضية تشكل عند كل فرد جانباً أساسياً من شخصيته هذه ، التي من خلالها يكون إدراكه للأشياء لأنها هي التي تسبغ على هذه الأشياء دلالتها .. وأما تثبيت المثير الخارجي فذلك ما تحدث عنه لاجاش في حديثه عن وهم القنينة . ونظرية الجشطلت تقيم تفرقة أساسية بين المثير البيئي بمجاله الفيزيائي ، مما لا يعنينا وبين المثير كما يدركه الشخص ويعيشه في خبراته الحية مما يعرف بالموقف بمجاله السلوكي مما يعنينا وحده في مجال علم النفس . فالفرد لا يستجيب للمثير في ذاته ولكن يستجيب له عبر شخصيته أي من حيث هو موقف يعيشه إلى آخر هذه الحقائق التي عرضنا لها في مقدمة الطبعة الثانية من الترجمة العربية لكتاب (سيكولوجية الإشاعة)(١) . وعليه فلا تثبيت ممكناً للخبرات الماضية عند الأفراد ولا لدلالة المثيرات عندهم ، وعليه فلا تجريب ممكناً – بالمعنى الدقيق للكلمة وفي مجال المسالك العيانية – عند الإنسان .

وإذا كان لا جاش في نهاية كتيبه الشهير السابق الذكر قد انتهى في الصفحات الأخيرة إلى إرساء دعائم الوحدة والتعاون بين المنهجين التجريبي والكلينيكي فإننا ها هنا نختلف معه وعن حق في بعض ما حاول التمويه عليه . فإذا كان المنهج التجريبي «يحتاج» إلى المنهج الكلينيكي ، فإن المنهج الكلينيكي ليس له أن «يفيد» كثيراً من المنهج التجريبي اللهم إلا أن يستهدف إقناع التجريبيين أنفسهم ومن زاويتهم التجريبية الخاصة بصدق الحقائق التي يبلغ إليها المنهج الكلينيكي ، فقد ذهب لاجاش إلى أن الكلينيكية يمكن أن «تفيد» من التجريبية في التثبيت من فروضها، وضرب على ذلك مثلا بالعدوان كنتيجة للإحباط مما عكف دولارد وميللر على إثباته تجريبياً(٢) . ومع ذلك فكلنا يعلم أن هذه الصياغة لا تحظى بصدق عام . فالإحباط بكل صوره يتمخض عند الكائنات البشرية المازوشية عن لذة جنسية تبلغ حد النشوة أو عن راحة نفسية تنجم عن العقوبة المتضمنة في الإحباط . ومن هنا نتساءل عن القيمة الحقيقية لهذا

(١) سيكولوجية الإشاعة . أولبرت وبوستمان ، ترجمة مخيمر ، الناشر سعيد رأفت .

(٢) انظر الفصل الثاني من رسالة الماجستير ، دراسة مقارنة للعدوانية عند العمياوات بما عليه عند المبصرات، ناريمان الرفاعي – جامعة طنطا .

اليقين التجريبى الذى يتحدث عنه لاجاش . أما المسألة الثانية والأخيرة والتى يمكن أن «تفيد» فيها الكلينيكية من التجريبية فتنحصر فى الاستعانة بالقوانين التى يبلغ إليها علم النفس التجريبى لفهم السلوك العيانى . ويضرب لاجاش مثلا على ذلك بأن قوانين التطبيع عند الحيوان تفيدنا فى فهم التطبيع الاجتماعى عند الإنسان وتلك فى رأينا مغالطة لحساب «الوحدة» التى ينافح عنها . فالتطبيع الاجتماعى عند الإنسان يقوم أساساً على اللغة مما يجعل الاختلاف بين الأمرين اختلافاً فى المستوى والبنيان . وفى هذا ما يذكرنا على الرغم منا بتلك التجارب المصطنعة عند علم النفس التجريبى كتجارب ابنجهوز على المقاطع الصوتية عديمة المعنى وكتجارب ثورنديك على القطط فى المحارات . ولاجاش نفسه يقرر بأن علم النفس الكلينيكى لا غنى عنه ويغنى عما عداه طالما أن بوسعه أن يتناول بالدراسة كل المسالك البشرية وأن يخلص منها إلى نظرية عامة فى السلوك على النحو الذى يتضح فى نظرية التحليل النفسى . وفى هذا كله ما يرينا بأن الكلينيكية ليس لها فى الواقع أن تفيد شيئاً أساسياً من التجريبية اللهم إلا البلوغ إلى إقناع التجريبيين أنفسهم– وعن طريق منهجهم التجريبى– بصدق الحقائق الكلينيكية . وإذا كانت انفعالية الفرد هى التى تترجم عن سويته «قدرة» على مواجهة المواقف الجديدة فضلاً عن المألوفة وكانت هذه الانفعالية من اختصاص علم النفس الكلينيكى ، فإن كل ما ينطوى عليه الفرد من قدرات عقلية وغير عقلية (تتيح له من حيث الإمكانية مواجهة المواقف الجديدة فضلاً عن المألوفة وما تستند إليه هذه القدرات من عمل للإدراكات والذاكرة والخيال مما ينتمى إلى علم النفس التجريبى) . إنما يظل فى واقع الأمر رهناً فى عمله أو تعطله (انكفافه) بانفعالية هذا الفرد .

فإذا ما انتقلنا الآن إلى السيكومترية بمقاييسها المقننة (وهى التى تقوم على نفس الأساس الذى تقوم عليه التجريبية من تثبيت لجميع العوامل فيما عدا عاملاً واحداً فى المرة الواحدة) وجدنا أنفسنا أمام صورة تقريبية شاحبة للمنهج التجريبى . فما تسميه السيكومترية بالملاحظة الخارجية ليس غير أكذوبة عريضة . فالسيكولوجى القائم بتطبيق المقاييس النفسية مهما قام بضبط نفسه بحيث تكون معاملته واتجاهاته وكلماته وابتساماته هى هى نفسها بالنسبة إلى الجميع، فإنه لا يكون بذلك قد استبعد نفسه

كمتغير لأن دلالته شأنها شأن دلالة كل مثير فيزيائى إنما تتحدد عند كل فرد بالرجوع إلى الشخصية الفريدة لهذا الفرد . ومن هنا فمهما أراد لنفسه أن يكون فى «حالة تثبيت»، ومهما أراد لملاحظته أن تكون خارجية ، فإنه لن يكون بالنسبة إلى الآخرين غير دلالات متباينة بتباين فردياتهم، ولن يكون الآخرون بالنسبة إليه غير دلالات تتباين بالرجوع إلى فرديته .

وعملية التجانس بين المجموعات التجريبية والضابطة ليست غير وهم من أوهام السيكومترية . وإذا كان من العسير مجانسة الفرد مع نفسه فى الأوقات المختلفة والمواقف المختلفة وكان الهدف الحقيقى لعلم النفس هو الإمساك بالعيانية المكتملة للحالة الفردية فى موقف بعينه لا بالمتوسط التجريدى الإحصائى(١) لمسالكه واتجاهاته، فما بالك بالمجانسة بين العديد من الأفراد . هنا أيضاً تبرز استحالة تثبيت الخبرة الماضية عند الأفراد تحدياً تستحيل على العقل البشرى مواجهته . وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن السيكومترية تهدف إلى تحديد مكان المفحوص بالنسبة إلى الآخرين من زاوية ما تقيسه من قدرات أو اتجاهات ، فإننا نظل بذلك كله خارج مجال الفهم ومن ثم خارج مجال العملية العلمية فى رأينا .

ذلك كله ليس غير قليل من كثير من تلك المتغيرات التى تكمن وراء التجريبية السيكومترية فى تناولها للإنسان وكأنه مجرد شئ من أشياء الطبيعة تخضعه للتجريب أو تقوم بتصنيفه فى هذا الصنف أو ذاك من مجموعة ما فوق المتوسط أو المتوسط أو ما إلى ذلك مما ينتمى إلى الجماعات وعلم النفس الاجتماعى ، ومن هنا فإن سيرل بيرت أمام السيكومترية فى العالم وأستاذ أساتذة السيكومترية فى الشرق العربى إنما كان منطقيا مع نفسه فى هذا الذى يتحدث عنه العالم على أنه فضيحة سيرل بيرت . وإذا كان هناك ما يعاب على عملاق السيكومترية والإحصاء السيكولوجى فلن يكون

(١)وفى كتابهما الطرائق الإحصائية فى علم النفس والتربية عام ١٩٧٠ يكتب جلاس وستانلى ما يلى :

طالما وصف الناس عالم الإحصاء على نحو ساخر كرجل يغرق وهو يخوض فى نهر لا يزيد متوسط عمقه عن ثلاثة أقدام أو كرجل يجلس وقد استقرت رأسه فى ثلاجة بينما تمتد قدماه داخل فرن ملتهب ويقرر بأنه فى المتوسط يشعر بأنه على ما يرام– ص ١ .

ذلك غير ذكائه الثاقب . كان الرجل يدرك أن العملية كلها ليست غير عبث بالأرقام ليس وراؤه من جدوى فما الذى يضيرها لو أنه أراح نفسه وابتدع الأرقام وهو يجلس ناعماً إلى مكتبه أمام كوب من الشاى . كان سيرل برت على ثقة بأن الأمر لن يختلف كثيراً فى جوهره إن هو أجهد نفسه وأجهد الناس ، يسعى بالاختبارات إليهم ويجشمهم العناء فى تطبيقها . فذكاء الرجل ونفاد استبصاره ينبغى أن يحسبا له لا عليه عندما نقارنه بالآخرين (وإن كنت لا تدرى فالمصيبة أعظم) ، وحسب سيرل برت فخراً أنه كان على وعى بكل أبعاد العملية .

وهكذا وجدتنى بعد ثلاثين عاماً من التخصص النفسى على قناعة تامة بأنه ما من علم نفس ممكن إلا بالنسبة للحالة الفردية مما يعنى أن المنهج الكلينيكى هو المنهج المتخصص الوحيد لعلم النفس، بينما يكون المنهج السيكومترى بمتوسطاته عن الجماعات وبتفكيره بلغة الفئات هو المنهج التخصصى لعلم النفس الاجتماعى بينما يظل مجرد منهج مساعد بالنسبة إلى علم النفس، يتيح له البلوغ إلى الحالات الطرفية التى يمكن اعتبارها بمثابة حالات نقية . أما المنهج التجريبى فهو الآخر مجرد منهج مساعد يتيح تلك الحقائق الجزئية التى هى بمثابة اللبنات التى يبنيها العالم فى نظرية تفسيرية مكتملة أو قانون فهمى . وسوف نلتقى فى هذا الكتاب بكل ما يعين القارئ على تفهم الحقائق السابقة . وحسبى للتدليل على ذلك أن أورد هنا حديث الكتاب الذى جاء لاحقاً على الجدول الذى يوضح الاختلافات بين الأسلوبين الأرسطالى والجاليلى فى تناول الوقائع .

مما يسبق يتضح بشكل قاطع أن لب العملية العلمية وصحيحها إنما ينحصر فى إعادة بناء Reconstruction الوقائع فى ذهن العالم فى صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى أى فى صورة أنموذج هيكلى ونمط كيفى يقدم «العلاقة المثالية» هذه التى تتجسد فى «الواقع العيانى» فى تشكيل من التباينات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية . وفى هذا ما يرينا أن الأدوات الرياضية والمعالجات الإحصائية لا تقيم العلم بل تظل مجرد أدوات مساعدة، ففارق كبير ما بين العملية العلمية وبين أدوات الصنعة العلمية من تجريب ومعادلات رياضية ومعالجات إحصائية .

فأدوات الصنعة هذه إنما ترجع إلى ما يتوهمه البعض من أن الأنموذج الوحيد لليقين العلمى إنما هو الأنموذج الفزيائى الرياضى . وقد أوضح كيرت ليفن فى الفصل الأول من كتابه الشهير «النظرية الديناميه عن الشخصية سنة ١٩٣٥ » بطلان هذا الوهم عندما أبان عن أن تقدم الفزيائيات المعاصرة لا يرجع إلى استخدام الرياضيات والدقة الرقمية، بل يرجع فحسب إلى استخدام النهج الجاليلى فى تناول الوقائع . ليس العلم إذن بجداول رياضية ومعادلات إحصائية بل ليس العلم بتجريب معملى كما يتوهم البعض ممن يزعمون الالتزام بالموضوعية بعيداً عن كل ذاتية . مثل هذه الموضوعية(١) التى يتوهمونها ليس لها من وجود إلا فى أذهانهم، فالموضوعية العلمية تنبنى دائماً أبداً فى ذهن الباحث ومن هنا تكون النسبية فى العلم ومن هنا أيضاً تكون الذاتية بمثابة الرحم الذى يتمخض عن الموضوعية العلمية(٢) . ولكن الذاتية

---

(١) انظر (من مشكلات ما وراء المنهج – الموضوعية والذاتية – د. سيد عثمان . من الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس المجلد الخامس ١٩٧٨) .

(٢) بينما يتنازل رجل الجمهور عن ذاتيته تواؤماً مع الواقع الخارجى (الديماجوس) فإن العصابى ينحبس فى ذاتية من تخييلاته الطفلية (الميثوس) تسد عليه كل سبيل إلى الواقع الخارجى . أما الفنان فإنه يعزف عن الواقع الخارجى ليلوذ بذاتية صروحه الفنية (أبو ليتوس) هذه التى تعود به من جديد عبر استحسان الجماهير لنتاجاته الإبداعية إلى الواقع الخارجى . وكذلك العالم فإنه يعزف عن الواقع الخارجى ليلوذ بذاتية صروحه التفسيرية ونماذجه الهيكلية عن الواقع (اللوغوس) هذه التى تعود به من جديد – عبر ما تقدمه من حقيقة عن الواقع تتأكد بالممارسة العملية – إلى الواقع الخارجى ، فعملية الإبداع الفنى والابتكار العلمى ليست غير حركة دياالكيتيكية من الذهاب والمجئ ، من العزوف والعودة ما بين الواقع الخارجى والذاتية الفردية . (وفى هذا ما يذكرنا بعبارة موريلو الشهيرة: أن الموضوعية الحقة ، لا يمكن أن تكون دون مرور بالذاتية "Sujectivation"وما يذكرنا فى الفلسفة الوجودية بالذاتية كلحظة وعى بين موضوعيتين ، وفى المركسية بالوعى كلحظة بين واقعين (من وسائل الإنتاج) وبالتفرقة الشهيرة فى نظرية الجشطلت بين الظاهرة الديناميية وشروطها الطوبوغرافية) . ويرى مخيمر أن تعطل الدياالكيتيكية ما بين الذات الفردية والواقع الخارجى هو الذى يقيم الاغتراب Alienationفعندما يكون الالتصاق بالذات على حساب الواقع يتخذ الاغتراب صورة الاختلالات النفسية والعقلية، بينما يكون الاغتراب عند الالتصاق بالواقع على حساب الذات فى صورة التواؤمية التى تخفض الإنسان إلى مجرد شئ وموجود فى ذاته .

التى نعنيها ليست ذاتية أخاييل الفرد مما يعرف بالميثوس ولا هى ذاتية أخاييل الشعوب فى أساطيرها وآرائها العامة مما يعرف بالديماجوس ، إنما الذاتية التى نعنيها هى ذاتية اللوغوس ، هى تلك الذاتية التى تتيح لصاحبها عالماً أو باحثاً أن يبنى عن الواقع أنموذجه الهيكلى . بذلك تجيب ذاتية اللوغوس بالحقيقة على الواقع وتلك هى الموضوعية العلمية بكل معنى الكلمة . وهنا ينبغى أن نفرق بين العملية العلمية فى معناها الجزئى والعملية العلمية فى معناها الشامل . فالتجريب المعملى يتمخض عن حقائق يقينية وكلها حقائق جزئية (ونحن نستبعد من ذلك لعبة معاملات الارتباط لأن الارتباط لا يعنى السببية بحال، بل هو عبث بالأرقام) هذه الحقائق اليقينية الجزئية التى يبلغ إليها المنهج التجريبى (ولا أقول السيكومترى) لا تقيم العلم، بل هى مجرد لبنات للعلم تحتاج إلى من يقيم صرحها فى نظرية شاملة .

بول جييوم لم يكن يوماً ما من علماء نفس الجشطلت الذين أجروا تجاربهم الشهيرة ومع ذلك يقول كوهلر أمام الجشطلتين بأنه لم يفهم نظرية الجشطلت إلا عندما قرأ كتاب بول جييوم (علم نفس الجشطلت) فكيف ذلك ؟ بكل بساطة لأن بول جييوم هو الذى استطاع أن يبنى كل الحقائق اليقينية الجزئية التى انتهى إليها علماء نفس الجشطلت من تجاربهم ، فى صرح نظرية تفسيرية واحدة بحيث تجد كل حقيقة جزئية مكانها ضمن النظرية التفسيرية، وبحيث تلتقى كل الوقائع عند نفس الدلالة مما يعرف بمبدأ التكامل ومبدأ التقاء الوقائع اللذين ينتميان إلى معايير المنهج الكلينيكى والمنهج النقدى، أى إلى معايير المنهج العلمى على وجه الدقة .

وإذا كان لنا أن نلخص العملية العلمية فى كلمة فهى «إعادة بناء» Reconstruction الوقائع المتماثلة فى ذهن الباحث فى صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى بينما تظل قوانين التواتر مجرد صيغ مريحة تسمح بالتنبؤ دون أن تسمح بالفهم، وقبل أن نبلغ إلى فهم الظاهرة فإننا لم نبلغ بعد إلى العملية العلمية بمعنى الكلمة .

وفى هذا الكتاب نلتقى فى الفصل الأول بعرض رائع لمناهج علم النفس فى صلتها بعضها بالبعض الآخر لا يلبث حتى يغدو تتبعاً للمنهجين التجريبى والكلينيكى

فى خصومتهما وتجاوبهما إلى تقبلهما المتبادل وتعاونهما مما ينتهى بهما إلى هذا الذى يعرف بالكلينيكية المسلحة أو وحدة علم النفس .

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب نتعلم كل ما يلزمنا عن المنهج الكلينيكى من مسلماته وركائزه إلى مختلف الفنيات التى يستخدمها من مقابلات شخصية إلى اختبارات إسقاطية إلى تفسيرات تحليلية نفسية للأحلام والهفوات، وذلك كله مع بعض الأمثلة التوضيحية اليسيرة التى التقت بها الكاتبة فى خبرتها الكلينيكية الخاصة مع المرضى وغير المرضى من الحالات التى تناولتها . وفى الفصل الثالث والأخير من الفصول النظرية الثلاثة نلتقى تلك المفاهيم التى تعيننا على فهم الشخصية وما يصدر عنها من مسالك سوية أو لا سوية ، وذلك من الزاويتين الرئيستين فى علم النفس وتعلى التحليل النفسى والسلوكية . وفى هذا الفصل أيضاً نلتقى عرضا رائعا للمبادئ التفسيرية فى كل مدارس علم النفس تنقلنا من خفض التوتر إلى اشتهاء الإثارة وذلك كله قبل أن تبلغ إلى الحديث عن الصراع بقلقه ودفاعاته هذه التى تتمخض عن الأعراض المرضية .

ولما كان الهدف من هذا الكتاب كما تقول صاحبته هو إعداد الباحث لكى يكون كلينيكياً ممارساً لا متمرساً فقد رأت أن تقدم فى الفصول التالية أمثلة توضيحية لبعض الدراسات التى تمت بإشرافى فى رسائل الماجستير والدكتوراه على اختلاف موضوعاتها . ولا يسعنى هنا إلا أن أتجه بكل التقدير والشكر إلى الدكتورة – سامية القطان – على عملها هذا الذى كنت أتطلع إليه منذ وقت طويل وذلك لما كنت أتجشم من عناء شديد فى إعداد الدارس بعد الدارس وتدريب الواحد بعد الآخر على رد كثرة الوقائع مع تباين مصادرها إلى وحدة المبدأ التفسيرى الواحد .

إن قراءة هذا الكتاب كما ينبغى أن تكون عليه القراءة إنما تتيح للقراء من ذوى الاستعداد ومن أصحاب القدرة على الحدس الكلينيكى أن يتقدموا بأنفسهم على الطريق تلك الخطوات الأولى بحيث يقتصر تدخلى بعد ذلك على الهداية والتصحيح والإرشاد كلما دعت الحاجة . فإتقان السيكومترية شئ بينما إتقان الكلينيكية شئ آخر تماماً . وليس من الممكن أن نلتقى كلينيكياً متمرساً دون أن يكون له ومن ورائه عشرون عاماً

على الأقل من الممارسة الكلينيكية المتصلة الجادة المستبصرة .

وكلى أمل فى أن يكون هذا الكتاب مجرد خطوة أولى على طريق طويلة طويلة من الإنتاج العلمى الزاهر الذى يفسح شيئاً فشيئاً مع الوقت والنضج هامشاً تتزايد سعته للجديد من الأفكار والتأويلات التفسيرية . وأخيرا فإن كل ما تنطوى عليه هذه المقدمة من آراء جديدة وأفكار قد تبدو غريبة إنما يخصنى وحدى فى غير إلزام على الإطلاق لأحد من الزملاء المريدين فى مدرسة الكلينيكية الملحة والانتقائية العلاجية بشرقنا العربى .

صلاح مخيمر

(١)

الفصل الأول
فى مناهج علم النفس

الفصل الأول

فى مناهج علم النفس

مقدمة

المناهج فى علم النفس منهجان هما : المنهج التجريبى والمنهج الكلينيكى ، وكل ما عدا ذلك من مناهج نسمع عنها ليس فى واقع الأمر غير أساليب فى العمل أو فنيات مساعدة أو تباينات أو تطويرات لهذين المنهجين الرئيسين .

١ - فما يسمى بالمنهج الوصفى ليس غير عملية مساعدة تمهد للعملية العلمية ولكن لا تدخل بحال ضمن صميم العملية العلمية بمعنى الكلمة .

٢- وما يسمى بالمنهج التاريخى ليس غير فنية وركيزة من الركائز الثلاث التى يقوم عليها المنهج الكلينيكى .

٣- وما يسمى بالمنهج المقارن ليس غير أسلوب فى العمل وفنية يستعين بها المنهج التجريبى مثلاً عندما يقارن بين المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة .

٤- وما يسمى بالمنهج الإمبريقى ليس غير تباين وصورة من صور المنهج التجريبى . فعندما تكون المجموعتان التجريبية والضابطة متجانستين تماماً يكون ذلك هو المنهج التجريبى ، أما إذا كانت المجموعتان مختلفتين أساساً فى ناحية واحدة كأن تكون مجموعة من المبصرين ومجموعة من العميان فعندئذ يكون المنهج الإمبريقى .

٥- وما يسمى بمنهج التحليل النفسى ليس غير تباين وصورة ممعنة من صور المنهج الكلينيكى . فعندما يكون الكلينيكى حيادياً وينظر إلى وقائع المقابلة الشخصية من زاوية الطرح (بمعنى أنها تكرار لاتجاهات المفحوص الطفلية من أبوية ينقلها هنا ويطرحها على الكلينيكى كوجه أبوى) فعندئذ يصبح المنهج الكلينيكى ما يسمى بمنهج التحليل النفسى .

٦- وما يسمى بالمنهج الإحصائى ليس غير استخدام للرياضيات كمجرد فنية معينة لتبين الدلالة الرقمية للنتائج أو لتحقيق الأحكام والصرامة فى تحديد العينة الممثلة واستخراج المعايير وما إلى ذلك من معالجات إحصائية تتصل أساساً بالمنهج التجريبى وإن لم تكن من حيث المبدأ منغلقة على المنهج الكلينيكى .

٧- وما يسمى بالمنهج الطولى التتبعى ومنهج الشرائح المستعرضة ليسا غير أسلوبين فى العمل وفنيتين من فنيات البحث العلمى .

٨- وما يسمى بمنهج الملاحظة الطبيعية فهو الصورة الأولى لكل بحث علمى، شريطة أن نضع فى اعتبارنا أن الباحث لا يقوم بالملاحظة إلا وفى رأسه علامة استفهام (فرض علمى) ويريد من الملاحظة أن تؤيدها أو تدحض «الفرض» الذى فى رأسه . ولكن منهج الملاحظة الطبيعية عادة ما يقتصر الآن على دراسة الحيوانات وكذلك الأطفال باستخدام ألواح جيزل (التى تتيح للباحث أن يرى الأطفال دون أن يروه) فليس من الممكن فى العادة أن ننتظر حتى تحدث الظاهرة التى نريد دراستها بشكل طبيعى ، ومن هنا كانت ضرورة استحداث الظاهرة مع التحكم فى عواملها ، بمعنى تثبيت جميع العوامل مع تغيير عامل واحد فى المرة الواحدة، حتى نتبين فى النهاية أثر كل عامل من العوامل على حدة . بذلك ظهر المنهج التجريبى. أما المنهج الكلينيكى فهو ما يزال بمعنى ما ملاحظة طبيعية شريطة أن تكون الملاحظة من الزاوية السيكودينامية أى الزاوية التى يتبناها علم النفس المرضى السيكوباثولوجيا) . وهذه الزاوية السيكودينامية إنما تعنى ببساطة النظر إلى الوقائع النفسية من خلال مفهوم الصراع . فالحياة فى صميمها ليست غير الصراع، وعندما ينتهى الصراع تنتهى الحياة . الحياة سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها (من ضياع الاتزان ومحاولات إعادته ، من التوترات ومحاولات خفضها ، من الحاجات أو الرغبات أو الحفزات أو

الدوافع أو الحوافز ومحاولات إشباعها)(١) .

ويصدق هذا على الأسوياء والمرضى فليس الاختلاف بين السوية والمرضى غير اختلاف في الدرجة والشدة ، هذا إلى أن السوية خرافة ومثل أعلى نقترب منه بدرجة أو أخرى ، وما نسميه بالسوية ليس غير الدرجات الهينة من العصابية . وكل ما هنالك من اختلاف ينحصر في أن الأسوياء يتمكنون من حل صراعاتهم على مستوى الرشد وعن طريق حلول بنائية بينما المرضى لا يتمكنون من حل صراعاتهم الأعلى مستوى نكوص (إلى الطفولة) وعن طريق حلول تفكيكه . وإذا كان النكوص النسبى إلى الطفولة (إلى المرحلة الأوديبية أو إلى الأستية السادية) يولد الأمراض النفسية (الأعصبة) ، فإن النكوص الممعن إلى الطفولة الباكرة (إلى المرحلة الفمية) يولد الأمراض العقلية (الأذهنة) . وهذه الحلول عند المرضى هى توافقات لأنها تخفض التوتر ، ولكنها توافقات غير تكيفية لأنها تتم على حساب قيمة الذات وعلى حساب وحدتها ، أما الحلول عند الأسوياء فهى توافقات تكيفية .

المناهج في علم النفس هي – كما رأينا – منهجان : المنهج التجريبى والمنهج الكلينيكى . ويعتبر ظهور المنهج الكلينيكى (الدراسة العميقة للحالة الفردية) بمثابة رد

---

(١) هذه الظاهرة من ضياع الاتزان ومحاولات إعادته هى العملية الصميمة للحياة . ومن هنا فإن كل مدارس علم النفس تقيم المبدأ التفسيرى للمسالك استناداً إلى هذه الظاهرة . فعند التحليل النفسى ترتد كل المسالك السوية إلى مبدأ الثبات (الذى أصبح بعد ذلك مبدأ اللذة – الألم ثم مبدأ الواقع، بينما المسالك غير السوية ترتد إلى مبدأ قهر التكرار) ، وعند السلوكية مبدأ الهوميوستازس (مبدأ اتزان الوظائف البدنية) ، وعند الجشطلت قانون الامتلاء (أحسن جشطلت ممكنة) ، وفى علم النفس العام مبدأ الانضباط الذاتى او الاتزان التلقائى ، بل وفى علم الطبيعة مبدأ لوشاتليه . ولكن مخيمر فى مفهوم جديد للتوافق وفى مقدمة عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس يعارض كل هذه المبادئ التفسيرية التى تقوم على خفض التوتر ويضع فى مكانه «مبدأ اشتهاء المصير» الذى يحقق مبدأ الاقتصاد فى العلم لأنه يسمح بتفسير المسالك السوية وغير السوية على السواء . وعنده أن مبدأ اشتهاء المثير هو وحده الذى ينتمى إلى غرائز الحياة بينما لا يمكن أن ينتمى مبدأ خفض التوتر إلا إلى غرائز الموت والعدم .

فعل بالنسبة إلى المنهج التجريبى السابق عليه فى الظهور . ولكن المنهج التجريبى نفسه يمكن اعتباره بمثابة رد فعل لنزعة كلينيكية (إنسانية تقوم على الفهم) سابقة عليه تتبدى فى محاولات الأدب لفهم الإنسان(١) وفى أساطير الشعوب التى تعرف باسم الميثولوجيا بل وقبل ذلك فى تلك النزعة الأنيمية التى تقوم على الإسقاط والتى كانت تتوهم وجود الأرواح فى كل أشياء الطبيعة – بذلك يتضح وجود النزعتين الرئيستين :

(أ) النزعة الإنسانية الفهمية التى يستند إليها المنهج الكلينيكى .

(ب) النزعة الطبيعية التى تعتبر الإنسان مجرد شئ كأشياء الطبيعة ومن ثم تقوم على الشيئية والتى إليها يستند المنهج التجريبى .

والواقع أن علم النفس فى محاولاته اتباع المنهج التنجريبى قد مر بمرحلتين . ففى البداية كان علم النفس التجريبى يستهدف – كعلم الطبيعة – البلوغ إلى قوانين عامة تصدق على جميع الأفراد بلا استثناء . ومن هنا كان معمل فندت ومحاولاته التى تعرف بالسيكوفيزيقا والتى تمخضت عن لا شئ لاستحالة إقامة علاقة ثابتة (ميكانيكية) بين المثير والاستجابة (انظر الفصل الأول من كتاب علم نفس الجشطلت جيوم – الترجمة العربية – سعيد رأفت) . لقد اتضح أن التجانس بين الأفراد ليس كما هو عليه بين المواد بحيث يكون من الممكن إقامة قوانين نفسية لها عمومية القوانين الفيزيائية . إن الأفراد يختلفون بأكثر مما يتماثلون (فكل فرد وإن كان كجميع الناس ، وكبعض الناس ، إلا أنه فى نهاية الأمر يختلف عن كل الناس) . ومن هنا كان على علم النفس التجريبى أن يتجه إلى دراسة هذه الفروق الفردية باستخدام المقاييس النفسية . بذلك ظهر علم النفس الفارق الذى يقوم على السيكومترية والذى يستهدف تحديد مكان المفحوص بالنسبة إلى الآخرين من زاوية قدرة ما أو سمة ما الخ .. ذلك هو مضمون ما نسميه بعلم النفس التعليمى أو التربوى أو السيكومترية .

---

(١) فى رواية هملت يرهص شكسبير بالتحليل النفسى عندما يقول على لسان إحدى الشخصيات «العقل قواد الرغبة» وكذلك بالنسبة إلى كل الروايات العالمية من قبيل الإخوة الأعداء والبخيل وعطيل الخ ... ومن هنا فإن دراسة الآداب العالمية تعتبر جانباً أساسياً فى تكوين الكلينيكى اليوم .

ولكن سرعان ما تبين أن هذه النزعة الطبيعية بمنهجها التجريبى السيكومترى لا تمكننا من فهم الإنسان بل فقط من تحديد مكانه بالنسبة إلى الآخرين من زاوية الذكاء أو القدرة الميكانيكية أو سمة الانطوائية الخ .. ومن هنا ظهر علم النفس الكلينيكى ترجمة للنزعة الإنسانية الفهمية ينصب بالدراسة العميقة على الحالة الفردية ويستهدف فهمها. وعادة ما يتم الفهم للفرد عندما نتبين صراعاته الأساسية فى الطفولة ، بمعنى أن نتبين الحفزات الغريزية التى كانت بالنسبة إليه خطرة ومن ثم ولدت لديه القلق . كل هذا لنتبين نوعية الميكانيزمات الدفاعية التى استخدمها لمواجهة هذا القلق وذلك لأن هذه الميكانيزمات الدفاعية تكرر نفسها وبالتالى تعتبر مبادئ تفسيرية ليس فقط لفهم سلوك الفرد الذى ندرسه بل أيضاً للتنبؤ بسلوكه فى المواقف المختلفة . ذلك هو ما يشكل مضمون علم النفس المرضى أو ما يسمى بالصحة النفسية . بذلك ظهر المنهجان التجريبى والكلينيكى كتعبير عن النزعتين الطبيعية والإنسانية فى مجال الظواهر النفسية .

والآن سوف نتبين الخصائص المميزة للنزعتين الطبيعية والإنسانية وما تنطوى عليه هذه الخصائص من ضرورة التجابه والخصومة بينهما . ومن هنا فقد كانت الخصومة بين المنهجين التجريبى والكلينيكى فى ذروتها عند البداية . وكان على عالم النفس عندما يأخذ بأحد المنهجين أن ينزله منزلة التقديس (طوطم) بينما ينظر إلى المنهج الآخر نظرة تحريم (تابوة) . كان هذا وضع المنهجين عند البداية ولكنهما مع الوقت سوف يتبينان ما بينهما من تداخل بل وما يمكن أن يفيده أحدهما من الآخر . وأكثر من ذلك أن التطور قد مضى بالمنهجين ليس فقط إلى تبادل العون بل إلى الالتقاء عند النتائج وأسلوب العمل والمبادئ التفسيرية . وسوف نتبين الآن مدى ما كانت عليه النزعتان الطبيعية والإنسانية من اختلاف صارم وخصومة ورفض متبادل الأمر الذى يتضح فى الخصائص المميزة للمنهجين التجريبى والكلينيكى ، ثم ما انتهى إليه التطور من تصالح النزعتين وتعاونهما ، ومن ثم من تعاون المنهجين .. والتقائهما.

ويمكن تلخيص القضايا الأساسية المميزة للنزعتين الطبيعية والإنسانية كما يلى:

قضايا معسكر النزعة الطبيعية فى تجابهها مع قضايا معسكر النزعة الإنسانية

زاوية المقارنة	قضايا النزعة الطبيعية	قضايا النزعة الإنسانية
١ – من حيث الموضوع	(أ) مسالك فيزيائية أى مسالك خارجية صريحة وعمليات فسيولوجية (مما يسمح بالقياس والتجريب) . (ب) **ضرورة وجود مقوم فسيولوجي للمسالك موضع الدراسة .**	ظواهر شعورية أى التجارب الحية كما يعيشها الشخص .
٢ – من حيث الهدف	التفسير مما يعنى البلوغ إلى قوانين (تواتر) وتصنيفات ومنحنيات . فتصميم العملية العلمية هنا هو التواتر أى تكرار الارتباط بين الظواهر التى ندرسها ، مما يسمح بوجود الاستثناءات ، فالمهم هو الغالبية (مما يستند إلى النهج الأرسطالى فى تناول الوقائع) .	المقوم الفسيولوجى غير مطلوب وبالتالى تمتد الدراسة لتشمل الظواهر اللاشعورية . التأويل مما يعنى الفهم بالبلوغ إلى قوانين (فهمية) أى إلى نمط العلاقة المثالية (نمط كيفى أى أنموذج هيكلى للظاهرة) هذه العلاقة المثالية التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيلة من التباينات تتباين بتباين السياقات البيئية (مما يترجم عن المنهج الجاليلى فى تناول الوقائع) .
٣ – من حيث علاقة الكل بالأجزاء	ذراتية ، إضافية فالكل ليس غير مجرد حاصل جمع للأجزاء ، بل إن الأجزاء سابقة على الكل (كومة الطوب أو محرك سيارة) . ففى السلوكية الفرد حاصل جمع عادات، والعادة حاصل جمع منعكسات شرطية . وفى علم	دينامية أى جشطلتية فالكل ليس مجرد حاصل جمع للأجزاء بل شئ يزيد على ذلك. كل ظاهرة نفسية بل وكل ظاهرة حية هى جشطلت، كل عضوى بمعنى انتظام دينامي ينتج كمحصلة للصراع بين القوى المتمثلة فى جميع

	نفس الملكات بالقرن ١٩ كان الفرد حاصل جمع ملكات (ذاكرة ذكاء – خيال المخ)والملكة حاصل جمع إدراكات ، والإدراك حاصل جمع إحساسات (عناصر افتراضية ليس لها وجود حقيقى ولكن كانت بمثابة الذرات عندما كان علم الطبيعة يتوهم أنها عناصر أولية أولي وقبل أن يتبين أن الذرة انتظام ينطوى على أجزاء وعلاقات كثيرة) . باختصار عناصر أولية أولي (ذرات من الأحاسيس أو المنعكسات تضاف بعضها إلى بعض فيكون الكل مما يعنى أن الانتظام دخيل على العناصر .	الأجزاء . ذلك هو مضمون نظرية الجشطلت : فما من مادة نفسية بغير انتظام والكل فى الإدراك سابق على الأجزاء بل إن وجود الأجزاء ودلالتها يتحدد فى الإدراك وفى غيره بالرجوع إلى الكل (قانون الكل. وقانون العضوية) . وكل ظاهرة نفسية هى كل دينامى أى انتظام دينامى وفى نفس الوقت هى كل وظيفى .
٤ – من حيث النزعة	ميكانيكية أى تقوم على ترابط العناصر عن طريق التكرار . فعند السلوكية ليس السلوك غير عادة أى مجرد تتابع آلى لمنعكسات تشريطية تم اكتسابها.	وظيفية بمعنى أن صميم الظاهرة النفسية ينحصر فيما تضطلع به من وظيفة (معنى أو دلالة أو هدف) فالمشكلة المحورية فى علم النفس هى وظيفة (التكيف) والتحليل النفسى نظرية وظيفية فى اختلالات السلوك . فالسلوك المحتمل صميمه أنه يقوم بوظيفة بل بأكثر من وظيفة لأنه عادة ما يرجع إلى أكثر من سبب (التحتيم بأكثر من سبب) .

ويمكن القول على وجه الجملة بأن السلوكية تنتمى بكل قضاياها إلى النزعة الطبيعية بينما ينتمى التحليل النفسى بكل قضاياه إلى النزعة الإنسانية . أما عن الجشطلت فإنها تنتمى ببعض قضاياه إلى النزعة الطبيعية، وبالبعض الآخر من قضاياه إلى النزعة الإنسانية . وسوف نوجز فى جدول وبضع كلمات ما كانت عليه وما صارت إليه مدارس علم النفس لنتبين أنها مضت كمداهج علم النفس فى نفس الاتجاه إلى التعاون والالتقاء .

تطور قضايا الطبيعية والإنسانية
إلى التعاون والالتقاء

١ - من حيث الموضوع : انتهى التطور بكل نزعة إلى أن تعترف وتتقبل قضايا النزعة الأخرى ، ومن هنا أصبح موضوع علم النفس هو السلوك بكل أوجه الشعورية والخارجية والفسيولوجية (تجارب شعورية ومسالك خارجية وعمليات فسيولوجية) وما قد يكمن وراء هذا كله من دوافع لا شعورية .

٢ - من حيث الهدف : انتهى التطور بكل نزعة إلى أن تعترف وتتقبل قضايا النزعة الأخرى ، ومن هنا أصبح هدف علم النفس التفسير والتأويل معاً . فحيث لا يمكن البلوغ إلى قوانين فهمية تتيح لنا أن نفهم كيفية صدور ما هو نفسى عما هو نفسى ، فإننا نقنع بقوانين التواتر والتصنيفات والمنحنيات (انظر وحدة علم النفس ص ٥٢ وما يليها) .

٣ - من حيث علاقة الكل بالأجزاء : انتهى التطور بانتصار النزعة الإنسانية انتصاراً حاسماً .. فالجميع يعترف اليوم بالدينامية أى الجشطلتية ويرفض الذراتية . فكل ظاهرة نفسية هى انتظام دينامى ، كل عضوى ، أى جشطلت .

٤ – من حيث النزعة : انتهى التطور بانتصار النزعة الإنسانية انتصاراً حاسماً.
فالجميع يعترف اليوم بالوظيفة ويرفض الميكانيكية . فكل ظاهرة نفسية هى
كل وظيفى أى وحدة كلية وظيفية .

وعليه ، يكون التقبل المتبادل قد تحقق فيما يتصل بالموضوع والهدف ، بينما تحقق انتصار النزعة الإنسانية فيما يتصل بديناميه الظاهرة النفسية ووظيفتها ، وهذا هو نفس ما نتبينه من الموجز التالى لمدارس علم النفس.. ما كانت عليه وما صارت إليه.

ظهور مدارس علم النفس كرد فعل لعلم نفس القرن ١٩

القرن التاسع عشر	القرن العشرون
علم النفس التقليدى أو الكلاسيكى، علم النفس الوصفى ، علم نفس الظواهر الشعورية ، علم نفس الاستبطان	
١ – الموضوع : الظواهر الشعورية	ظواهر لا شعورية = مدرسة التحليل النفسى ، فرويد سنة ١٩٠٠ مسالك فيزيائية (مسالك خارجية وعمليات فسيولوجية) = سلوكية وطسون سنة ١٩١٣
٢ – المنهج: الاستبطان	المنهج الكلينيكى (تحليل نفسى) والمنهج التجريبى (سلوكية وجشطلت) دينامية (جشطلتية) ووظيفية = مدرسة الجشطلت فرتهيمر سنة ١٩١١ .
٣ – النزعة : ذاتية وميكانيكية ، فالكل مجرد حاصل جمع للأجزاء ، والأجزاء سابقة على الكل . والسلوك مجرد تتابع آلى لمنعكسات شرطية بمعنى أن العلاقات والانتظام تنتج كلها من ترابط العناصر نتيجة للتكرار أى التواتر .	

١ – مدرسة التحليل النفسى :

(أ) منذ البداية تعترف بالدينامية (فالحلم محصلة للحفزات المكبوتة والرقابة أى دفاعات الأنا) وتعترف بالوظيفية (فالحلم يحرس النوم بالإشباع الهلوسى للرغبات المكبوتة التى لولا ذلك لأيقظت النائم) .

(ب) كان التحليل النفسى فى البداية لا يهتم إلا بالظواهر اللاشعورية بحسبانها وحدها المهمة وكان التشبيه الشهير للجهاز النفسى بجبل من الجليد يغطس معظمه ولا يظهر على السطح إلا أقل القليل . ولكن مع الوقت بين التحليل أهمية الدور الذى تقوم به الأنا ، ومن هنا انتقل الاهتمام إلى الصراع ما بين الظواهر الشعورية والظواهر اللاشعورية داخل الجهاز النفسى وما ينتج عن ذلك من محصلات .

٢ – مدرسة السلوكية :

(أ) كانت السلوكية الواطسونية تقوم على الذراتية والميكانيكية وبالتالى تنكر الدينامية والوظيفية ، حتى جاء طولمان وكانتور وكشفا عن الطابع الدينامى للتعلم (إعادة انتظام للحقل) وكذلك الطابع الوظيفى لكل سلوك .

(ب) كانت السلوكية الواطسونية ترفض الظواهر الشعورية على أنها غير عملية ، وذلك لأنها استعارت من علوم الطبيعة منهجها التجريبى وراحت تبحث له فى علم النفس عن موضوع مناسب ، بدلاً من أن تبحث لموضوع علم النفس وهو الإنسان عن المنهج المناسب . ومن هنا كان رفض السلوكية الواطسونية للظواهر الشعورية ولكن اتضح مع الوقت أن السلوك لا يمكن أن يكون بغير دافع ، وصميم الدافع التوتر أى ظاهرة شعورية ، وبذلك اضطرت السلوكية إلى الاعتراف بالظواهر الشعورية .

٣ – مدرسة الجشطلت :

(أ) منذ البداية تقوم على الدينامية (الجشطلت انتظام دينامى) وعلى الوظيفية (الجشطلت كل وظيفى) . وعندما اعترف كل علماء النفس بذلك ماتت

مدرسة الجشطلت من فرط نجاحها، وإن ظهرت فى النصف الثانى من القرن العشرين كمدرسة فى العلاج النفسى .

(ب) مدرسة الجشطلت كالسلوكية تعترف بكل أوجه السلوك، يشتركان فى رفضهما للظواهر اللاشعورية (وإن اعترف روجرز بالظواهر قبل الشعورية واعترف بيرلز بالظواهر اللاشعورية) .

٤ – علم نفس القرن ١٩ :

أصبح مع القرن العشرين جانباً من الفلسفة الظاهرياتية عامة والفلسفة الوجودية خاصة مما يظهر عند سارتر وهوسرل ، ويسمى أحيانا بعلم النفس الوجودى ولكنه ينتمى فى الواقع إلى الفلسفة ، وعليه فقد انتهى التطور بمدارس علم النفس إلى أن تتفق على ما يلى :

أولاً : مفهوم الدينامية ومفهوم الوظيفية وذلك إلى الحد الذى أصبح معه تعريف الشخصية والسلوك مجرد ترجمة لهذين المفهومين .

فالشخصية هى هذه الجشطلت (الانتظام الدينامى داخل الفرد لأجهزته النفسية والفسيولوجية ، التى تحدد توافقاته الأصيلة (الفريدة مع بيئته) .

والسلوك هو هذه الجشطلت (جملة العمليات الرمزية والفسيولوجية) التى يحاول بها الفرد فى موقف تحقيق إمكانية وخفض توتراته ، هذه التى تدفعه إلى الحركة بتهديدها لاتزانه (أى لتكامله) .

ثانيا : أصبح موضوع علم النفس هو السلوك بأوجهه الثلاثة (ظواهر شعورية ومسالك خارجية وعمليات فسيولوجية) وما قد يكون وراء هذا كله من دوافع لاشعورية، وينبغى أن ننتبه إلى أن الحقائق والمبادئ والقوانين التى انتهى إليها علم النفس تظل واحدة وإنما تكون أفرع علم النفس بتباين الموضوع (علم نفس صناعى ، وعلم نفس عسكرى، وعلم نفس حيوان الخ) أو بتباين المنهج (علم نفس تجريبى أو علم نفس كلينيكى الخ) أو بتباين الهدف (علم نفس نظرى وعلم نفس تطبيقى وعلم نفس علاجى) أو بتباين الصرح الفكرى لعالم النفس (تحليل نفس أو سلوكية أو جشطلت) .

ومن الواضح أن مدارس علم النفس في تطورها قد انتهت إلى نفس الأمرين اللذين انتهت إليهما النزعة الطبيعية والنزعة الإنسانية في تطورهما إلى التعاون والالتقاء . وسوف نتبين ذلك بالنسبة إلى المنهجين التجريبي والكلينيكي ، وما كانا عليه في البداية من تجابه وخصومة ورفض متبادل ، وما انتهيا إليه مع التطور من اعتراف متبادل وتعاون والتقاء .

الخصائص المميزة للمنهجين التجريبي والكلنيكي في تجابهما ورفضهما المتبادل في البداية

زاوية المقارنة	المنهج التجريبي	المنهج الكلينيكي
١ - من حيث الهدف	تبين الشروط (العوامل) التى تحكم (أى المسئولة عن) السلوك (الظاهرة النفسية) موضع الدراسة. هذا هو الهدف بشكل عام ، ولكن المنهج التجريبى يقوم على التحكم فى العوامل بمعنى أنه يحصرها ويقوم بتثبيتها جميعاً فيما عدا عاملاً واحداً فى المرة الواحدة . ومن هنا يكون هدف المنهج التجريبى هو التحديد الدقيق المحكم لأثر كل عامل من العوامل وعلى حدة على السلوك موضوع الدراسة (العوامل التى يتم تثبيتها هى الثوابت) والعامل الذى يتم تغييره فى المرة الواحدة هو المتغير المستقل والتغيرات التى تنتج عن ذلك هى المتغيرات التابعة . فالهدف باختصار هو التحديد الدقيق للشروط أى العوامل التى تحكم السلوك بحيث نتبين أثر كل عامل من العوامل على حدة.	تبين الشروط (العوامل) التى تحكم (أى المسئولة عن) السلوك (الظاهرة النفسية) موضع الدراسة هذا هو الهدف بشكل عام ، ولكن الكلنيكى لا يستطيع التحكم فى العوامل لا بتثبيتها ولا بتغيرها ، ومن هنا يكون هدف المنهج الكلنيكى هو تبين جملة العوامل المسئولة عن السلوك موضع الدراسة (اختفاء دورة الطمث عند طالبة يتضح فى المستوى الأول أنها تعبير عن رفضها لأنوثتها ولكل الرجال ، ولكن يتضح فى المستوى العميق أن ذلك يرجع كاختفاء لدورة الطمث إلى تثبيتها على الأب فهو الرجل الوحيد الذى تريده وتقبل معه أن تكون أنثى لتحصل على طفل . واختفاء دورة الطمث إذن هو عرض هستيرى بمعنى أنه تحقيق بدنى للرغبة المكبوتة فهى الآن بالنسبة إلى اللاشعور فى حالة «حمل» من أبيها فكيف تكون لديها دورة طمث وهى حبلى ؟)
٢ - من حيث الموضوع	قطاعات محددة من السلوك أى مسالك جزئية مستحدثة من قبل دراسة أثر المثوبة على التعلم . (جماعتان من الأطفال متجانستان نطلب منهما مثلاً استظهار عدد من الكلمات مع إعطاء مكافأة لمجموعة ولا شئ للأخرى ونتبين النتيجة) ،	الدراسة العميقة للحالة الفردية أى للشخص من حيث هو حامل مشكلة ، أى للشخصية بكليتها فى جملة علاقاتها مع بيئتها ، وذلك بأن نتبين الصراعات الأساسية لدى الفرد وعلى الخصوص تلك الأساليب الدفاعية المتميزة لديه فى مواجهته

	ولكن السلوك الواقعي العياني للفرد يستحيل على التجريب ، هذا إلى أن التجانس نسبي لأننا لا نستطيع تثبيت الخبرات الماضية عند الأفراد، بالإضافة إلى أن تثبيت العامل (المثير) لا يعني بحال تثبيت دلالته عند الأفراد .	للقلق ، هذا الذى تثيره لديه مواقف غريزية خطرة بعينها .
٣ – من حيث الأساس بالنسبة (لأسلوب العمل)	حصر جميع العوامل ثم القيام بتثبيتها جميعاً مع تغيير عامل واحد في المرة الواحدة حتى نتبين أثر كل عامل من العوامل على حدة . وهذا الأسلوب هو الأساس في التجريب المعملي وفي كل المقاييس المقننة . فالمقياس المقنن للذكاء يقوم بتثبيت جميع العوامل بما فيها الإطار الصوتي والضوئي والاتجاه السيكولوجي القائم بتطبيق المقياس الخ – بل وتكون الأسئلة في الاختبار لا تنصب على أي شئ آخر غير الذكاء بحيث يكون الذكاء هو المتغير المستقل الوحيد .	لا إمكانية بالطبع لحصر العوامل أو تثبيتها أو تغييرها ، ومن هنا يقوم المنهج الكلنيكي على ثلاث ركائز . (أ) دراسة الفرد من حيث هو وحدة كلية تاريخية (تاريخ الحالة) . (ب) دراسة الفرد من حيث هو وحدة كلية حالية ضمن ظروفها البيئية (المجالات المختلفة الحالية لحياته) (جـ) ومن دراستنا للفرد من حيث هو جشطلت تاريخية وجشطلت حالية نبلغ إلى تبين صراعاته الأساسية بمعنى المواقف الغريزية التي كان يعتبرها خطرة ومن ثم أثارت القلق ، ونوعية الدفاعات التي استخدمها لمواجهة هذا القلق وهي دفاعات تتكرر ومن ثم تتيح لنا كمبادئ تفسيرية أن نفهم شخصيته باختصار دراسة شاملة مطوقة .
٤ – من حيث التقنيات أي الطرائق المستخدمة	(أ) التجريب في صورته المعملية أو باستخدام مجموعتين متجانستين (مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة) (ب) المقاييس المقننة وهي تقوم على تثبيت جميع العوامل فيما عدا عاملاً واحداً هو الذي تكشف عنه الإجابات – والمقاييس المقننة إما	(أ) المقابلة الشخصية الطليقة (حتى وإن استعانت برؤوس الموضوعات) وتسمى الاستبصار . فلو كانت الأسئلة معدة مسبقاً وبترتيب بعينه وتوضع درجات للإجابة ، فذلك هو الاستبيان أو الاستخبار مما ينتهي إلى النهج التجريبي . (ب) الاختبارات الإسقاطية من

مقاييس قدرات عقلية (مقاييس ذكاء) أو مقاييس قدرات خاصة (ميكانيكية أو موسيقية .. الخ) ، أو مقاييس شخصية للاتجاهات أو السمات الخ – وفى جميع هذه الحالات يكون الهدف هو تحديد مكان المفحوص بالنسبة للآخرين من زاوية القدرة أو السمة التى نقيسها .

قبيل الرورشاخ والتات (تفهم الموضوع) وساكس الخ – وعادة ما تكون الاستعانة بالتحليل النفسى فى تفسير الأحلام والهفوات (زلات اللسان أو القلم) مما يتم عامة فى مقابلات شخصية تأتى فى النهاية بعد تاريخ الحالة وتطبيق الإختبار الإسقاطى . وهنا الهدف هو الفهم .

٥ – من حيث تناول المفحوص

يستخدم السيكومترى مع مختلف الأشخاص نفس المقاييس معطياً لهم نفس الزمن ونفس التعليمات ، ويحرص على أن يكون الإطار الصوتى والضوئى هو نفسه بالنسبة إلى الجميع ، بل ويحرص على أن يكون اتجاهه منهم نفس الاتجاه مما يعنى تثبيت نفسه كعامل بالنسبة إلى الجميع وتسمى الملاحظة فى هذه الحالة ملاحظة خارجية . باختصار تثبيت كل شئ بما فى ذلك نفسه بحيث يكون المقياس هو المتغير المستقل الوحيد .

يتكيف الكلنيكى مع كل فرد تبعاً لفرديته بحيث يعينه على أن يتكلم وفى حرية واسترسال فى الاتجاه المطلوب ، فى تجنب مع ذلك لأى إيحاء . وتكون الملاحظة هنا ملاحظة مشاركة (بكسر الراء) بحيث يعيش الكلنيكى الموقف ولكنه لا يكون بذلك غير موضوعى لأن الموضوعية العلمية لا تكون باستبعاد الذاتية بل بتجنب ذاتية الميثوس والأخذ بذاتية اللوغوس التى هى بناء ذهنى يجيب بالحقيقة على الواقع .

٦ – من حيث الملاحظة وتسجيل الاستجابة

يتبع السيكومترى طريقة موحدة وسط ظروف من التحدد بحيث يكون فى وسع أى شخص أن يصل إلى نفس النتيجة . ومن هنا يكون فى وسع صبى المعمل متى حصل على مفتاح التصحيح أن يقوم بتصحيح المقاييس . أما لو كانت هناك ملاحظات عن سلوك المفحوص أثناء إجابته على المقياس فإن ذلك ينتمى بالطبع إلى المنهج الكلنيكى .

يقوم الكلنيكى بملاحظة استجابات الشخص فى وحدتها الكلية وتفصيلاتها الدقيقة وذلك فى موقف حيوى ومهم فى دلالته ألا وهو موقف الفحص – فغالباً ما يتكلم باليدين بشكل أكثر صراحة وعمقاً ، ومن هنا تكون أهمية الحركات المصاحبة لنوعية بعينها من الإدلاء، هذا إلى أن التفصيلات المرهفة هى التى تتيح غالباً فهم الدلالة الحقيقية للسلوك الكلى . فالاندفاع الجرئ ربما يكون مجرد

تكوين مضاد ولخجل عميق يحاول المفحوص أن يستره .

٧ – من حيث تأويل النتائج

يقيم السيكومترى نتيجة المفحوص بالرجوع إلى سلم قياس سبق إعداده من قبل إلى عينة ممثلة أى يتم تحديد مكانه من الآخرين بالرجوع إلى المعايير التى سبق إعدادها والتى تحدد المتوسط والمستويات العليا والدنيا . ومن هنا تقوم السيكومترية على شئ واحد هو منطق التواتر .

يقوم الكلنيكى بعملية مماثلة ثم بعملية موائمة فهو فى البداية يماثل حالة المفحوص بنمط من الأنماط الكيفية التى تعلمها من قبل (عصاب قهرى – هستيرى – برانويا الخ) ، ولكن إلى هنا لا يكون التشخيص مكتملاً بلصق هذه البطاقة أو تلك . فلا بد للكلنيكى من أن يستوعب التفصيلات الفردية المخصصة للمفحوص، بمعنى أن يوائم النمط الكيفى مع خصوصية حالة المفحوص . بذلك يتبين الانتظام الفريد الذى تتجسد عليه الهستيريا أو العصاب القهرى فى هذه الحالة وبذلك وحده يكتمل التشخيص . فصميم التشخيص هو عملية المواءمة .

٨ – من حيث المعايير

المعيار الوحيد هو التواتر (انتظامية الحدوث) . فالقانونية تقوم على الغالبية ، بمعنى أن يكون الارتباط بين الظواهر أى تكرار حدوثها شيئاً غالباً (عادة ارتباط يزيد على ٥, مع حساب معامل الاغتراب) . مثل هذه القانونية تسند شرعية الاستثناءات وإن كانت تغفلها تماماً لحساب الغالبية (انظر الفصل الأول من نظرية دينامية عن الشخصية – كارت ليفين سنة ١٩٣٥ ، انظر أيضاً وحدة علم النفس لاجاش .

ومعايير المنهج الكلنيكى لا صلة لها بالتواتر بل هى التكامل والتقاء الوقائع ومبدأ الاقتصاد ، بالإضافة إلى ثلاثة معايير أخرى أقل حيوية (انظر فيما بعد: التشخيص)

ولكن استمراراً لهذه النقطة الأخيرة سوف نعرض للمنهجين التجريبى والكلنيكى من حيث ما يقوم عليه الأول من نهج أرسطالى فى تناول الوقائع وما يقوم عليه الثانى من نهج جاليلى فى تناول الوقائع .

العملية العلمية في المنهج التجريبي والمنهج الكلنيكي

ليس العلم بتسجيل الوقائع (مهما كانت دقة الأجهزة) ولا هو بمعامل ارتباط بين الظواهر (مهما كان عالياً) ، فالوقائع بذاتها والأرقام بذاتها بلهاء، والوصف الرقمى كالوصف اللفظى يمهد للعلم ولكن لا يدخل ضمن العملية العلمية . فالعلم هو :

تفكير الوقائع :

أرسطالى	جاليلى
لا بلغة الفئات على طريقة أرسطو	بل بلغة السياقات على طريقة جاليليو
١ - مما يستند إلى النظر إلى الظواهر على أنها متباينة تماماً، توضع فى أصناف مختلفة أو متطابقة تماماً. توضع فى صنف واحد (عملية تصنيفية)	١ - مما يستند إلى النظر إلى الظواهر لا على أنها متباينة تماماً ، ولا على أنها متطابقة تماماً بل على أنها متماثلة .
(أ) ثم نتناول عدداً كبيراً من أفراد الصنف (استقراء فسيح) .	(أ) أى هى هى من حيث المبدأ كأنواع مختلفة تدخل ضمن جنس واحد (المجانسة) .
(ب) ثم نتبين الخصائص المشتركة بينها ونعمدها ماهية للظاهرة (عملية تجريدية) .	(ب) وإن تجسدت فى تشكيلة من التباينات بتباين الشروط (مبدأ الشرطية) .
(جـ) وماهية الظاهرة الفرد أو الشئ تنطوى على متجه هو وحده الذى يحدد السلوك (إنكار لتأثير البيئة)	(جـ) ومعنى ذلك أن السلوك الختامى لا ينتج فقط من «المتجه» الصادر عن الفرد أو الشئ بل وأيضا عن المتجهات الموجودة فى الحقل ، فالسلوك الختامى محصلة الصراع بين المتجه الذى ينطوى عليه الفرد والمتجهات الموجودة فى البيئة .

٢ – فالعلم هنا ينتج من استقراء فسيح أى من التواتر وانتظامية الحدوث مما ينتهى إلى قوانين تواتر (عملية تصنيفية ثم تجريدية للخصائص المشتركة تقيم الماهية التى تنطوى على متجه (طبيعة الشئ هو وحده وفى إنكار تام لتأثيرات البيئة يحدد سلوك الشئ أو الفرد) (مفهوم الغريزة قديماً كقوة آلية عمياء) .

٢ – فالعلم لا ينتج من استقراء فسيح لعدد كبير من الحالات بل من استقراء مركزى لحالة واحدة ، حالة نقية تتبدى فيها العلاقة بين الجنبات الرئيسة للظاهرة على نحو استثنائى من الوضوح يتيح للعالم أن يبنى الأنموذج الهيكلى للظاهرة (نظرية تفسيرية أو قانون فهمى لا قانون تواتر) أى يبنى النمط الكيفى الذى يقدم العلاقة المثالية ، هذه التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيلة من التباينات أو قل التبدلات الوضعية التى لا نهاية لتبايناتها وهذا «البناء» هو صميم العملية العلمية .

هذا هو أساس المنهج لا يبلغ بنا إلى الفهم بل إلى قوانين تواتر تسمح بوجود الاستثناءات وحيث يوجد استثناء واحد تبطل كل قانونية . ومن هنا يقرر لفن بدلاً من المتوسط التجريدى لأكبر عدد ممكن من الحالات المعطاة تاريخياً ، ينبغى الرجوع إلى العيانية المكتملة للحالة الخصوصية (أى للحالة النقية التى تتبدى فيها العلاقة بين الجنبات الرئيسة على نحو استثنائى من الوضوح .

(فمفهوم الغريزة فى التحليل النفسى لا ينظر إليها على أنها قوة آلية عمياء تحدد للفرد سبقاً وفى كل تفصيلاته سلوكه الجنسى أو العدوانى ، فالغريزة الجنسية أو العدوانية ليست غير مجرد متجه يصدر عن الفرد ويكون سلوك الفرد محصلة للصراع ما بين هذا المتجه الصادر عن الفرد والمتجهات البيئية القائمة فى الحقل . ومن هنا فمفهوم السمة أو القدرة الخ كشئ مستقل يحدد سلوك الفرد بصرف النظر عن البيئة يعتبر اليوم شيئاً غير علمى) ذلك هو أساس المنهج الكلنيكى والمنهج النقدى والمنهج العلمى بمعنى الكلمة .

مما سبق يتضح بشكل قاطع أن لب العملية العلمية إنما ينحصر فى إعادة بناء Reconstruction الوقائع فى ذهن العالم فى صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى أى فى صورة أنموذج هيكلى ونمط كيفى يقدم «العلاقة المثالية» ، هذه التى تتجسد فى «الواقع العيانى» فى تشكيلة من التباينات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية . وفى هذا ما يرينا أن الأدوات الرياضية والمعالجات الإحصائية لا تقيم العلم بل تظل مجرد أدوات مساعدة . ففارق كبير ما بين العملية العلمية وبين أدوات الصنعة العلمية من تجريب ومعادلات رياضية ومعالجات إحصائية . فأدوات الصنعة هذه إنما ترجع إلى ما يتوهمه البعض من أن أنموذج اليقين العلمى إنما هو الأنموذج الفيزيائى الرياضى . وقد أوضح كيرت ليفين فى الفصل الأول من كتابه الشهير «نظرية دينامية عن الشخصية سنة ١٩٣٥» بطلان هذا الوهم عندما أبان عن أن تقدم الفزيائيات المعاصرة لا يرجع إلى استخدام الرياضيات والدقة الرقمية بل يرجع فحسب إلى استخدام المنهج الجاليلى فى تناول الوقائع . ليس العلم إذن بجداول رياضية ومعادلات إحصائية بل ليس العلم بتجريب معملى كما يتوهم البعض ممن يزعمون الالتزام بالموضوعية بعيداً عن كل ذاتية . مثل هذه الموضوعية(١) التى يتوهمونها ليس لها من وجود إلا فى أذهانهم . فالموضوعية العلمية تبلى دائماً أبداً فى ذهن الباحث ومن هنا تكون النسبية فى العلم ومن هنا أيضاً تكون الذاتية بمثابة الرحم الذى يتمخض عن الموضوعية العلمية(٢) . ولكن الذاتية التى نعنيها ليست ذاتية أخاييل الفرد مما يعرف بالميثوس ولا هى ذاتية أخاييل الشعوب فى أساطيرها وآرائها العامة مما يعرف بالديماجوس ، إنما الذاتية التى نعنيها هى ذاتية اللوغوس ، هى تلك الذاتية التى تتيح

---

(١) انظر (مشكلات ما وراء المنهج – الموضوعية والذاتية – د. سيد عثمان ، من الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس – المجلد الخامس ١٩٧٨) .

(٢) بينما يتنازل رجل الجمهور عن ذاتيته تواؤماً مع الواقع الخارجى ، (الديماجوس) فإن العصابى ينحبس فى ذاتية من تخيلاته الطفلية (الميثوس) تسد عليه كل سبيل إلى الواقع الخارجى . أما الفنان فإنه يعزف عن الواقع الخارجى بذاتية صروحه الفنية (الأبولنيوس) هى التى تعود به من جديد عبر استحسان الجماهير لنتاجاته الإبداعية إلى الواقع الخارجى . وكذلك العالم فإنه يعزف عن الواقع الخارجى ليلوذ بذاتية صروحه التفسيرية ونماذجه الهيكلية عن الواقع (اللوغوس) هذه التى تعود به من جديد عبر ما تقدمه من حقيقة عن الواقع تتأكد بالممارسة العملية ، إلى الواقع الخارجى . فعملية الإبداع الفنى والابتكارى العملى ليست غير حركة دياكتيكية من الذهاب والمجئ ، من–

لصاحبها عالماً أو باحثاً أن يبنى عن الواقع أنموذجه الهيكلى. بذلك تجيب اللوغوس بالحقيقة على الواقع، وتلك هى الموضوعية العلمية بكل معنى الكلمة .

وهنا ينبغى أن نفرق بين العملية العلمية فى معناها الجزئى والعملية العلمية فى معناها الشامل . فالتجريب المعملى يتمخض عن حقائق يقينية ، ولكنها حقائق جزئية (ونحن نستبعد من ذلك لعبة معاملات الارتباط لأن الارتباط لا يعنى السببية بحال بل هو عبث بالأرقام) هذه الحقائق اليقينية الجزئية التى يبلغ إليها المنهج التجريبى (ولا أقول السيكومترى) لا تقيم العلم بل هى مجرد لبنات للعلم تحتاج إلى من يقيم صرحها فى نظرية شاملة .

بول جيبوم لم يكن يوماً ما من علماء نفس الجشطلت الذين أجروا تجاربهم الشهيرة ومع ذلك يقول كوهلر أمام الجشطلتين بأنه لم يفهم نظرية الجشطلت إلا عندما قرأ كتاب بول جيبوم (علم نفس الجشطلت) فكيف ذلك ؟ بكل بساطة لأن بول جيبوم هو الذى استطاع أن يبنى كل الحقائق اليقينية الجزئية التى انتهى إليها علماء نفس الجشطلت من تجاربهم ، فى صرح نظرية تفسيرية واحدة بحيث تجد كل حقيقة جزئية مكانها ضمن النظرية التفسيرية، وبحيث تلتقى كل الوقائع عند نفس الدلالة مما يعرف بمبدأ التكامل ، ومبدأ التقاء الوقائع اللذين ينتميان إلى معايير المنهج الكلنيكى والمنهج النقدى أى إلى معايير المنهج العلمى على وجه الدقة . وإذا كان لنا أن نلخص العملية العلمية فى كلمة فهى إعادة بناء Recontruction الوقائع فى ذهن الباحث فى صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى بينما تظل قوانين التواتر مجرد صيغ مريحة تسمح بالتنبؤ دون أن تسمح بالفهم . وقبل أن نبلغ إلى فهم الظاهرة فإننا لم نبلغ بعد إلى العملية العلمية بمعنى الكلمة .

- العزوف والعودة ما بين الواقع الخارجى والذاتية الفردية (وفى هذا ما يذكرنا بعبارة مورينو الشهيرة: إن الموضوعية الحقة ، لا يمكن أن تكون دون مرور بالذاتية "Subjectivation وما يذكرنا فى الفلسفة الوجودية بالذاتية كلحظة بين موضوعيتين ، وفى الماركسية بالوعى كلحظة بين واقعين (من وسائل الإنتاج) وبالتفرقة الشهيرة فى نظرية الجشطلت بين الظاهرة الدينامية وشروطها الطبوغرافية) . ويرى مخيمر أن تعطل الديالكتيكية ما بين الذات الفردية والواقع الخارجى هو الذى يقيم الاغتراب Alienation . فعندما يكون الالتحاق بالذات على حساب الواقع يتخذ الاغتراب صورة الاختلالات النفسية والعقلية بينما يكون الاغتراب عند الالتصاق بالواقع على حساب الذات فى صورة التواؤمية التى تخض الإنسان إلى مجرد شئ وموجود فى ذاته .

اتهامات زائفة للمنهج الكلنيكي

عادة ما يعيب القياسون النفسيون من المتعصبين للسيكومترية على المنهج الكلنيكي ما يلي :

١ – **ليس بنظرى** : ولكنهم ينسون أن النظرى غير سابق على العملى ، بل هو تنقية لمعارف الممارسة العلمية والخبرة الواقعية .

٢ – **ليس بمحكم** : ولكنهم ينسون أن الاحكام الفيزيائى الرياضى ليس هو الأنموذج الوحيد لليقين العلمى ، بل وأكثر من ذلك أنه يقتصر على اليقين العلمى للحقائق الجزئية . فاليقين العلمى فى العملية العلمية بالمعنى الشامل والدقيق للكلمة لا يمكن أن يكون إلا تلك الأبنية الذهنية التى تجيب بالحقيقة على الواقع الخارجى ، ومن هنا تكون النسبية فى العلم .

٣ – **ليس بعام** : ولكنهم ينسون أن العمومية الحقيقية لا تنتج من استقراء فسيح لعدد كبير من الحالات ، بل تنتج من استقراء مركزى لعدد قليل من الحالات ، بل لحالة واحدة هى التى يسميها ليفين بالحالة النقية ، ومن هنا يقرر البعض أن تعميق الحالات يفضل تكثيرها . وجولداشتين كان يقوم بالتعميم من حالة واحدة وكذلك فعل مخيمر فى دراسته لسيكولوجية الحب . يقول ليفين: وبدلاً من الرجوع إلى المتوسط التجريدى لأكبر عدد ممكن من الحالات المعطاة تاريخياً ، يتحتم الرجوع إلى العيانية المكتملة للحالة الفردية «الخصوصية» الفصل الأول من نظرية دينامية عن الشخصية . ومع هذا كله يظل من الممكن بالنسبة إلى المنهج الكلنيكى أن يقارن بين الأسوياء والمرضى ، بين الأطفال والراشدين ، بين الرجال والنساء، بين الناس فى الثقافات المختلفة ، تماماً كما يقيم المنهج التجريبى السيكومترى عموميته المزعومة على مقارنة بين الإنسان والحيوان .

بذلك يتضح زيف الاتهامات التى توجه إلى المنهج الكلينيكى، فهذه الاتهامات يستحيل أن تصدر عن شخص يفهم الطبيعة الحقة للعملية العلمية من حيث استنادها بالضرورة إلى النهج الجاليلى فى تناول الوقائع .

تطور المنهج التجريبي والكلنيكي
بتباينهما لما بينهما من تداخل وتعاون
ولما التقيا عنده من نتائج

أولاً - عن تبين المنهجين لتداخلهما وتعاونهما :

إن التجابه بين المنهجين إنما كان تعبيراً عن لحظة من لحظات تاريخ الفكر وعن الحركة الديالكتيكية لجهد العلماء فى التلاؤم مع الحقيقة ، ومن هنا اتضح مع الوقت أن أحدهما يكمل الآخر مما يظهر فى الكلنيكية المسلحة (بالمقاييس) فكل منهج يحتاج إلى الآخر وهذا التعاون هو الذى يقيم «وحدة علم النفس» .

١ – المنهج التجريبى يحتاج إلى المنهج الكلنيكى فى :

(أ) يقوم المقياس على نظرة كلينيكية فى مولده وعند تطبيقه (أى مقياس هو المناسب ؟) .

(ب) النتائج الجزئية للمقياس تحتاج إلى نظرة كلينيكية لإقامة الوحدة الكلية .

(جـ) بل إن المقياس ليس غير جملة من الملاحظات الكلينيكية الشديدة التركيز.

(د) هناك مسالك عيانية تنغلق على القياس فلابد لها من الكلينيكية (كدراسة الغيرة) .

٢ – المنهج الكلينيكى هو الآخر يحتاج إلى المنهج التجريبى فى :

(أ) يحل الكلينيكى فروضه بالمقاييس (حالة ضعف عقلى مثلاً) .

(ب) يستجلى الكلينيكى بالمقاييس مادة متحجبة يتشكك فى وجودها .

(جـ) يستخدم الكلينيكى المقياس أحياناً مادة شبك مع المفحوص المتهيب .

(د) الاستخدام الكلينيكى للمقياس بل هناك اختبارات كلينيكية بمعنى الكلمة (رورشاخ والتات وساكس ... الخ) .

ثانيا : تبين المنهجين لالتقائهما عند نفس النتائج :

إن التعاون بين المنهجين قد أصبح يقتصر على التمييز بين ميدانين : السلوك بصورة عامة والسلوك الإنسانى العيانى وما يتبع ذلك من تمايز طريقة التناول . ولكن التقى المنهجان مع ذلك من حيث موضوع علم النفس ، ومن حيث هدفه ، ومن حيث القوانين والمبادئ التفسيرية .

١ – من حيث الموضوع : أصبح علم النفس هو العلم الذى يدرس السلوك بأوجهه الثلاثة (الشعورية والعمليات الفسيولوجية والمسالك الخارجية) وما قد يكمن وراء هذا كله من دوافع لا شعورية .

٢ – من حيث الهدف : أصبح الهدف فى المنهجين هو إحلال السلوك مكانه من جملة العوامل الشارطة له .

٣ – من حيث القوانين التفسيرية : لم تعد قوانين التواتر من حيث هى تفسير يسمح بالتنبؤ دون أن يسمح بالفهم ، قاصرة على علوم الطبيعة كما اعتقد ياسبرس ، وكذلك لم تعد القوانين الفهمية من حيث هى تأويل يسمح بالتنبؤ ويسمح بالفهم ، قاصرة على علوم الإنسان . ففى علوم الطبيعة كما فى علوم الإنسان توجد اليوم قوانين التواتر جنباً إلى جنب مع القوانين الفهمية . ففى علم النفس يسمح قانون الأثر الذى تولد عن استقراء فسيح ليس فقط بالتنبؤ بل أيضاً بالفهم ، فهو فى هذا لا يختلف عن النماذج الهيكلية وأنماط العلاقة المثالية التى يبلغ إليها المنهج الكلينيكى . أما عوامل الذكاء والابتكار وعوامل الشخصية مثلاً وما تتمخض عنه الدراسات السيكومترية فلا يمكن ترجمتها إلى فهم .

٤ – من حيث المبادئ التفسيرية : الهوميوستازس فى السلوكية يناظر مبدأ الثبات فى التحليل النفسى ، وقانون الأثر يناظر مبدأ اللذة والواقع (وفى الحالين محاولة لرد العقوبة إلى الإثابة ومبدأ الواقع إلى مبدأ اللذة) وكذلك فإن التعزيز والعادة يناظران مفهوم التثبيت ، فالتعميم فى العادة بانسحابها على مواقف جديدة يناظر العقدة والطرح (المصطلح Transference) مشترك بين السلوكية والتحليل النفسى .

خلاصة فيما يمكن وسينبغي لكل منهج من المنهجين أن يفيده من المنهج الآخر

أولاً - الكلينيكية يمكن أن تفيد من التجريبية في :

١ - إيضاح وصقل تصورات كلينيكية الأصل بالتجريب على الفروض التى انتهت إليها الكلينيكية .

(أ) الميل المحارمى يمكن أن يكف كل ميل جنس ثم الشفاء فى موازاة مع التعميم والتمييز .

(ب) كذلك التجريب على النكوص والعدوان كاستجابة للإحباط .

٢ - قوانين يمكن تطبيقها فى تفسير السلوك العيانى :

(أ) الأنموذج الحيوانى للتطبيع الاجتماعى يسمح بتبين السمات الأساسية لعملية التطبيع عند الإنسان وإن كانت هناك خصائص متميزة للتطبيع الاجتماعى عند الإنسان نتيجة اللغة .

(ب) كذلك الدراسة التجريبية للصراع عند الحيوان (منحنى التجنب والاقتراب ونقطة تقاطعهما تشير إلى اللحظة التى يصبح فيها السلوك صراعياً) هذا إلى أن الميل للتجنب يتزايد بأسرع مما يتزايد الميل إلى الاقتراب .

باختصار فإن التجريبية تزود الكلينيكية بمبادئ يقينية واضحة، وعليه فالكلينيكى لابد له من إعداد تجريبى .

ثانياً - التجريبية تحتاج الكلينيكية وتفيد منها في :

١ - استحالة التجريب عميانياً ، فالكلينيكية استطلاع وتنقيب وصياغة للفروض التى ستخضع للتجريب (نلتقى بالتحليل النفسى فى كل الأبحاث التجريبية المتصلة بالسلوك الفردى وعلم النفس الاجتماعى - (التجريب على النكوص والعدوان كاستجابة للإحباط) .

٢ - التجريب ينصب على قطاعات محددة من السلوك، ومن هنا يكون على

الكلينيكية أن تضطلع بإقامة الوحدة الكلية للسلوك البشرى .

٣ – أن نظرية عامة فى السلوك يستحيل عليها أن تستغنى عن المعارف الكلينيكية الخاصة بالمسالك غير المتكيفة. فعلم نفس السوية ليس غير خرافة. (العصاب التجريبى مثلاً لا يمكن فهمه إلا كدفاع ضد ترويض مسرف تماماً كالعصاب البشرى من حيث هو دفاع ضد التطبيع المسرف) .

ومن هنا فالكلينيكية والتجريبية ليسا فحسب يلتقيان بل يتبادلان العون .

وتلخيصاً للموقف نقرر :

١ – المنهج الكلينيكى ينفرد بالاستطلاع وبإقامة الوحدة الكلية من المعطيات الجزئية ودراسة المسالك التى يستحيل استحداثها ، هذا إلى أنه يغنى عما عداه.. فجميع مشكلات علم النفس الإنسانى يمكن أن يتناولها المنهج الكلينيكى ويخلص منها إلى نظرية عامة فى السلوك البشرى الأمر الذى يتمثل فى التحليل النفسى .

٢ – أما المنهج التجريبى فيزودنا بمبادئ يقينية وقوانين تعين على تفسير السلوك العيانى ولكن التجريب :

(أ) يمثل مرحلة تالية من البحث .

(ب) يقتصر على دراسة مسالك جزئية . ولكن إذا كان الشخص العيانى وبكليته فى علاقته ببيئته هو موضوع علم النفس فليس هناك غنى عن المنهج الكلينيكى .

نصوص عن موراي(١)

ترينا أن علم النفس هو دراسة للحالة الفردية

من كتاب نظريات الشخصية .ك. هول ، ج. لندزى – الترجمة العربية – فرج أحمد فرج وآخرون – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ويعتقد موراى أن الفهم المناسب للسلوك ينبغى أن يكون تالياً للدراسة الكاملة والتفصيلية للحالات الفردية . وكما قدمت دراسة العالة مساعدة لا تقدر لنمو وتطور العلوم الطبية ، فإن مستقبل علم النفس يرتبط بقبول الباحثين لبذل الجهد والوقت فى سبيل الفهم الكامل للحالات الفردية .

فالنتائج التى تميز ٨٠٪ من جماعة خاصة لا يكون لها سوى قيمة ضئيلة إذا لم يكن ممكناً تقديم بعض التفسير لفشل الـ ٢٠٪ الآخرين فى الاندراج فى هذا النمط . ويعد تأكيد موراى باستمرار على هذه النقطة واحداً من إسهاماته الرئيسة فى مناهج البحث .

وهكذا فمن الضرورى أن يؤدى موقف موراى به إلى الدراسة المتعمقة للمفحوصين، ويؤدى هذا بالطبع إلى تقليل عدد المفحوصين الذين يمكن دراستهم فى الوقت الواحد ، وأيضاً عدد الدراسات التى يمكن للفاحص الواحد أن ينجزها فى عدد محدود من السنوات .

والآن نستمع إلى موراى نفسه وهو يقول: لقد دهشت فى البداية حين كنت أتوقع بشكل عام أنه يجب أن يهتم أغلب علماء النفس الأكاديميين بالإنسان فى بيئته . ولكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق . ويمكن أن تتخيل أن موقفى كان أشبه بطالب الطب الذى يكتشف فجأة أن كل معلميه متخصصون فى العين ، والأذن ، والأنف .

---

(١) كما كان ليفين عالما فى الفيزياء قبل التحول إلى علم النفس ، كان موراى طبيباً جراحاً ثم عالماً فى البيولوجيا والفسيولوجيا قبل أن يحصل على الدكتوراه فى الكيمياء العضوية انظر نظريات الشخصية هول ولندزى ، الترجمة العربية – ص ٢١٥ .

إن الظاهرة التى ضايقتنى لم تكن لتذكر طالما أن هناك ظواهر قابلة للتحقيق التجريبى المضبوط .. وربما لو كان هدفى الرئيس هو العمل بأقصى دقة علمية لما كانت قد بارحت المحلات الكهربائية والغازات مطلقاً . لقد تغيرت بسبب الاهتمام الملح بأدوار أخرى مثل مشكلات الدوافع والانفعالات . وكانت محاولة إنجاز ذلك على الإنسان تجعل منى عالماً نفسياً أدبياً يطل من الخارج على علماء النفس الحقيقيين الذين كانت تستحوذ عليهم – كما استخلصت – أهداف ملحة لتسلق السلم الاجتماعى للعلماء والانضمام إلى تلك النخبة بأى ثمن . وإلا فماذا غير ذلك يمكن تفسير وضعهم للوسائل (الأجهزة والإحصاء) بعيدة إلى هذا الحد عن الأهداف (أهمية المشاكل موضع الدراسة؟) بحيث إنه مهما كانت تفاهة النتائج فإن المجرب يعتبر نقياً وطاهراً طالما أن معاملات الارتباط لديه تكون ثابتة (مورای ١٩٤٠ ، ص ١٥٤) .

Murry, H.A., "What should psychologists do Adult Psychio-Anal

نصوص من كيرت ليفين في الفصل الأول

من كتابه الشهير "نظرية دينامية في الشخصية سنة ١٩٣٥"(١)

تعتبر العبارات التالية لكيرت ليفين لب ثورته الكوبرينيكية فى مناهج البحث :

فسيان كانت الحادثة التى يصفها القانون تحدث نادرا أو غالباً فليس لهذا من صلة بالقانونية ، وفى الواقع فإن القانون – بمعنى ما – لا يشير إلا إلى الحالات التى لم تتحقق قط أو فقط التى تحققت بشكل تقريبى فى المسار الفعلى للأحداث .

مثل هذه الأبحاث الإحصائية تكون نتيجة لذلك عاجزة – كقاعدة عامة – عن تقديم تفسير لديناميات العمليات المتضمنة .

وتحت هذا العنوان «من المتوسط إلى الحالة النقية» يكتب كيرت ليفن ما يلى :

«إن الصدق العام ، مثلاً ، لقانون الحركة على سطح مائل لا تتم إقامته بحساب المتوسط لأكبر عدد ممكن من الحالات لأحجار واقعية تتدحرج بشكل فعلى هابطة إلى أسفل التلال ، ثم اعتبار هذا (المتوسط) على أنه أعظم الحالات احتمالاً ، إن الصدق العام لهذا القانون يقوم بالحرى على التدحرج (عديم الاحتكاك) لكرة (مثالية) هابطة على طول سطح (مطلق) الاستقامة والصلابة، بمعنى أنه يقوم على عملية لا يستطيع حتى المعمل إلا أن يحدثها بشكل تقريبى ، فإن المرء – فى الطريقة الجديدة – يستخدم طريقة .. تعتمد كل الاعتماد على الأحداث الفردية العارضة، وفى واقع الأمر تعتمد على أعظم الاستثناءات بروزاً .. وحتى الحالة الخصوصية يكون التسليم عندئذ ودون حاجة إلى المزيد من الضجيج بأنها قانونية . فالندرة التاريخية ليست بدحض ، والانتظامية التاريخية للحدوث ليست بإثبات للقانونية» .

ويتابع كيرت ليفين حديثه فيرينا كيف أن دراسة الظاهرة معزولة عن سياقها ، مسألة تتنافى مع العلم بمعنى الكلمة «ولكن الموقف يحظى من الأهمية بقدر ما يحظى به الشئ . ونسقط عن طريق الكل العيانى الذى يشمل الشئ والموقف تتحدد المتجهات

---

(١) الترجمة العربية الكاملة لهذا الفصل توجد ضمن – عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس – مخيمر سنة ١٩٨٠ – الناشر سعيد رأفت .

هذه التى تقوم بتحديد ديناميات الظاهرة – فبدلاً من الرجوع إلى المتوسط التجريدى لأعظم عدد ممكن من الحالات المعطاة تاريخياً يكون الرجوع إلى العيانية المكتملة للمواقف الخصوصية» .

وأخيراً يوضح ليفين العملية العلمية بمعنى الكلمة فى صدورها عن الحالات العيانية لا عن المتوسطات الإحصائية فيكتب «إن ديناميات العمليات يتحتم دائماً اشتقاقها من علاقة الكائن العيانى بالموقف العيانى ، وبقدر ما يختص الأمر بالقوى الداخلية ، يتحتم اشتقاقها من العلاقات المتبادلة بين الأجهزة الوظيفية المختلفة التى تقيم الفرد ... إن الصدق العام للقانون وعيانية الحالة الفردية ليسا بالنقائض ، وإن الرجوع إلى الوحدة الكلية للموقف العيانى كله ينبغى أن يأخذ مكان الرجوع إلى أكبر مجموعة تاريخية ممكنة من التكرارات المتواترة» .

من تصدير مصطفى زيور لكتاب "علم النفس الإكلينيكى"

مصطفى الزيادى

وثمة ما هو أخطر مما قدمنا ، ذلك أن الأخصائى النفسى الذى يلتزم بالتحليل الكمى التزاماً حرفياً دوجماطقيا يقع من حيث لا يدرى فيما أراد أن يتحاشى الوقوع فيه ، أعنى اختلاف الذاتية بنتائجه التى أرادها (موضوعية) بحتة . فقد قام الدليل على أن أى علاقة بين فردين من الناس إنما هى أولاً وأخيراً علاقة بين – ذاتية – وبالتالى فإن الموضوعية الحقة هى التى تأخذ فى الاعتبار متغير الذاتية ، وبعبارة أخرى فإنه لا سبيل إلى استبعاد «التحويل» ومضاد التحويل (الطرح ومقابل الطرح) فى أى موقف إنسانى بما فى ذلك موقف المجرب فى معمل علم النفس ، أو موقف القياس النفسى ، وكما أن الحرية الحقة هى الفطنة إلى الحتمية النفسية فطنة تتيح لنا معالجتها فإن الموضوعية الحقة هى الفطنة إلى حتمية الذاتية على نحو يمكننا من أن نقدر تأثيرها بوصفها «متغيراً» طبيعياً .

من مقدمة كتاب "تناول جديد في تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية"

مخيمر

إن الموضوعية الحقة هي الفطنة إلى حتمية الذاتية ، على نحو يمكننا من أن نقدر تأثيرها بوصفها متغيراً طبيعياً – مصطفى زيور .

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، ويحق، بأنه إذا كان من المستحيل إخضاع الذاتية للضبط التجريبي بأحكامه وصرامته ، ومن ثم تستحيل معاملة الذاتية معاملة متغير طبيعي، فما الذي يمكن أن تعنيه هذه العبارة اللهم إلا أن تلقى بناء في بحار من الذاتية التي لا قرار لأغوارها . ويمكننا أن نستطرد مستوحين آراء أستاذنا لاجاش فنقرر بأن الموضوعية الحقة تنحصر في هذه الوثبة الكيفية التي تنقلنا من عالم الميثوس إلى عالم اللوغوس وذلك من فوق عالم الديماجوس ، وبعيداً عن عوالم الأبولينوس(١) . فإننا إذا طرحنا جانباً عوالم الفن والعالم المألوف ، وعالم الرأي العام والحس الفطري ، فإن الموضوعية الحقة تكون في هذه الوثبة الكيفية من ذاتية التخييلات والأخاييل الفردية إلى التأويل الذي بنى الوقائع بناء جديدا في صورة أنموذج هيكلي ، نمط كيفي من العلاقة المثالية ، بحيث تكون جميع الحالات الأخرى المماثلة مجرد تشكيلة تباينات ، مجرد تبديلات وضعية لذلك الأنموذج الهيكلي .

فالموضوعية الحقة لا يمكن أن تكون في الفطنة إلى حتمية الذاتية بل بتخطي الذاتية الصرفة للعالم الخصوصي ، عالم الميثوس إلى الذاتية الموضوعية إن جاز القول للتأويل ، عالم اللوجوس . فالتأويل إذ يعيد بناء الوقائع في صورة الأنموذج الهيكلي ،

---

(١) المقصود بالميثوس العالم الخصوصي للذاتية الفردية بتخييلتها ، و باللوجوس عالم العقل والحقيقة ، وبالديماجوس عالم الأساطير والعالم المألوف ، عالم الرأي العام والحس الفطري ، أما الأبوليدوس فيشير إلى عالم الفن ، والذي يشترك مع عالم اللوجوس في قيامه على التأويل الذي يتيح هنا لذاتية الفنان أن تستحيل (عبر مشاركة الجماهير في العمل الفني بتقبلها له وإعجابها به) إلى «موضوعية» .

إنما يقيم بذلك النظرية التفسيرية (أو القوانين التفسيرية الفهمية التى تختلف عن قوانين التواتر) مما يجيب «بالحقيقة» على «الواقع» .

أما فيما يتصل بالموضوعية فى علاقة الكلينيكى بالآخر وأعنى حالة الملاحظة المشاركة من جانب الكلينيكى ، فما من سبيل لتخطى الذاتية إلى موضوعية التأويل الحق إلا بالرجوع إلى ما وراء الذات بحيث يمسك الكلينيكى بنفسه ضمن إطارها الحقيقى ، أى ضمن قاعها اللاشعورى . عندئذ وعندئذ فقط يتوقف الكلينيكى عن أن يمسك بالآخر ، المفحوص ضمن القاع الشعورى له (أى للكلينيكى) ليمسك بالآخر ضمن الإطار الحقيقى لهذا الآخر وبعيداً عن كل إدراك إسقاطى .. ففهم الآخر مسألة مستحيلة قبل فهم الذات .

وتظل الموضوعية بذلك ، هى الوثبة الكيفية من عالم الميثوس بتخيلاته وأخاييله وكل مكونات قاعه اللاشعورى إلى عالم اللوجوس الذى يبنى موضوعية الوقائع – إن جاز القول – فى العالم الداخلى (عالم الذاتية التى تعنى ذاتيتها) صرحاً تأويلياً(١) ، يجيب «بالحقيقة» على «الواقع» وتلك هى الموضوعية الحقة .

عن مشكلات ما وراء المنهج "الموضوعية والذاتية" سيد عثمان
الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس - المجلد الخامس

من هذا نرى كيف أن الأدوات الموضوعية ليست خالصة الموضوعية كما قد نحسب ، وليست مبرأة من الذاتية كما نحب أن نعتقد ، لا فى تصميمها ولا فى تطبيقاتها ولا فى التعامل مع ما تضع بين أيدينا من معلومات . وإذا كان هذا هو نصيب الأدوات الموضوعية من الذاتية ، فلنلتفت لنرى ما فى النظر الذاتى والرأى الذاتى والحكم الذاتى من موضوعية وأبادر فأقرر أن ما أقصده بالنظر أو الرأى أو الحكم الذاتى يمكن أن ندرجه تحت عملية معرفية نسميها البصيرة العلمية ... ألا يحتمل أن ينتهى بنا المطاف فى كلامنا عن الموضوعية الناضجة أن نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام

(١) المقصود بالنظريات التفسيرية والقوانين الفهمية فى استبعاد لقوانين التواتر .

الذاتية الناضجة ؟ عندئذ ألا نتدبر لحين يتلاقى ما هو ذاتى مع ما هو موضوعى .

نعم ... فالموضوعية الحقة ليست غير الذاتية الناضجة التى تتخطى عوالم الفردية الصرفة (الميثوس) بلوغاً إلى الذاتية الموضوعية التى تقيم التأويل (اللوجوس) ببنائها من جديد للوقائع فى صورة النمط الكيفى والأنموذج الهيكلى الذى يقدم العلاقة المثالية ، هذه التى تكون كل الحالات الأخرى المماثلة ليست غير تشكيلة تباينات لتجسد ما فى الواقع العيانى .

مثل هذا التأويل يجيب بالحقيقة على الواقع .

(٢)

الفصل الثاني
فى المنهج الكلينيكى وفنياته

الفصل الثانى

فى المنهج الكلينيكى(١) وفنياته

المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة لحالة فردية . والكلمة ترجع فى أصلها إلى اليونانية . فالكلمة اليونانية كلينيكوس تعنى مختلف أوجه العلاج الطبى التى تبذل للمريض فى فراشه ، وحيث كلينى تعنى الفراش وحيث كليناين تعنى يضطجع . ولكن هذه الكلمة اتسع معناها مع الوقت فأصبحت تعنى هذا الفن الذى ينحصر فى استجواب وفحص وملاحظة المرضى والانتهاء من ذلك إلى تشخيص حالى (دياجنوزس) وإلى تشخيص التطور المقبل للحالة (بروجنوزس) ، ثم تحديد العلاج الملائم للمرض . وإذا كان هذا كله من جانب الطب البدنى يمكن تلخيصه فى الفحص الدقيق لحالة فردية فإن ذلك لا يختلف فى شئ عن الدراسة النفسية العميقة لحالة فردية للانتهاء منها إلى تشخيص حالى وتشخيص للتطور المقبل وتحديد للعلاج .

وإذا كانت السوية النفسية (كالمعافاة البدنية المطلقة) مجرد خرافة ، ومثل أعلى نقترب منه بدرجة أو بأخرى ، فإن المنهج الكلينيكى فى دراسته العميقة للحالات الفردية لا يقتصر على المرضى دون الأسوياء بل ينسحب على جميع الحالات بغير استثناء، فما نسميه بالسوية النفسية ليس غير درجة هينة من العصابية . ويتضح هذا من أن المنهج الكلينيكى يتبنى زاوية الرؤية لعلم النفس المرضى (السيكوباثولوجيا) وهى الزاوية السيكودينامية التى عادة ما نتكلم عنها أنها مفهوم الدينامية . ومفهوم الدينامية يقوم كما نعلم على الصراع . فالحياة ليست غير سلسلة من الصراعات

---

(١) يخطئ البعض فيتوهم أن المنهج الكلينيكى هو التحليل الكيفى للإجابات على المقاييس المقننة ، بينما يتوهم البعض الآخر أنه يستخدم المنهج الكلينيكى عندما تكون المجموعة التجريبية فى المنهج التجريبى الذى يستخدمه من المرضى أو المعوقين . وكل هذا يدخل فى باب الأوهام ، فالمنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة للحالة الفردية عن طريق المقابلات الشخصية الطليقة التى تستعين بالاختبارات الإسقاطية وفنيات التحليل النفسى .

ومحاولات فضها ، ويصدق هذا على الحرب ، كما يصدق على الحب ، ولكن إذا كان صميم الحياة ليس غير سلسلة من الصراعات ، فإن حلول هذه الصراعات يمكن أن تكون (بالنسبة إلى الراشد مثلاً) على مستوى الرشد ، فتكون حلولاً إنشائية بنائية لا تقتصر على خفض التوترات بشكل مكتمل تحقق أيضاً إمكانات الفرد وقيمة ذاته ، كما يمكن أن تكون هذه الحلول للصراعات على مستوى نكوص بحيث لا يواجهها الراشد على مستوى الرشد بل مستوى طفلى يتيح خفض التواترات ولكن بشكل جزئى وعلى حساب تفكيك الشخصية) والنيل من قيمة الذات . هذه الحلول الأخيرة هي الأمراض النفسية (الأعصبة أو أعصبة الطرح) والأمراض العقلية (الأذهنة أو الأعصبة النرجسية) أو غير ذلك من اضطرابات الشخصية واختلالات السلوك (من قبيل الانحرافات الجنسية والإدمانات والمسالك الاندفاعية أو الإجرامية) . والمنهج الكلينيكى فى هذا كله يقوم بالدراسة العميقة للحالة الفردية وينتهى من ذلك إلى تشخيص حالى وتشخيص للتطور المقبل ، وتحديد للطرائق التى يكون بها العلاج .

وهنا ينبغى أن نميز ما بين الطب النفسى وبين العلاج النفسى بصوره المختلفة (من تحليل نفسى أو علاج سلوكى أو تعديل للسلوك أو علاج ظاهرياتى أو غير ذلك من صور العلاج النفسى) ، فالطب النفسى يقوم على وجهة النظر الفسيولوجية العصبية بمعنى أن اضطرابات الشخصية والسلوك ترجع فى رأيه إلى إصابات واختلالات عضوية وعلى الخصوص فى الجهاز العصبى ومن هنا يكون العلاج عن طريق العقاقير والصدمات الكهربية وما إلى ذلك ، أما العلاج النفسى فيقوم على وجهة النظر السيكولوجية بمعنى أن اضطرابات الشخصية والسلوك ترجع فى رأيه إلى صراعات ساء حالها مما يعنى أن الحلول قد جاءت نكوصية تفكيكية ، ومن هنا يكون العلاج بطريقة أو أخرى من طرق العلاج النفسى والتى تقوم كلها بشكل أساسى على المقابلة الشخصية ودراسة تاريخ الحالة للوصول إلى «فهم» يمكن من العلاج . وكذلك فإن العلاج النفسى بمختلف أشكاله يقوم على علاقة المعالج بالمريض مما يسميه التحليل النفسى بظاهرة الطرح ، كما يقوم على السيكودينامية أى النظر إلى الحياة على أنها سلسلة من الصراعات ، وبالتالى يكون التنقيب عن الصراعات الأساسية التى تعتبر

مسئولة عن الأعراض المرضية ، طالما أن هذه الأعراض المرضية غالباً(١) ما تكون محصلة لحفزات غريزية مكبوتة ولدفاعات الأنا مما يعنى إشباعاً جزئياً وفى صورة غير مباشرة للحفزات الغريزية المكبوتة (بمعنى أنها تعرضت للاستبعاد ولم تسمح لها ميكانزمات الدفاع بالدخول إلى الشعور نتيجة لاستهجانها من جانب الأنا العليا) . وإذا كان البعض ينكرون الطرح كمصطلح تحليلى فإنهم يعترفون مع ذلك بأهمية العلاقة بين المعالج والمريض ، وإذا كان البعض الآخر قد حاول إنكار الصراع من قبيل «وولبى» فإنهم مع الوقت قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاعتراف بضرورة الدراسة العميقة للشخصية وتبين الصراعات الأساسية لدى الفرد .

ولكن إذا كان الكل يتفق على مفهوم السيكودينامية ، فليس معنى هذا أنهم يتفقون فى نظرتهم إلى الصراع . ففى التحليل النفسى لا تتولد الأعراض المرضية إلا عن صراعات لا شعورية (بمعنى صراعات استبعدتها ميكانزمات الدفاع فأعادتها من جديد إلى منظمة الهى دون أن تسمح لها بالدخول إلى الشعور أو بالبقاء فى الشعور) بينما تظل الصراعات الشعورية مهما كانت شدتها وحدتها عاجزة عن توليد أى أعراض مرضية . وبالنسبة إلى السلوكية سواء منها التقليدية (دولرد وميلر) أو الجديدة التى تعرف بتعديل السلوك (وولبى ، كرازنر ، لازاروس ، أيزنك ، راخمان ، بندورا) فلا اعتراف بالطبع باللاشعور ومن هنا تكون الصراعات المولدة للمرض هى صراعات شعورية ، وكذلك الحال بالنسبة إلى كل مدارس التيار الظاهرياتى (وهى وثيقة الصلة بنظرية الجشطلت) فإنها تنكر أيضاً اللاشعور وبالتالى فكل الصراعات هى شعورية . ومع ذلك فإننا نجد روجرس يعترف بما قبل الشعور كما نجد بيرلز يتحدث عن الكبت . والصراع فى التحليل النفسى هو حفزة غريزية خطرة سواء كانت جنسية

---

(١) بعض الأعراض المرضية لا تكون تعبيراً عن الحفزات الغريزية والدفاعات معاً وفى نفس الوقت بل تكون مجرد تعبير عن الدفاعات ، أو تكون مجرد تعبير عن إقفارة الأنا من الطاقة نتيجة لاستنفاد غالبية الطاقة فى الدفاعات وهذا يعرف عادة بالعصاب الفعلى ، مما نجد له شبيهاً أثناء فترة المراهقة . والعصاب الفعلى عند فرويد يشتمل على عصاب القلق والنيوراستينيا . انظر (نظرية التحليل النفسى فى العصاب . أتوفنخل – الترجمة العربية) مخيمر – الأنجلو .

أو عدوانية يتولد عنها القلق الذي هو أشد المشاعر إيلاماً . ولمواجهة هذا القلق تعبئ الأنا ميكانزماتها الدفاعية(١) التي يمكن أن تنجح وتسمى في هذه الحالة بالإعلاء ، كما يمكن أن تفشل فتنتج عنها الأعراض المرضية في صورها المختلفة . أما في السلوكية فالصراع إما أن يكون بين أقدامين بالنسبة إلى شيئين يشدان الفرد إليهما أو يكون بين أحجامين بالنسبة إلى شيئين لا يستطيع الفرد أن يتجنب أحدهما دون الوقوع في الشئ الآخر، ولكن الصراعات التي تولد المرض في السلوكية غالباً ما تكون بين أقدام وأحجام أي بالنسبة إلى شئ يشد الفرد إليه بقدر ما يدفعه عنه . ويعيش الفرد الصراع توانراً شديداً يعمل على التخلص منه بالمحاولات والأخطاء (على طريقة ثورنديك) حتى يقع أخيراً على سلوك يخفض التوتر ومن ثم يلقى «التعزيز» ويثبت في صورة تعلم . وهذا السلوك يمكن أن يكون في رأيهم ميكانزماً دفاعياً أو عرضاً من الأعراض المرضية العصابية أو الذهانية . وفي التيار الظاهرياتي يظل الصراع شعورياً وإن اختلفت صوره . ففي العلاج الوجودي مثلاً ينصب الصراع على ضرورة الاختيار مما يعني الحرية والمسئولية وما يلحق بذلك من قلق وجودي ودوار، ومما يدفع الكثيرين إلى الهرب من الحرية بتبعاتها الثقيلة للاحتماء في التباعية والمرض .

وإذا كان هناك ما نقوله تجاه هذا التباين في مفهوم الصراع وتباين طرائق العلاج النفسي فذلك هو النصح بالانتقائية بمعنى أن نتحيز في كل حالة ما يتفق مع فرديتها الفريدة . فكل وجهات النظر هذه تنطوي على شئ من الحقيقة دون أن تستأثر واحدة منها بكل الحقيقة ، وكل الفنيات العلاجية تنطوي على شئ من الفائدة تبعاً لنوعية الحالة . ومن هنا كان اختيارنا كمدرسة للكلينيكة المسلحة وللانتقائية العلاجية : لا نرفض شيئاً يمكن أن يوسع من قدرتنا على الفهم ونقوم بتفصيل الفنيات على مقاس النوعية الفريدة للحالة .

وإذا كان لنا أن نعطي فكرة عن الأمراض النفسية أو العقلية قلنا إن الأمراض النفسية هي الفوبيات (المخاوف المرضية من الفئران والصراصير أو الظلام .. الخ)

---

(١) توجد ميكانزمات غير دفاعية هي العمليات الأولية أو النمط الأولي التي تعمل داخل الهي وتقوم بصياغة الحلم، ولكن مخيمر يعتبر هذه الميكانزمات هي الأخرى دفاعية في طابعها .

والهيستريا التى تسمى عادة بالتبدين نظراً لأن الصراع النفسى يغير من طبيعته النفسية ويعبر عن نفسه فى صورة بدنية تتراوح من القئ الهستيرى تعبيرياً عن التقذذ النفسى إلى الحمل الكاذب والشلل الهستيرى .. وعادة مايعتبر التجوال النائم وحالات فقدان الذاكرة أمنزيات من صور الهستيريا التى يمكن فى الواقع أن تحاكى أية أعراض مرضية بدنية عند الآخرين .

وثالثاً وأخيراً العصاب القهرى الذى يعتبر أخطر الأمراض النفسية والذى يتميز بأفكار سخيفة ومع ذلك تفرض نفسها على تفكير المريض بشكل قهرى لا يمكن مقاومته أو بسلوك سخيف يفرض نفسه بشكل قهرى بحيث لا يستطيع المريض أن يقاومه (كأن يغسل يده عشرين مرة) . وأما الأمراض العقلية فهى الذهان الهوسى الاكتئابى والفصام (شيزوفرنيا) . وفى الذهان الهوسى الاكتئابى يعيش المريض نوبات من الهوس (نشاط حركى + أفكار سريعة التلاحق) ونوبات من الاكتئاب هى فى الواقع نوبات من السوداوية ينغلق الكائن فيها على نفسه وربما تصل إلى محاولة الانتحار . وبين نوبات الهوس المتتابعة ، أو بين نوبات الاكتئاب المتتابعة أو بين النوبات المتتابعة من الهوس والاكتئاب يعيش المريض فترات عادية سوية تماماً . أما الفصام (الشيزوفرنيا) ، فهو ذروة الأمراض العقلية حيث تنهار المعايير التى تربط الفرد بالعالم فيعيش داخل ذاته كاشفاً عن الخلط العقلى الذى لا يمكنه من معرفة الزمان أو المكان . وتعتبر البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) صورة هينة من الفصام تتعقد مع الوقت حتى تصبح ما يسمى بالفصام البارانويدى . وهناك أنواع أخرى من الفصام كالفصام الكاتاتونى والفصام الهيبيفرينى والفصام البسيط وما إلى ذلك . هذه كلمات موجزة تقتصر على التعريف بأسماء الأمراض النفسية والعقلية الشهيرة . بينما يكون على الراغب فى المزيد أن يرجع إلى الجزءين الثانى والثالث من الترجمة العربية لكتاب أتوفينخل «نظرية التحليل النفسى فى العصاب» .

نعود من جديد لنقرر أن موضوع المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة للحالة الفردية أى للشخصية فى بيئتها (أو الجماعة كحالة فردية) معنى هذا أن المنهج الكلينيكى يدرس المشكلات السلوكية عند الشخص أى يدرس الشخص كحامل مشكلة ، وبالتالى ككائن عيانى برمته فى جملة علاقاته بيئته . ما هى المواقف التى تثير القلق

لديه ؟ وما هي أساليبه المميزة في الدفاع ضد هذا القلق ؟ وهل أساليبه هذه توافقية تكيفية أو توافقية غير تكيفية ؟ وهدف المنهج الكلينيكي كما قلنا هو تحديد جملة الشروط (العوامل) الحاكمة للسلوك وذلك ببحث شامل مطوق «يعيد بناء» الوقائع في صورة التشخيص الحالي (دياجنوزس) الذي يحدد مكان السلوك من جملة الشروط الحاكمة له . ومهما كانت الأهداف العملية من استشارة أو توجيه أو علاج أو تأهيل ، فإن الهدف النظري يظل أبداً هو التشخيص الحالي وتشخيص التطور المقبل وما يترتب على ذلك من تحديد لطريقة العلاج أو نوعية الاستشارة أو التوجيه . فإذا كان الهدف العملي هو إعانة الشخص فإن الهدف النظري ينحصر في «فهمه» الذي يتحقق بالتشخيص الذي هو إمساك بالدلالة الخاصة لجملة علاقات الشخص ببيئته .

ففي حالة اختفاء دورة الطمث عند طالبة جامعية توصل التشخيص إلى أنها ترفض أنوثتها وترفض جميع الرجال ، ومن هنا كان اختفاء دورة الطمث يعني في هذا المستوى رفضاً لرموز الأنوثة الناضجة ونعني دورة الطمث . ولكن تبين مخيمر في مستوى أعمق أنها ترفض أنوثتها مع جميع الرجال لأنها لا تريد منذ طفولتها أن تمارس أنوثتها إلا مع أبيها . واتضح في كثرة من أحلامها ليس فقط تثبيتها على الأب بل ورغبتها في أن تنجب منه طفلاً مما يعني أن تصبح حاملاً من أبيها . وبذلك اتضح مرضها كعرض هستري يعبر في صورة بدنية عن تحقق الرغبة النفسية . وعليه يكون اختفاء دورة الطمث في المستوى العميق دلالة على أنها أصبحت الآن حاملاً. بذلك فقط يكتمل التشخيص أي الإمساك بجملة علاقات الكائن ببيئته بما في ذلك بالطبع علاقاته اللاشعورية ، وبذلك أيضاً نكون قد بلغنا إلى تحديد مكان السلوك الذي ندرسه (اختفاء دورة الطمث) من جملة الشروط الحاكمة له . وإذا كانت هذه الحالة قد عولجت بالتحليل النفسي فينبغي ألا ننسى أن التحليل النفسي هو صورة ممعنة للمنهج الكلينيكي تتميز بحرص المحلل على الحيادية وبنظرته إلى الوقائع التي تتتابع في الإطار العلاجي من زاوية الطرح (بمعنى أنها تكرار لخبرات الطفولة تجاه المحلل كبديل أبوي) وفيما عدا ذلك فالتحليل النفسي هو ملاحظة كلينيكية موزعة بطريقة ثابتة على فترة طويلة .

التشخيص

هدف المنهج الكلينيكي وصميمه

١ - **هدف التشخيص** : من الناحية العلمية معرفى ومن ثم عام فهو ليس بتكديس لتشخيصات جزئية بل فعل ختامى تتكامل فيه التشخيصات الجزئية فى بناء هو الوحدة الكلية للعوامل الشارطة للسلوك ، ومن الناحية العملية هدف التشخيص تقديم فرض للعمل (علاج أو نصائح .. الخ) وبكلمات أخرى فإن هدف التشخيص من الناحية العلمية هو الإمساك بالدلالة الخاصة لكائن فى موقف ، والتشخيص هو فعل ختامى وليس مجموعة من التشخيصات المتعاقبة الجزئية . وعادة ما تكون الملاحظة من الدقة والعمق بقدر ما تكون عينة السلوك أعمق تمثيلاً ، فالمنهج الكلينيكى يقوم بتشخيص ما «يفلت» من الفرد لا كل ما يصدر عنه ، مثال ذلك أن يجيب المريض على تسعة وتسعين سؤالاً بما يفيد توافقه بينما تنطوى إجابة فى السؤال الأخير رقم ١٠٠ على أنه يمارس الاتصال الجنسى مع الجثث (نيكروفيليا) . هنا يقتصر تشخيص الكلينيكى على ما تبين فى الإجابة فى السؤال الأخير بصرف النظر عن الإجابة على الأسئلة السابقة بينما التجريبى السيكومترى يقتصر على جمع النتائج فيكون صاحب هذه الحالة قمة فى التوافق لأنه يحصل ٩٩ ٪ . أما من الناحية العملية فالتشخيص يزودنا بقاعدة للعمل .

٢ - **مضمون التشخيص** : ليس مجرد إلصاق بطاقة بهذا الصنف أو ذاك من أصناف الطب العقلى التقليدى أى ليس بتحديد النمط بالرجوع إلى تصنيف جاهز بل هو عملية دينامية تنصب على فرد بعينه فى موقف بعينه فى لحظة بعينها ، وتحديد الدلالة التى تنطوى عليها جملة علاقاته مع بيئته . فالمنهج الكلينيكى يتكيف مع حالة حالة فيضع برنامج العمل فى تلاؤم مع الفرد موضع التشخيص . فالتشخيص تعبير عن لحظة من لحظات التطور لتاريخ شخصية فى علاقاتها بالبيئة .

وفى كلمات فإن مضمون التشخيص ينحصر فى تأويل السلوك بالرجوع إلى أنماط كيفية معرفة سبقاً للكلينيكى وذلك فى مراعاة بدقة للخصائص الفريدة للحالة مما ينتهى إلى تحديد الدلالة الخاصة لجملة علاقات الكائن ببيئته هنا والآن أى فى موقف بعينه وفى لحظة بعينها من لحظات وجوده من حيث هو ديناميه بسبيل التطور وكيان فى صيرورة متصلة .

٣ – **بنيان التشخيص** : ينطوى على عمليتين ، الأولى هى «المماثلة» بمعنى إدراج الحالة ضمن نمط عام من أنماط العلاقة المثالية استناداً إلى المعارف السابقة . والثانية هى «المواءمة» بمعنى تبين الخصائص الفردية الفريدة التى يتجسد عليها النمط العام فى هذه الحالة بالذات . والعملية الأولى تشير إلى الجاهز المألوف ، بينما تشير الثانية إلى الجديد والذكاء ، ففى المماثلة نماثل الحالة التى أمامنا بمرض من الأمراض المعروفة فى علم النفس المرضى أى إلصاق بطاقة بالهستريا مثلاً ، ولكن ما من فرد يعيش الهستريا أو الملاريا كما تصفها الكتب لأن الكتب تقتصر على تقديم النمط الكيفى أى العلاقة المثالية بين الجنبات الرئيسة للظاهرة ، بينما تتجسد هذه العلاقة المثالية فى الواقع العيانى فى انتظامات فردية فريدة لا نهاية لتباينها . ومن هنا تكون ضرورة المواءمة لتبين الانتظام الفريد الذى تتجسد عليه الهستريا مثلاً فى هذه الحالة . ففى المماثلة نماثل الحالة التى أمامنا بالنمط الكيفى ، بنمط العلاقة المثالية فنلصق بطاقة هستريا ، بينما فى المواءمة نبلغ إلى تحديد الصورة التى تتجسد عليها العلاقة المثالية فى الواقع العيانى لهذه الحالة . وقبل أن نبلغ إلى الصورة الفريدة للهستريا فى الحالة التى أمامنا لا يكون هناك تشخيص .

٤ – **فنيات التشخيص** : بالإضافة إلى ضرورة معرفة الكلينيكى للنظريات لابد من معرفته بالفنيات أى الوسائل التى تزوده بمختلف المعطيات .

(أ) معطيات تاريخية : معرفة تاريخ حياة الشخص منذ أشهر الحمل حتى الآن وذلك فى المقابلة الشخصية الطليقة (استبيان مخيمر للمقابلة الشخصية) .

(ب) معطيات حالية : ملاحظة مباشرة أثناء المقابلة للتصرفات مع الأقوال (تبين ما لا يقوله الشخص ، وما لا يريد أن يقوله، وما يتردد في قوله .. الخ) . كل ذلك بالإضافة إلى مجالات حياته الحالية ضمن ظروفه البيئية . وذلك كله في المقابلة الشخصية الطليقة .

(جـ) معطيات قياسية : الاستعانة عند اللزوم بالمقاييس المقننة (كلينيكية مملحة) ، هذا إلى الاختبارات الإسقاطية وملاحظات الأخصائي الاجتماعي للحالة ضمن إطاره الأسرى أو المدرسي الخ .

(د) معطيات تحليلية : تفسير الأحلام وخاصة التي تتكرر أو التي تكون في صورة كوابيس ، وتفسير الهفوات والحركات البدنية المرهفة التي تصدر عن الشخص أثناء المقابلة .

ولكن لب المنهج الكلينيكي هو تاريخ الحالة والملاحظة المباشرة .

٥ – **منطق التشخيص** : التشخيص ليس عملية رص للوقائع بل تأويل لها يبنيها بناء جديداً في وحدة كلية تتيح فهم دلالة السلوك ووظيفته أي فهم الكائن في علاقته ببيئته ، ويتحقق ذلك بحركة ديالكيتية من الفكر تمضي من الوقائع إلى الفرض التفسيري لتعود إلى وقائع أخرى تعدل من الفرض الأصلي وهكذا .. فالتشخيص عملية دينامية ليس لها من الناحية النظرية أن تتوقف ولكن الناحية العملية تحتم التوقف عند الوصول إلى تأويل يجيب على المتطلبات العاجلة للحالة . هذه الحركة الديالكيتية للفكر يسبقها تحديد للمشكلة ويختمها إقامة التشخيص .

وفي كلمات نقرر بأن التشخيص ليس برص أو بجمع معطيات الواقع دون وحدة كلية ، فلابد من تأويلها أي إعادة بنائها بناء جديداً بحيث نمسك بدلالة السلوك في علاقاته بالبيئة هنا والآن . وعمل الفكر هو ذهاب ومجئ بين المعطيات والتأويل .

٦ – **مراحل التشخيص** : ثلاث مراحل : تحديد المشكلة في سؤال محدد أي صياغة فروض العمل حتى يمكن تحديد خطة العمل . نحصل على

معطيات نستخلص منها في نهاية كل مسيرة دلالتها ، ثم معطيات أخرى تعدل أو تعمق الدلالة ، وهكذا ذهاب ومجئ متصل ما بين التأويل والوقائع في حركة لا ينبغي أن تتوقف من حيث المبدأ وإنما تتوقف لأهداف عملية . في المرحلة الأولى ننتهي إلى برنامج العمل ، وفي الثانية نضطلع بدراسة الحالة متجهين في كل مسيرة تبعاً لما انتهينا إليه عبر معطيات المسيرة السابقة وهكذا ، أما المرحلة الثالثة فإقامة التشخيص في مراعاة للمعايير .

٧ – **معايير التشخيص** : أهمها معيار التكامل ومعيار التقاء الوقائع ومعيار الاقتصاد ثم يأتي بعد ذلك معيار الوفرة والدقة ومعيار الخصوبة ومعيار التنبؤ .

(أ) معيار التكامل : بمعنى أن تتكامل هذه المعطيات ضمن الوحدة التاريخية والحالية في صورة علاقات صراعية مع البيئة وبحيث لا تبقى واقعة واحدة لا تجد مكانها ضمن الكل التفسيري الواحد .

(ب) التقاء الوقائع : بمعنى أن تكون الوقائع من المصادر المختلفة كالأحلام والاختبارات الإسقاطية والهفوات ، ملتقية عند نفس الدلالة .

(جـ) معيار الاقتصاد : بمعنى أن التأويل يكون من المعقولية بقدر ما يرد أكبر عدد من الوقائع إلى أقل عدد من المبادئ التفسيرية .

(د) معيار الثراء والدقة : بقدر ما تكون المعطيات ثرية ودقيقة يكون التشخيص أمعن صدقاً .

(هـ) الخصوبة : بمعنى أن ينطوي التشخيص على جديد لم يكن في الوقائع من حيث هي كذلك .

(و) التنبؤ : بمعنى أن يسمح التشخيص بالتنبؤ بما يمكن أن يكون عليه سلوك الشخص في موقف بعينه .

أهمية المنهج الكلينيكي

ليس من شك أن علم النفس قد أحرز منذ بداية القرن العشرين تقدماً هائلاً فى طرائقه التجريبية السيكومترية التى تقوم على المقاييس المقننة ، هذه التى تمكننا من تحديد مكان المفحوص بالنسبة إلى الآخرين من زاوية قدرة من القدرات أو اتجاه من الاتجاهات ، ومن ثم تمكننا من أن نضع المفحوص من حيث هو آلة من الآلات البشرية على أنسب آلة من الآلات الميكانيكية . ونحن اليوم نجدنا أمام ما يزيد على ثلاثة آلاف من مختلف المقاييس المقننة والاستبيانات وسلالم القياس ، وما إلى ذلك من أدوات قياسية تسمح بتحديد مكان المفحوص من الآخرين دون أن تسمح لنا على أية حال بالبلوغ إلى فهم هذا المفحوص من حيث هو حامل المشكلة . فكل هذه المقاييس على الرغم من تعددها وتنوعها تظل قاصرة أمام تعقد الكائن البشرى وثراء إمكاناته .

والواقع أن كل المقاييس النفسية (السيكومترية) تنفتح لانتقادات قاتلة، فكل المقاييس مثلاً تستجوب الشعور ، والشعور كما نعلم جزئى ومتحيز وبالتالى لا ينطوى على الحقيقة ، ومن هنا تأتى النتائج مضللة وعبثاً لا طائلة منه . وعلى سبيل المثال فإن المقاييس المقننة قد كشفت عن أن الذين يتعاطون الحشيش ينعمون بمستوى مرتفع من الرضى عن أنفسهم وعن حياتهم ، ولو كان هذا صحيحاً لما كان هناك ما يدفعهم إلى تعاطى الحشيش . فقد كشفت الدراسات الكلينيكية وخصوصاً فى صورتها الممعنة ونعنى التحليل النفسى عن وجود أرضية اكتئابية عند الذين يتعاطون الحشيش والخمور وما إلى ذلك من مخدرات ، وأنهم يحاولون التغلب على هذا الاكتئاب بتعاطى هذه المخدرات التى تغيبهم من الوعى . والأمثلة من هذا القبيل تزيد على الحصر ، ولكننا فى الحياة العادية ودون تخصص فى علم النفس كثيراً ما نلتقى بزوجة تشكو مر الشكوى من زوجها وقسوته وعنفه ولكنها مع ذلك ترفض كل محاولة لمساعدتها على الخلاص منه بحجة «العيال» . وتمضى سنوات ويموت الزوج فإذا بها تحزن عليه أشد

الحزن وبعد شهور يدهش الذين يعرفونها من أنها تزوجت من رجل آخر ربما يزيد فى قسوته وعنفه عن زوجها الأول الذى توفى . مثل هذه الزوجة سوف تكشف فى أى مقياس مقنن عن ذروة السخط بينما هى فى حقيقة الأمر تشبع مازوشيتها الأنثوية وتشعر فى أعماقها بالرضى عن زوجها بسبب قسوته وعنفه طالما أن سادية تشبع مازوشيتها . وفى إحدى الروايات لا تكف الخادمة العجوز عن الشكوى وتمنى الموت . وتموت حبيبة سيدها الشاب وتذهب إلى «هيدز» التى هى الآخرة فى الأساطير اليونانية . ويقوم السيد الشاب بالمساعى حتى يتمكن من موافقة الحرس على إخراج حبيبته من العالم الآخر وعلى شريطة أن يأتى بواحدة أخرى فى مكانها لأن المهم عندهم أن يكون العدد غير منقوص . ويسارع السيد الشاب إلى الخادمة العجوز وهو على ثقة من كل شئ ولكنها ترفض بشدة وتقول له «صحيح أننى أشكو وأتمنى الموت ، ولكن ليس معنى هذا أننى أريد أن أموت بل أريد أن تكون حياتى سلسلة متصلة من الشكوى وتمنى الموت» وتعتبر هذه العبارة أدق تعبير عن المازوشية الأنثوية التى لا تبلغ اللذة إلا عبر المعاناة .

فالمقاييس المقننة بكل صورها وإن اتسمت بالتقنين الكمى الذى يكسبها مظهر الدقة والموضوعية(١) وما إلى ذلك من أشكال الضعة العلمية (من حيث إنها تقدم النتائج فى أرقام يسهل مقارنتها وتصنيفها بالرجوع إلى الدراسات الإحصائية) ، فإنها مع ذلك تقتصر على تحديد هذا الوجه أو ذاك من الأوجه الجزئية للشخصية ، تمسك به «ها هنا وفى اللحظة الحاضرة» دون أن تقيم حساباً للشخصية من حيث هى وحدة كلية حالية ووحدة كلية زمنية وقوى تتمخض صراعاتها عن محصلات هى المسالك والميكانيزمات الدفاعية .

يتضح هذا القصور للمقاييس المقننة من المثالين التاليين . فعند تطبيق المقياس

---

(١) لتبين الطابع الزائف لموضوعية أدوات القياس النفسى انظر ما كتبه د. سيد عثمان رئيس قسم علم النفس التعليمى بجامعة عين شمس وذلك فى «مشكلات ما وراء المنهج – الموضوعية والذاتية» من الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس – المجلد الخامس ١٩٧٨ – انظر أيضاً فضيحة سيرل برت أمام السيكومترية فى العالم .

الخاص بالمهارة اليدوية على واحد من أشهر الجراحين ، كشف المقياس عن انعدام المهارة اليدوية لديه . ولما كان واقع حياته كجراح من أشهر الجراحين يقدم الدليل القاطع على كذب المقياس فقد وجد علماء القياس النفسى أنفسهم مضطرين (لتفسير هذه الظاهرة) إلى ابتداع ما أسموه «بحشد القدرة» بمعنى أن الجراح قد حشد كل مهارته اليدوية فى مجال الجراحة فخلت من هذه المهارة كل المجالات الأخرى . وفى هذا ولا شك ما يرينا ضرورة النظر إلى الشخصية كوحدة كلية حالية تنطوى على مجالات عديدة يتحتم دراستها جميعاً قبل الانتهاء إلى شئ ينطوى على قيمة علمية .

والمثال الآخر . لفرنسى أعمى من عميان الحرب العالمية الأولى يستمتع بحيوية دافقة ومع ذلك يرفض العمل مكتفياً بمعاشه . وتبين مخيمر أنه لا يريد أن يعمل حتى لا يتيح لزوجته مزيدا من رغد الحياة . كان يكره زوجته هذه ويأخذ على الكاثوليكية أنها لا تتيح تعدد الزوجات . كان قد تعرف عليها فى الأيام السابقة على رحيله إلى الحرب ولم يكن ينتوى الزواج منها بل كان يرفه عن نفسه قبل الرحيل إلى خط القتال ، وأصيب فى إحدى المعارك وفقد بصره وعاد إلى قريته ليعلم منها أنها حملت منه وأرغمته مشاعر الإثم التى كان يفهم من خلالها إصابته بالعمى إلى أن يتزوج منها إصلاحاً للخطأ الذى أنزله بها . وعليه فإنه لم يكن فى حياة زوجية وإنما فى هيكل يضطلع فيه بالتكفير عن فعلته الشنعاء . والآن وقد مرت سنوات طويلة من التكفير يشعر بالظلم وبأنه الضحية ولكن ما من طلاق ممكن فى الكاثوليكية . فكيف يعمل ليزيد من رغد الحياة بالنسبة إلى امرأة تجثم كالكابوس على أنفاسه . وهنا لم يكن بوسعنا أن نفهم رفضه للعمل (المجال المهنى) إلا بدراستنا لعلاقته مع زوجته (المجال الزواجى) بل هذه العلاقة بين الزوجين ما كان لها أن تتضح دون الرجوع إلى (تاريخ الحالة) وفى هذا ما يرينا ضرورة دراسة الشخصية من حيث هى وحدة كلية حالية ووحدة كلية تاريخية للبلوغ إلى صراعاتها الأساسية .

وفى حديثنا عن التشخيص رأينا كيف أن المقاييس تنظر إلى الفرد على أنه مجرد حاصل جمع . فما دامت إجاباته تكشف عن توافقه فى ٩٩ سؤالاً من بين المائة سؤال لاستبيان التوافق فإنه يكون بذلك فى أعلى مستويات التوافق. وكما قلنا من قبل

فإن الإجابة على السؤال الأخير رقم ١٠٠ تكشف عن وجود «نيكروفيليا» لديه مما يعني أن اتصالاته الجنسية قاصرة على جثث النساء اللائي توفين حديثاً . ومن هنا فإن العالم السيكومتري يقيم تشخيصه على الغالبية ويغفل تماماً الإجابة على السؤال الأخير، بينما الكلينيكي لا يقيم تشخيصه إلا على السؤال الأخير . فالسيكومترية تقوم على معيار واحد هو التواتر أي مرات التكرار ، أما الكلينيكية فلا يعنيها التواتر في شئ ولكن لها معاييرها الستة التي سبق أن شرحناها . والرجل العادي أقرب إلى الكلينيكية لأنه لا يحكم على خطيبته استناداً إلى عشرة أشهر من السلوك الذي لا يرتفع إليه غبار، بل يكفي أن يراها مرة واحدة أثناء هذه الفترة أو في نهايتها تتبادل القبلات بين أحضان رجل آخر ، إنه يرفض هو الآخر منطق التواتر في تشخيصه ويرفض النظر إلى الشخصية على أنها مجرد حاصل جمع .

ولا تقتصر السيكومترية على ذلك بل إنها لا تضع في حسابها الدينامية والصيرورة ، وما ينطوي عليه الوجه الواحد الذي تقيسه من إمكانات كامنة مضمرة يمكن أن تتضح في المستقبل. وقد أوضح مخيمر في مفهوم جديد للتوافق أن كل اختبارات التوافق مثلاً تتخذ من خفض التوتر هنا والآن معيارها الوحيد وبذلك تغفل الجنبات الإيجابية التي يمكن أن تغير اللوحة تماماً في مستقبل قريب . فصميم الكائن البشري هو دينامية بسبيل التطور وكيان في صيرورة مما يعني استحالة تشخيص الحاضر دون أن نضع في اعتبارنا ما كان عليه الماضي وما يحتمل أن يكون عليه المستقبل . وكم من شخص يبدو الآن غارقاً في مشكلاته ولكنه ينطوي على الكثير الذي يبشر بمستقبل زاهر . وكم من فرد يبدو متألقاً هنا والآن بينما لا ينطوي على شئ بالنسبة إلى المستقبل بل وربما ينطوي على أشياء تؤكد انهياره الوشيك .

هذا كله إلى ما يتسم به التجريب والقياس من طابع مصطنع يحتم علينا التردد قبل أن نسحب نتائجه بحسبانها تصدق على مواقف الحياة الحقة التي يعيشها الشخص. ومن هنا فليس من الغريب أن ينتهي رئيس قسم علم النفس التعليمي بجامعة عين شمس إلى أن الموضوعية العلمية لا تكون في استخدام أدوات القياس المقننة بل تكون في ما يسميه بالبصيرة ، هذه التي يعني بها الاستبصار أو الحدس الكلينيكي الذي

يتيح لصاحبه أن يبلغ إلى «إعادة بناء» الوقائع فى صورة نمط كيفى يقدم العلاقة المثالية للجنبات الرئيسة للظاهرة ، هذه العلاقة المثالية التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيلة من المتباينات التى لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية . ونحن لا نغالى عندما نقرر أن مقال الدكتور سيد عثمان – الذى سبقت الإشارة إليه– يعتبر أخطر ما كتب فى العربية فى مجال علم النفس بحيث لا تقترب منه أكداس المؤلفات الأخرى فى علم النفس سواء بالعربية أو بلغة أجنبية .

مسلمات المنهج الكلينيكي

المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة لحالة فردية بصرف النظر عن انتمائها إلى السوية أو اللاسوية . وتقوم هذه الدراسة العميقة بدراسة شاملة مطوقة تستند إلى ثلاث ركائز :

١ – **لا كلينيكية بغير دينامية** : تلك هى المسلمة الأولى من حيث الأهمية وإن كانت الأخيرة من حيث مراحل العمل . فبدراستنا للوحدة الكلية التاريخية وللوحدة الكلية الحالية يكون بوسعنا أن نبلغ إلى الدينامية بمعنى أن نبلغ إلى تبين الصراعات الأساسية عند المفحوص .

وسواء كانت المسالك سوية أو لا سوية فإنها تكون دائماً مجرد محصلات لصراع القوى ونعنى الحفزات الغريزية والدفاعات الأخلاقية . تستوى فى سبيل ذلك على سبيل المثال ظاهرة الموضة التى هى عادية سوية ، وأى أعراض مرضية أخرى. إن الدراسة السيكولوجية للشخص ليست غير دراسة لصراعاته ، وكل كائن بشرى يوجد دائماً فى موقف صراع ، ويكرر فى مواقف حياته الحالية تلك الدفاعات التى استخدمها فى صراعاته الطفلية . وليست الحياة كما قلنا غير سلسلة من الصراعات ومحاولات حلها ، أو قل من ضياع الاتزان ومحاولة إعادة الاتزان ، وإن كانت الصراعات والسعى إليها كاشتهاء للاستثارة هى التى تنتمى حقاً فى رأى مخيمر إلى غرائز الحياة، بينما ينتمى خفض التواترات وفض الصراعات إلى غرائز الموت ، طالما أن الصورة القصوية لخفض التواتر هى الموت والعدم .

ليست الحياة غير سلسلة من صراعات ومحاولات فضها . والكائن المتكيف هو الذى يستطيع أن ينهى صراعاته بمعنى أنه يشبع حاجاته ومن ثم يزيل توتراته بشكل مكتمل وعلى مستوى الرشد وبصورة تساير قيمة الذات وتحقق الإمكانات . أما الكائن غير المتكيف أو عديم التكيف فهو لا يبلغ إلى ذلك بمعنى أنه لا يبلغ إلى فض صراعاته وخفض توتراته بشكل مكتمل ، ومن ثم يلجأ إلى الدفاع (عندما يستحيل الإشباع يكون الدفاع) وفى طليعة الدفاعات النكوص إلى مرحلة سابقة من مراحل النمو وفي هذا المستوى النكوص يقوم بفض صراعاته وخفض توتراته . ولكن بشكل جزئى وعلى حساب وحدة الشخصية وقيمة الذات .

وإذا كان مفهوم الدفاع فى أشكاله غير الناضجة (يقوم) على النكوص فذلك شبيه بما يحدث عندما يعجز الجيش عن مواجهة العدو فيتقهقر حتى يصل إلى هذه النقطة من خطوطه التى كان قد ترك عندها فى تقدمه أكبر عدد من قواته (نقطة التثبيت) . ولو عبرنا عن ذلك بلغة التحليل النفسى لقلنا إن النكوص يكون دائماً إلى نقطة التثبيت . وفى الحالة التى ينكص فيها الكائن البشرى إلى مرحلة من مراحل الطفولة (الأوديبية أو الأستية السادية) بمعنى أنه يواجه المشكلة على هذا المستوى من الطفولة فذلك هو العصاب أو المرض النفسى . أما إذا بلغ الشخص فى نكوصه إلى هذه المرحلة السابقة على التمايز ما بين الذات والعالم الخارجى (بداية المرحلة الفمية) ومن ثم يلغى المشكلة بإلغائه للعالم الخارجى من حيث هو كذلك ، فذلك هو الذهان أو المرض العقلى فى أخطر صورة مما يعرف باسم الفصام (شيزوفرينا) . وهذا المفهوم يعرف بالنشوئية أى تحديد السوية اللاسوية بالرجوع إلى مراحل النشأة . فكل سلوك فى أوانه سوى بينما يكون هو نفسه عندما يظهر بعد فوات أوانه مرضياً . ولكن بالإضافة إلى مفهوم النشوئية ينبغى أن نضع فى اعتبارنا المفهومين الآخرين اللذين يكملان ما يسميه فرويد (الميتاسيكولوجية) ونعنى مفهوم الطبوغرافية والاقتصادية النفسية . والطبوغرافية تعنى أن كل صراع هو دائماً أبداً صراع بين الحفزات الغريزية للهى والدفاعات الأخلاقية للأنا ، بينما تشير الاقتصاديات النفسية إلى حساب كميات الطاقة للقوى المصطرعة .

فإذا كانت كمية الطاقة المستثمرة فى الحفزات الغريزية أكبر من تلك التى فى الدفاعات فسوف تنتصر الحفزات ، والعكس بالعكس . وكذلك فإننا فى الاقتصاديات النفسية نتبين كمية الطاقة المتاحة تحت تصرف النشاط الشعورى وقبل الشعورى للأنا (بعدما يضيع من طاقة فى المكبوتات والدفاعات) وبذلك نتبين قوة الأنا فى قدرتها على مواجهة الهى والأنا العليا . وقوة الأنا هى المعنى العلمى الوحيد للشخصية القوية . مثال يتضح منه كيف أن فهم الشخصية هو فى صميمه كشف عن نوعية القوى المصطرعة عند الشخص وما تتمخض عنه الصراعات من محصلات هى بمثابة الميكانيزمات الدفاعية أو الأعراض المرضية أو المسالك التى تبدو لا سوية . وذلك هو ما يعبر عنه التحليل النفسى عندما يقرر بأن فهم الشخصية يتحقق بالكشف عن المواقف النوعية التى تثير عند الفرد مشاعر القلق والوسائل الدفاعية الخاصة التى يستخدمها هذا الفرد فى مواجهة القلق . طالبة جامعية تتشبث بصورة من صور الحجاب بحيث لا تسمح لشعرة واحدة من شعر رأسها أن تبدو لأنظار الآخرين . إنها فى الحادية والعشرين وتصر على ذلك بعناد شديد منذ ست سنوات عند بلوغها . وقد فشلت كل محاولات أبيها وأمها وأخواتها لإقناعها بالعدول عن ذلك . ومن ست سنوات أيضاً تعرفت على شاب يحظى بكل تقديرها وإعجابها وتتصل به تليفونياً بشكل منتظم على مسمع من الجميع ولكنها ترفض أن تلتقى به فى الخارج . ومنذ الوهلة الأولى كان التناقض فى سلوكها صارخاً . ففى الوقت الذى لا تستطيع أن تسمح لشعرة واحدة من رأسها أن تظهر خارج الحجاب ، كانت ترتدى بنطلوناً ضيقاً بحيث يعطى عن النصف السفلى من بدنها صورة لا تختلف كثيرا عن تلك التى يمكن تكون للرائى لو كانت عارية .

وطابع المحصلة واضح : فهى تريد أن تعرض للآخرين جمال بدنها (استعراضية) ولكنها فى الوقت نفسه لا تريد ولا تستطيع بالنظر إلى القيم الأخلاقية أن تسمح لنفسها بذلك . ومن هنا كان الحرص المرضى المسرف على تغطية شعر الرأس بحيث لا يظهر غير الوجه واليدين إلى المعصم . كان نصفها العلوى يترجم بدقة وفى صرامة عن الحفزات الأخلاقية ،بينما كان نصفها السفلى يكشف عن تآمره مع

الحفزات الغريزية الاستعراضية ، وسيكولوجية الموضة تقوم كما يقرر مخيمر(١) على صراع بين الحفزات الغريزية الاستعراضية (التى تدفع المرأة إلى الكشف عن مفاتنها) وبين الحفزات الدفاعية الأخلاقية (التى تدفع المرأة إلى حجب مفاتنها) . ومن هنا فصميم الموضة هو – سلوك المحصلة – بحيث تستر المرأة بدنها على نحو يكشف عن مفاتنها .

ولكن يستلفت الانتباه فى هذه الحالة أن تكون المحصلة على النحو الذى هى عليه بحيث تنفرد الأخلاقيات بالنصف العلوى من بدنها ، بينما تنفرد الحفزات الاستعراضية الغريزية بالنصف السفلى من بدنها . بل وربما يكون أكثر معقولية لو كان الأمر عكس ذلك . ثم ما هذه الأهمية غير العادية التى توليه لشعر رأسها بحيث تحرص على تغطيته كل هذا الحرص ؟ فى مقابلتين لا أكثر اتضح أن لديها فوبيا من الخفافيش فهى ترتعب منها . وفى مستدعياتها ذكرت هذا الاعتقاد الريفى الخاطئ الذى يدعى «أن الخفافيش لما يلبد فى الوش ، ما يطلعش إلا بالطبل والزمر البلدى» ثم ذكرها الطبل والزمر البلدى بالفرح فى الريف ، وعندما قامت بمستدعيات على «يلبد فى الوش» تذكرت أن الناس فى الريف يقولون عادة من قبيل الأدب «ياخذ وشها» بما يفيد إزالة بكارتها . وواضح من هذا كله أن الوش مرادف فى أعماقها للمهبل مما يستند ولا شك إلى ميكانيزم الإزاحة الذى نلتقى به كثيراً وعلى الخصوص الإزاحة من أسفل إلى أعلى .

بذلك تتضح الدلالة العميقة لحرصها المرضى المسرف على تغطية شعر رأسها . فما دام وجهها يعنى المهبل ؟ فإن شعر رأسها يعنى بالضرورة شعر العانة . وبالتالى فقد كانت بالنسبة إلى أعماقها اللاشعورية تحرص على تغطية شعر العانة . وقد كان هذا التفسير كافياً بالنسبة إليها ليس فقط لتتخلى عن الحجاب بل وأيضاً لتسمح لصديقها بأن يلتقى بها فى الخارج . وقبل أن يمر شهر واحد على ذلك كانت الأسرتان تحتفلان بالخطبة الرسمية لهما .

---

(١) انظر سيكولوجية الموضة – مخيمر – الطبعة الثانية – الأنجلو .

ولكن ينبغي أن نشير إلى أن هذه الطالبة كانت في حالة طرح موجب بالنسبة إلى المعالج الذي كان أستاذها وكانت تعجب بعلمه وتعتز بشخصيته . فالتفسير وحده كناحية معرفية لا يمكن أن يتمخض عن شئ . وكانت تعرف منذ اللقاء الأول أن أستاذها المعالج يريد لها أن تكون منطقية مع نفسها بحيث تلغي الإفراط في نصفها العلوي وتلغي التفريط في نصفها السفلي .

٢ - لا كلينيكية بغير وحدة حالية :

وتنحصر المسلمة الثانية في ضرورة تناول الشخصية في وحدتها الكلية الحالية فقد كان الأمر في البداية شبيهاً بالطب البيطري ، يقتصر على مجرد الأعراض المرضية في انعزال عن الشخصية تماماً كما يحدث عند تشخيص حمار مريض أو كلب يتألم . وكان الأمر يقتصر على إلصاق بطاقته باسم مرض من الأمراض المعروفة . كان كل شئ يمضي وكأن هذه الأعراض لا تنتسب إلى شخص بعينه يعيش في بيئة بعينها وذلك في لحظة بعينها من لحظات تطوره . أما المنهج الكلينيكي اليوم فليس للأعراض عنده من دلالة أو معنى إلا بالرجوع للوحدة الكلية للشخصية في صلتها بالعالم .

يتضح ذلك مثلاً من دراسة مخيمر للأنماط الانفعالية للمكفوفين - الأنجلو . فالأعمى من النمط التسولي أو الضغيني مما يمثل حضيض التوافق لا يكشف عن قلق أو توترات أو صراعات تذكر ، وذلك لأنه يتقبل تصور المبصرين للعمى على أنه عجز وانعدام لكل قدرة وبالتالي يعيش على حسنات الآخرين وعطفهم . أما الأعمى المتوسط والذي يمثل بالنسبة إلى مخيمر درجة أعلى من التوافق ، فإنه يرفض مفهوم المبصرين عن العمى ويقبل الدخول في تحد معهم ومع العمى وبالتالي يزداد قلقه وترتفع توتراته وتتعدد صراعاته وتظهر لديه كثرة من الأعراض المرضية(١) .

وكذلك الحال بالنسبة إلى المرأة الجميلة التي ترفض أن تتعامل مع العالم على أساس التفريط في شرفها الأنثوي ، فإنها تعاني الكثير من الصراعات وتظهر لديها كثرة من الأعراض المرضية بالقياس إلى زميلتها التي قبلت أن تبيع بدنها لتشبع

---

(١) انظر رسالة الماجستير - سامية القطان . جامعة عين شمس . عام ١٩٧٤ .

حاجاتها على مستوى من الرفاهية . فمن ذلك نرى أن دلالة الأعراض المرضية لا يمكن أن تتضح إلا بالرجوع إلى الشخصية فى وحدتها الكلية ضمن ظروفها البيئية ، مما يعني ضرورة أن تنصب الدراسة على كل مجالات الحياة للمفحوص . ومن المعلوم فى دراسة التوافق أن مجال الانفعالية الحميمة بما ينطوى عليه من عاطفية وانسالية يمثل الأرضية التى تجرى عليها المباراة الأخيرة للتوافق . فلا توافق بغير رضى الفرد عن ذاته وحياته فى هذا المجال .

٣ – لا كلينيكية بغير وحدة كلية تاريخية :

تنحصر المسلمة الثالثة فى ضرورة تناول الشخصية فى وحدتها الكلية التاريخية . فاستجابة الشخصية بإزاء موقف حالى مشكل لا يمكن أن تتضح دلالتها إلا فى ضوء تاريخ حياة الشخص ، ليس فقط بالنسبة إلى ماضيه بل وأيضا بالنسبة إلى اتجاهه من المستقبل . فالتشخيص يستهدف الإمساك بلحظة من لحظات تطور الكائن البشرى ، هذا الذى ينحصر وجوده فى دينامية بسبيل التطور ، وكينونة فى صيرورة . يتضح ذلك من حالة زوجة شابة لديها طفلان ويتسم زوجها بوداعة ولطف فى المعاملة والعشرة . كانت تشكو من دخولها فى علاقات جنسية مكتملة مع بعض زملائها فى العمل. كانت تستسلم لهم على الرغم منها ولا تشعر فى علاقاتها الجنسية معهم بأى لذة أو نشوة ، ثم تعانى بعد انتهاء الأمر أحساسيس غامرة من الذنب ولم تكن تدرى لسلوكها هذا سبباً خاصة وأنها لم تكن تحصل على إشباع جنسى إلا فى علاقتها بزوجها . كانت أمها قد توفيت منذ سنوات ولكنها كانت أماً تسلطية فى حنانها المسرف الذى تفرضه على من حولها . كانت أمها هى التى اختارت لها زوجها بل وأصرت أمها على أن يكون مسكن الزوجية لابنتها الحالة ملاصقاً لمسكنها فى نفس العمارة ، وكانت الأم تطهى لهما كل شئ بل ويأكلان فى مسكنها فلا يذهبان إلى مسكنهما إلا للنوم . ولم يتغير الموقف بعد إنجاب الطفلين . وكان كل قرار يتصل بحياتهما الزوجية تناقشه الأم مع زوج ابنتها وهى تشاهد ذلك وما من سبيل لإبداء رأيها . كانت تشعر بينها وبين نفسها بأن زوجها ليس بزوج لها بل هو زوج لأمها . وكان زوجها كأبيها لا حول له ولا قوة فالكل يخضع لما تراه الأم . وكانت الأم فى هذا كله تحتج بأن ابنتها

تعمل بينما هي متفرغة لحياة البيتين . كانت كل أحلام الزوجة الشابة تكشف عن عدوانيتها تجاه أمها التي تلغي وجودها وتجاه زوجها الشاب الذي لا يجترئ على معارضة أمها بينما كانت تنتظر منه أن يقوم بتحريرها من ربقة أمها .

لم تكن لها قبل الزواج أي علاقة جنسية على أي نحو ولكنها بعد عام من زواجها وجدت نفسها بشكل قهري تستسلم لكل زميل في العمل يغازلها ويريد الاتصال بها ، وكانت تستسلم لهم وكأنها مسلوبة الإرادة بينما كانت في غير ذلك أقرب ما تكون إلى الحزم وقوة الشخصية . كانت تقتدر في يسر على مواجهة أي شخص في العمل أو في الطريق وتلزمه حدوده ، بينما تبدو عاجزة أمام أمها . لم تكن تجترئ على مواجهة أمها وكان زوجها مجرد «ملكية» لأمها وعبثاً حاولت أن تستثيره ليحميها من طغيان أمها. وبدهي أن أمها كانت تتخذ من الفضيلة والأخلاق والأصول ما تبرر به تسلطها وطغيانها . ومن هنا كان يتحتم على الابنة الشابة أن تتخذ أسلوباً غير مباشر في انتقامها من أمها ومن زوجها معاً . كان لسان حال (علاقاتها الجنسية مع زملائها) يقول لأمها : اذهبي أنت وأخلاقياتك وفضائلك إلى الجحيم، بينما يقول لزوجها: خلي أمي تنفعك . وقد ماتت أمها ولكن الزوجة الشابة تابعت انتقامها على الرغم منها فقد كانت عدوانيتها بغير حدود تجاه أمها وزوجها . لم تكن تجترئ على العدوانية الصريحة المباشرة في وجه أمها... لا ولا العدوانية المباشرة الصريحة في وجه زوجها الذي كان ينعم بحماية أمها ، فلم يكن أمامها إلا سبيل العدوانية غير المباشرة . وصحيح أن الخنجر في هذه الحالة كانت تضربه في صدرها لينفذ من الخلف فيصيب أمها وزوجها ولكن لم يكن أمامها من سبيل آخر غير سبيل شمشون بعد أن فقد قدرته «علي وعلى أعدائي يارب» .

يترتب على هذه المسلمات أو الركائز الثلاث أن يكون لب المنهج الكلينيكي هو المقابلة الشخصية التي نمسك فيها ليس فقط بتاريخ الحالة وبمختلف المجالات الحالية لحياتها بل وأيضاً بما تكون عليه استجابات المفحوص في هذا الموقف الحيوي للفحص هنا والآن . والمقابلة الشخصية ينبغي أن تكون طليقة لا تتقيد بترتيب للمجالات لا ولا بترتيب للأسئلة داخل كل مجال ، بل هي رؤوس موضوعات في ذهن الكلينيكي

يكفيها في ترتيبها وسعة مجالاتها تبعاً لفردية كل مفحوص . ففي حالة ما تكون المجالات محددة مسبقاً والأسئلة جاهزة مسبقاً يكون الاستبيان الذى ينتمى إلى المنهج التجريبي السيكومترى سيان أعطينا أو لم نحدد درجات للإجابة على الأسئلة . فالمقابلة الكلينيكية لا يمكن أن تكون إلا مقابلة طليقة .

المقابلة الشخصية (الاستخبار)

سبق أن رأينا أن المقابلة الشخصية يمكن أن تتخذ جملة من الأشكال التى تتراوح ما بين الصورة المقننة للاستبيان (الاستخبار) مما ينتمى إلى المنهج التجريبي السيكومترى ، وبين الصورة الطليقة للتداعى مما ينتمى إلى التحليل النفسى كصورة ممعنة للمنهج الكلينيكى والتى لا تتقيد بخطة سابقة أو بأنموذج مرسوم ومحدد . وبين هاتين الصورتين القصويتين للمقابلة ، توجد درجات متفاوتة من الأسلوب الموجه للمقابلة الشخصية حيث يهتدى الكلينيكى برؤوس الموضوعات الرئيسة التى تستقر فى ذهنه يطوعها فى مرونة ليجيب على النوعية الفريدة للحالة . والواقع أن ذلك نفسه يحدث على وجه الدقة فى حالة التحليل النفسى ولكن دون ما توجيه للمريض أو تدخل فى مستدعياته الطليقة، بحيث يتكلم فى الاتجاه المطلوب طالما أنه لا يوجد فى التحليل النفسى اتجاه يمكن اعتباره مطلوباً أكثر من غيره . هذا بالطبع إلى قيام التحليل النفسى على الحيادية والطرح بينما يقوم المنهج الكلينيكى فى صورة غير تحليلية على المعاملة الودية فى غير ما التزام بتأويل الوقائع التى تتتابع أثناء الجلسة على أنه طرح من جانب المريض لماضيه الطفلى على حاضره العلاجي .

ومن الناحية التاريخية كان المنهج الكلينيكى فى بدايته استجوابيا على طريقة محضر البوليس، وكان ينصب على المرض فى إغفال للمريض وظروف حياته . ولكن كورديه شرع منذ عام ١٩٢٣ ينصح باتباع الدبلوماسية والكياسة تجنبا للأسئلة الحرجة وما يلحق بها من أكاذيب، ولكنه كان مع ذلك يحصر همه فحسب فى دراسة تاريخ المرضى وتتبعه . ومثل هذا الرسم لتاريخ الحياة لم يكن يختلف فى شيء عن هذا

الذى ينتهى إليه الطبيب البيطرى باستجوابه للرجل صاحب حمار أو كلب مريض. وهذا ماتنبه إليه سجوين عندما أوضح أن هذه الطريقة لاتنظر إلى المريض قط بحسبانه شخصا مكتملا وكلا متكاملا رأى بحسبانه كائنا عيانيا وبرمته فى جملة علاقاته ببيئته. وفى هذا مايتضمن ضرورة إقامة علاقة ودية مع المفحوص تجعله يشعر بالارتخاء والثقة بحيث يتكلم فى حرية عن كل شىء فى الاتجاه المطلوب. وهذه العلاقة الطيبة مع المفحوص أو المريض تعتبر اليوم حجر الزاوية ليس فقط بالنسبة إلى المنهج الكلينيكى بل أيضا بالنسبة إلى كل أشكال العلاج النفسى. فلو شعر المفحوص أو المريض ولو شعورا غامضا بأن الكلينيكى لايحفل به أو بأنه لايبعث على الثقة فإن المفحوص لايدلى بل ولايستطيع الإدلاء بكل المعطيات اللازمة للتشخيص الحق. فكثير من هذه المعطيات تضيع من ذهنه بحيث لايتذكرها إلا بعد انتهاء المقابلة.

ومن هنا فإن وجود شخص ثالث أو الاستعانة بأية تسجيلات يعتبر من الأخطاء الفادحة التى تذهب بكل ثقة المفحوص حتى على الرغم مما يدعيه فى الظاهر، بل إن تسجيل مايقوله دون علم منه يعتبر عملا منافيا لأخلاقيات المهنة.

وعليه فإن المقابلة الشخصية ينبغى أن تتم فى إطار يتسم بالعلاقة الودية مما يسميه التحليل النفسى بالطرح الموجب. ففى مثل هذا الإطار يتاح للمفحوص ليس فقط أن يرتخى بل وأن يشعر بشىء من التنفيس وهو يتحدث بأسراره الدفينة فى إطار من الثقة المطلقة بالكتمان. فالمقابلة الشخصية فى هذه الحالة تكون بالنسبة إلى المفحوص فرصة ليتخلص عن طريق الإفراغ اللفظى والاعتراف بالسر من بعض مايثقل نفسه. يتضح ذلك بشكل بارز عندما يتحدث المفحوص مثلا عن بعض خبراته الجنسية فى الطفولة مع موضوعات محارمية كأمه أو شقيقاته. وتسمى المقابلة الشخصية بالاستبار لأنها تسبر الأعماق.

١ – أهداف المقابلة :

ينبغى للمقابلة تبعا لما يراه فلاندرزدنبر عام ١٩٤٣ أن تكشف عن النقاط الثلاث الآتية :

أولاً : استجابات المفحوص السابقة منها والحالية تجاه :

١ – ذاته وبدنه .

٢ – عائلته وعمله .

٣ – بيئته الاجتماعية فى مراعاة للوضع الاقتصادى والعقيدة والأصدقاء .

٤ – حياته الجنسية (ذاتية أو مثلية أو غيرية) .

٥ – مرضه الحالى .

ثانيا : مدى استعداد المفحوص وتهيؤه سبقا كتربة للمرض وذلك بالكشف عمايلى :

١ – التكوين البدنى والعوامل الوراثية .

٢ – الصراعات النفسية الأساسية .

٣ – العلاقة الزمنية مابين الأحداث الصدمية (أو فترات التوتر) وبين لحظة احتدام الصراع أو ظهور الأعراض .

٤ – تبين الأعراض التى هى مظاهر تترجم عن الصراع بالحفزات الغريزية وإن كانت فى الوقت نفسه دفاعات ضد هذه الحفزات .

ثالثا : مدى رغبة المفحوص فى الشفاء وبذلك بالكشف عمايلى :

١ – اتجاهه من أمراضه السابقة ومن مرضه الحالى .

٢ – المزايا التى تكسبها من وراء مرضه الحالى .

٣ – الهدف (الدلالة العميقة(١)) لأعراضه المرضية الحالية .

٤ – تبين مدى قدرة الأنا لديه . أى مدى قدرته على فض الصراعات وذلك بتبين اقتصادياته النفسية (كمية الطاقة المتاحة حاليا تحت تصرف الأنا بعدما ضاع منها فى المكبوتات والدفاعات) .

فنيات المقابلة الشخصية (والاستبار) :

تتباين المقابلة كموقف عيانى تبعا للكلينيكى الذى يتيح للفرد أن ينبسط بدنيا ويرتخى نفسيا فى جو من الثقة والعلاقة الودية أو يضيق عليه الخناق فى جو من

---

(١) غالبا مايتحقق ذلك بسؤال المفحوص عما ينوى فعله بعد شفائه . فيكون ذلك فى العادة هو صميم ما يعمل على تجنبه حاليا بمرضه .

التوتر البوليسى ظنا منه أنه بذلك يرغم المفحوص على الإدلاء وينسى أنه يخاطر بكل شىء وأنه يغدو عديم الحيلة لو أن المفحوص لاذ بالصمت . ما من سبيل ممكن غير العلاقة الودية وثقة المفحوص بالكلينيكى . وكنزى قد ألح على أن المقابلة من حيث هى موقف عيانى ينبغى أن تتسم باللطف والرد حتى يسترسل المفحوص على سجيته فى غير ما اضطراب؛ ويسمى ذلك بأسلوب صاحب البيت فى معاملته لضيفه. وبدهى أن خصوبة المقابلة تتطلب الكشف فى عمق عن جنبات الشخصية ولايتأتى هذا إلا عندما يندمج المفحوص فى الموقف، الأمر الذى لايمكن أن يكون إلا عن طواعية ورغبة من جانبه. ومما يعينه على ذلك أن تبدأ المقابلة بالحديث عن تلك المجالات من حياته التى تتعرض لأقل قدر من مقاومته ثم يكون بعد ذلك الانتقال إلى المجالات الأكثر فالأكثر تعرضا لمقاومته . فبقدر مايندمج فى الحديث وينسى نفسه إن جاز القول تكون قدرته على التغلب على المقاومة فيسترسل – على أرضية من الرد والثقة– بكل الحرية فى الحديث. وغالبا ماتكون البداية بالحديث عن حيلته المهنية والاقتصادية والأسرية قبل البلوغ إلى حياته العاطفية والجنسية فبغير ذلك يمكن أن «يقمع» المفحوص معطيات حياته بمعنى أن يحبسها عن شعور وقصد فلا يتحدث بها إلى الكلينيكى، كما يمكن أن «تنكبت» بمعنى أنها تغيب عن وعى المفحوص نفسه فلا يتنبه إليها إلا عندما يصبح بعيدا عن موقف المقابلة ولكن لتضيع من ذهنه من جديد فى المقابلة التالية .

وفيما يتصل بمشكلة تسجيل أقوال المريض تجنبا لنسيانها أو لإغفال بعض النقاط المهمة فيها فينبغى أن نتنبه إلى أن الكلينيكى لو قام بتسجيل كل شىء فسوف يتوزع انتباهه ما بين الكتابة وبين مايقتضيه الموقف من ملاحظة متصلة لكل مايصدر عن المفحوص من حركات مرهفة .

صحيح أن الكلينيكى بكتابته لأقوال المفحوص يضمن عدم نسيان أو إغفال نقطة من النقاط ولكنه يضيع بذلك على نفسه فرصة التنبه إلى تلك الحركات المرهفة التى تصدر عن المفحوص والتى تكشف عن أعماقه بأكثر مما تفعل كلماته ، هذا بالإضافة إلى ماتستثيره الكتابة من مقاومة عاتية عند الفحوص تتمحض عن الكبت إن لم يكن عن القمع الصريح .ويتوهم البعض أن ليس فى «الكتابة» مايزعج المفحوص

أو ليس فيها على الأقل ماينبغي أن يزعجه فحسبه أن يقتنع باهتمام الأخصائي به وعمله على مصلحته. ولكن أصحاب هذا الرأى أنفسهم يرون أن تتوقف الكتابة عندما يصل الحديث إلى جنبات الحياة الحميمة من حياته (كعلاقاته الجنسية والعاطفية.. الخ) وذلك تفاديا لابتعاث القلق لديه وازدياد مقاومته. فعندما يرى المفحوص أسراره الدفينة تسجل على أية نحو فلن يكون بوسعه أن يمنع قلقه من أن تنتقل هذه الأسرار يوما إلى العلانية .

ويرى مخيمر أن الكلينيكي المتمرس ينبغي أن يعول تماما على ذاكرته فلا يستعين أثناء الجلسة بتسجيل أقوال المفحوص لا ولابعضها سواء كان ذلك بالكتابة أو بأجهزة التسجيل . وأكثر من ذلك ما يذهب إليه من أن الكلينيكي المتمرس لاينبغي أن يستعين بشيء مكتوب أمامه كرؤوس الموضوعات التي ينبغي أن يستجليها . ففي ذلك مايتيح للكلينيكي أن يتفرغ بكل انتباهه لملاحظة المفحوص وهو يتحول به في مهارة محسوسة من مجال الحديث إلى مجال أكثر مقاومة .

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة إلى تدوين الكلينيكي لأقوال المفحوص، فإن الأمر لايمكن إلا أن يزداد عسرا عند السماح لشخص ثالث بأن يكون حاضرا في المقابلة ليقوم بتدوين أو اختزال كل مايقوله المفحوص. ففي مثل هذه الحالة يضيع كل معنى للكتمان المهني وينتقل الموقف إلى العلانية، وعبثا كل مايمكن أن يقول الكلينيكي لتبرير ذلك من قبيل أن هذا الشخص الثالث قد اعتاد الاستماع إلى مثل هذه الأمور ويحرص على كتمانها. بكل بساطة لاتكون هناك مقابلة كلينيكية بل مجرد «دردشة». وإذا كان مثل هذا الأسلوب يصلح من بعض الأمريكيين الذين اعتادوا الحديث عن أدق أسرار حياتهم أمام الآخرين، فإن ذلك لايصلح على الإطلاق مع كل الأمريكيين فضلا عن غيرهم من الشعوب الأخرى . وكذلك فيما يتصل باستخدام أجهزة التسجيل الصوتية والمرئية دون إعلام الشخص، أو حتى بعد إعلامه، فإنها تذهب بكل معنى وقيمة للمقابلة الشخصية، فضلا عن مجافاتها للأوليات الأخلاقية عندما لايكون المفحوص على علم بذلك .

وخلاصة هذا كله أنه يتحتم على الكلينيكي تجنب التسجيل في كل صوره أثناء

المقابلة وعدم السماح بثالث بالحضور على أى نحو من الأنحاء . ولكن عادة مايقوم الكلينيكي عند اللزوم بتسجيل بعض النقاط بعد انتهاء المقابلة شريطة ألا يذكر اسم المفحوص أو مهنته أو أى شيء يكون من شأنه أن يتمكن الآخرون من التعرف عليه ولو وقعت هذه المذكرات في يد آخر . وعلم النفس الضمنى على نحو ما يظهر فى أمثال وحكم الشعوب يقرر بأن السر لو زاد عن اثنين لايكون سرا. وفى هذا مايقطع بضرورة استبعاد أى شخص ثالث وإن صورة من صور التسجيل .

إن العلاقة الودية وحدها لاتكفى ، بل لابد للمفحوص من أن يثق فى الكلينيكى إن كان له أن يتحدث فى حرية تامة وبصدق عن كل جنبات مشكلته، ومن هنا يتحتم على الكلينيكى منذ البداية أن يلح على المفحوص بأهمية ذلك حتى يستبصر بطبيعة الموقف ويفهم أن الأسئلة التى يوجهها إليه لامفر من توجيهها والإجابة عليها بكل صراحة للإمساك بمرضه. فإذا ماتبين الكلينيكى أثناء المقابلة أن المفحوص يلجأ إلى تزييف الوقائع يكون عليه أن ينبهه إلى ضرورة الإجابة فى صدق، وإلا تضيع كل الجهود فى غير طائل .

ويتحتم على الكلينيكى أن يتكيف مع الفردية الفريدة لكل مفحوص بحيث يجعله يتكلم فى حرية وبصدق فى الاتجاه المطلوب ودون أن تكون هناك إيحاءات على أى نحو . وأصحاب الاتجاه السيكومترى يقعون فى خطأ فاحش عندما يدافعون عن استبياناتهم المقننة متوهمين لها الموضوعية مع تيسير فى الوقت نفسه لفنيات المقابلة. وكل ماهنالك أن السيكومترى عندما يقوم بتثبيت كل شيء- حتى بتثبيت نفسه كمتغير- يتوهم أنه قد بلغ بذلك إلى الموضوعية العلمية. وقد سبق أن رأينا أن هذه «الملاحظة الخارجية» لاتعنى تثبيت دلالته بالنسبة إلى المفحوصين. فمهما اتسمت مسالك السيكومترى بالآلية والجمود بحيث تكون فى نفسها مع الجميع ، فسوف تكون له مع ذلك دلالة خاصة عند كل مفحوص. فليست العبرة بتثبيت المثير، فذلك وهم (التقنينة) بل العبرة بما تكون عليه دلالة المثير عند المفحوص القائم بالإدراك . وعليه فلا سبيل غير «الملاحظة المشاركة» بحيث يعيش الكلينيكى الموقف مع المفحوص ، ولكنه ككلينيكى متمرس يكون بوسعه أن يرجع إلى ماوراء نفسه بحيث يمسك

بالمفحوص ضمن إطاره الخاص بعيدا عن كل احتمالات التحريف التي يمكن أن تصدر عن إسقاطات الكلينيكي ودفاعاته الخاصة. ومن هنا يقال في العادة إن فهم الكلينيكي لنفسه شرط لابد منه ليفهم الآخر (المفحوص) . فعندما يكون الكلينيكي على وعي بقاعه الخاص وبما ينطوي عليه من اتجاهات لاشعورية فإنه يتوقف عن أن يدرك المفحوص على أرضية من هذا القاع ونعني قاع (الكلينيكي) ، بل يدرك المفحوص ضمن قاعه الخاص به وفي ظروفه البيئية الخاصة به. وتلك هي الموضوعية التي سبق وأن رأينا أنها يستحيل أن تكون إلا من خلال ذاتية الباحث أو الكلينيكي .

نعود من جديد إلى الاستبيان المحدد مسبقا لنتبين أن تثبيت مجالاته وأسئلته سبقا ليس فقط بجانب الموضوعية بل ويذهب بكل قيمه للمقابلة الشخصية. فالاستبيان في هذه الحالة يصاغ سبقا استنادا إلى تصورات السيكومتري وفي إغفال لما ستكون عليه فردية المفحوص. فليس للمجالات نفس الدلالة ونفس الوزن عند كل المفحوصين، وما يكون يسيرا بالنسبة إلى مقاومة الواحد بحيث يمكن أن يبدأ الكلينيكي به ، يمكن أن يكون غاية في العسر بالنسبة إلى مقاومة الآخر بحيث يتحتم على الكلينيكي أن يدعه إلى النهاية . ويصدق ذلك على ترتيب الأسئلة داخل كل مجال من المجالات (هذا إلى أن الكلمة الواحدة ضمن السؤال يمكن أن تتباين دلالتها بتباين المفحوصين. ومثال بارز على ذلك أن يكون السؤال عن الحب أو الحرية) فمن الواضح أن سؤالا بعينه قد يكون أساسيا للواحد وخلو من الأهمية بالنسبة إلى الآخر، بحيث ينبغي في الحالة الأولى أن يضطرد البحث في هذا الاتجاه بكثرة كثيرة من الأسئلة، وهذا مانعنيه بوزن المجال. إن الكلينيكي في المقابلة الشخصية أشبه مايكون بالمهاجم الذي يتلمس ثغرة في الخط الدفاعي للعدو حتى يستطيع أن ينفذ منها ، وهكذا أمام الخط الدفاعي الذي يليه والذي يليه في طريقه إلى الأعماق .

وخلاصة هذا كله أن ترتيب مجالات البحث وترتيب الأسئلة داخل كل مجال بل وعدد هذه الأسئلة داخل كل مجال كلها أمور تتباين بتباين المفحوصين. هذا إلى أن الكلينيكي يتحتم عليه أن يتبين ماتعنيه الكلمات بالنسبة إلى كل مفحوص من

المفحوصين ولابد للكلينيكي أن يحسن اختيار كلماته تبعا لنوعية الموقف. فالتعبير اللفظي يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية والخلفيات الثقافية .

وإذا كان من الخطأ في الحالات العادية استخدام المصطلحات الفنية فإن ذلك يصبح ضرورة في بعض الحالات من الطبقة الوسطة لتفادى المقاومة عند الحديث عن الأمور الحميمة من المجال الجنسي. ذلك لأن المصطلحات الفنية كاللغة الأجنبية تسهل على الفرد التخلص من قيد التابو .

وإذا كنا نرفض تقنين المقابلة في صورة استبيان جاهز سبقا ، فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة إلى رؤوس الموضوعات التي ينبغي أن تستقر واضحة في ذهن الكلينيكي بحيث يكيفها في مرونة تبعا للفردية الفريدة لكل مفحوص .

مما سبق يكون من البدهي أن يترك الكلينيكي لسياق الحديث ترتيب المجالات والأسئلة ووزنها عند كل مفحوص على حدة . فترتيب المجالات وترتيب الأسئلة ينبغي أن يساير المقاومة الشخصية للفرد. بينما وزن المجالات ووزن الأسئلة ينبغي أن يساير مالها من أهمية عند الفرد .

ولكن ينبغي التنبه إلى أن المقاومة تتخذ صورا عديدة مختلفة، فمن الصمت إلى التردد إلى حركات تعبيرية لا إرادية (لازمات) إلى شعور بالحرج (نحنحة ونظرات خافضة) إلى زلات اللسان وما إلى ذلك. ومهما يكن من أمر فلايمكن حصر المظاهر المختلفة التي تأخذها المقاومة ولاسبيل إلى التغلب عليها بعدد من النصائح ، فتلك مسألة من صميم عمل الكلينيكي الذي يجد في إعداده وخبراته مايمكنه من القيام بذلك. إن الذي يحدث في العادة أننا لانكاد نلمس الدوافع العميقة عند المفحوص حتى يعبيء أعنف المقاومة مدافعا بشكل لاشعوري ضد كل محاولة تستهدف كشفها، ويخطيء البعض عندما يلجأ إلى استخدام وسائل الضغط من إحداق النظر والانهيال على المفحوص بسيل من الأسئلة المتلاحقة السريعة على أمل أن ينهار فيدلي بالحقيقة كلها ودون تحريف. فهذه الأساليب البوليسية خطرة يتحداها المفحوص بالصمت فيضيع كل شيء .

إن قيمة المقابلة إنما تتوقف على قيمة الكلينيكي المضطلع بها . وذلك أنه يتعين

على الكلينيكي أن «يحسن الاستماع» فهو ينصت ويعين الشخص على أن يتكلم فى حرية ممسكا مع ذلك بزمام الحديث يوجهه حسبما يرى . فالكلينيكى لاينبغى فحسب أن يبعث الثقة فى نفس المفحوص فيعينه بذلك على الكلام وإنما ينبغى أن يعينه على أن يتكلم بحرية فى الاتجاه المحدد. والكلينيكى المتمرس هو وحده الذى يستطيع أن يدير دفة الحديث فى مهارة وفعالية، فهو يوجه الحديث وأن يتجنب ماقد يوحى إلى المفحوص بإجابات معينة، وهو ينتقل من التجربة الحية الشعورية إلى المستويات العميقة اللاشعورية، ويتبين من مقاومة للمفحوص بنوعيتها هذا الذى تحاول دفاعاته أن تتجنبه .

وينبغى أن يكون الكلينيكى بادى الاهتمام بالمفحوص وإلا استحال الطرح الموجب. ولكن هذا الاهتمام ينبغى أن يكون شعورا صريحا لاضمنيا حتى لايفلت من زمام الكلينيكى بل يخضع لإرادته وذلك مايعرف فى التحليل النفسى «بمقابل الطرح».

وصحيح أن الطرح الموجب يتيح للمفحوص أن يتعاون بأقصى طاقاته مع الكلينيكى فيتكلم فى حرية وصدق بعيدا عن المقاومة. ولكن الطرح الموجب لاينشأ بشكل آلى بل يتوقف على جملة من العوامل كسن الكلينيكى وجنسه ومظهره البدنى ونبرات صوته وتعبيرات وجهه .. الخ. هذه العوامل تلعب دورها فى المقابلة الشخصية التى لاتمتد امتداد التحليل النفسى بل تقتصر على عدة جلسات . إنها تحكم ظاهرة الطرح عند المفحوص ومن ثم تحكم اتجاهاته واستجاباته. ومن الممكن أن تكون هذه العوامل بحيث يظهر عند طرح سالب مما يعنى كراهية للكلينيكى وعدوانية بحيث يأتى بنجاح فى المقابلة الشخصية. وتبعا لما تكون عليه حالة المفحوص بحيث يأتى الطرح السالب ويحل فى محله الطرح الموجب، وألا يتعذر عليه المضى بنجاح فى المقابلة الشخصية. وتبعا لما تكون عليه حالة المفحوص من الطرح تتحدد دلالة استجاباته. فابتسامة المفحوص يمكن أن تكون تعبيرا عن المحبة كما يمكن أن تكون تعبيرا عن تحديه للكلينيكى .

وكذلك أيضا ينبغى على الكلينيكى أن «يحسن الملاحظة» فيتنبه إلى رد الفعل العارض السريع وزلات اللسان ونوعية الحركات المصاحبة للحديث عن موضوع بعينه

الخ . ويتحتم على الكلينيكي أن يتنبه إلى مايسيء المفحوص التعبير عنه ومايكمن وراء ذلك من دوافع وماحال بينه وبين التعبير الصحيح من دفاعات، وهناك أيضا ما لايستطيع المفحوص التعبير عنه إلا عندما يعينه الكلينيكي على ذلك . وينبغي على الكلينيكي أن يتنبه لما استبعده الشخص نتيجة للقمع ولما استبعده نتيجة للكبت، ويكون عليه في هذا كله أن يسد هذه الثغرات في تأويله .

وينبغي ... وينبغي ..

وكل ذلك يتلخص في أن قيمة المقابلة الشخصية تعكس قيمة الكينيكي ، فمقابلة شخصية واحدة يمكن أن يخرج منها الكلينيكي المتمرس بتشخيص للمشكلة بينما يكون الكلينيكي غير المتمرس أشبه مايكون بصياد عديم الخبرة تقفز الأسماك من حوله تظهر وتختفي في سرعة البرق فلا يتنبه إليها ولا يصطاد منها شيئا .

فالكلينيكي بالإضافة إلى الاستعداد يحتاج إلى إعداد وخبرة طويلة قبل أن يكون كلينيكيا حقا وبمعنى الكلمة .

وهنا لايختلف الأمر عما عليه الحال في مجال الطب البدني . فبوسع صبي المعمل أن يقوم بتسجيل حرارة المريض وضغطه بل وأن يقوم بالتحاليل اللازمة بحيث تكتمل كل المعطيات اللازمة للتشخيص. هذه المعطيات سهلة يسيرة في الحصول عليها بكل دقة. ويكون على الطبيب البدني بعد ذلك أن يقوم «ببناء كل هذه المعطيات في ذهنه» في صورة التشخيص. ذلك هو صميم عمل الطبيب، ينجح في بناء هذه الوقائع في ذهنه في صورة تشخيص صحيح فيكون بذلك طبيبا أو يفشل في ذلك فيكون لاشيء على الإطلاق، وكذلك الحال بالنسبة إلى الكلينيكي النفسي وإن كانت المعطيات هنا أكثر صعوبة في الحصول عليها وأقل دقة .

وغني عن البيان أن الكلينيكي يتحتم عليه أن يتجنب الحل السهل بإلصاق بطاقة بمرض من الأمراض على المفحوص وإنما يضع فرضا ابتداء من المعطيات، ويترك للمعطيات التالية أن تقوم بتأييد فرضه أو دحضه أو تعديله، حتى يبلغ إلى التشخيص الختامي الذي هو بناء لكل التشخيصات الجزئية في وحدة الكل التفسيري الواحد، وهذا هو التشخيص من حيث هو «مواءمة» تتخطى مجرد «المماثلة» .

رؤوس الموضوعات الهادية :

يتحتم على الكلينيكي أن تستقر في رأسه بشكل واضح المجالات الرئيسة التي يتحتم عليه أن يستجلبها بل وفي داخل كل مجال، الجنبات الأساسية التي لاينبغي أن يغفلها. ذلك هو مانقصده من رؤوس الموضوعات الهادية .

المجال الأول (المرض الحالي) : ينبغي أن نترك المريض يتحدث في حرية عن أعراض مرضه فلقد جاء من أجل ذلك. ينبغي أن نلح حتى نتبين متى كان إحساسه وكيف كان إحساسه بالأعراض الأولى، ثم ماذا كان منه عند ذلك، وما الذي ترتب على ذلك .

ينبغي ألا نقع في خطأ الإيحاء للمريض بإجابة ما ، فلاينبغي مثلا أن نسأل ما إن كان يستشعر هذا العرض أو ذاك من الأعراض المرضية التي لم يتحدث عنها.

المجال الثاني (الأسرة) : نسأل المريض عما إذا كان أبوه لايزال حيا، وعن عمره وصحته وعمله، وعن أي نمط من الرجال هو، وعما إن كان يسرف في الشراب الخ . فإذا كان الأب قد توفي فمتى كان عمره عند الوفاة، وما سبب الوفاة، وكم كان عمر الأم عند وفاة أبيه الخ . فإذا ما انتهينا من الأسئلة المتعلقة بالأب أعدناها فيما يختص بالأم فالإخوة والأخوات والأجداد والجدات . نسأله عما إن كان إخوته وأخواته أشقاء وشقيقات، ونسأله عن موقعه بين إخوته وأخواته. فتلك مسألة تنطوي على أهمية بالغة . ففارق كبير بين أن يكون الابن الأول أو الابن الثاني أو الابن الأخير ، وكذلك بالنسبة إلى الابنة الأولى أو الثانية أو الابن الذكر الوحيد بين أخواته أو الابنة الوحيدة بين إخوتها . نسأل المريض عما إذا كان قد عاش حتى اليوم بين أبويه فإن أجاب بالنفي سألناه عن الأشخاص الذين عاش معهم مكررين الأسئلة السابقة . نسأله عن الطريقة التي تمت عليها تربيته، ومدى ماكانت تتسم به من تسامح أو صرامة. نسأله عما إذا كان قد نزل به العقاب فإن أجاب بالإثبات سألناه لماذا وكيف وممن . نسأله كيف كانت استجابته. ونسأله عمن كان أكثر الأشخاص تدليلا له . ونسأله عما إن كان يفضل في حبه أباه أو أمه ملحين عليه حتى نبلغ إلى الإجابة . فهناك دائما اختلاف في درجة الحب. نسأله عمن كان يحظى بتفضيل الأب وعمن

كان يحظى بتفضيل الأم. نسأله عما كان عليه تفاهم الأبوين فيما بينهما. ونسأله فى النهاية ما إن كان يشعر بالسعادة بين أهله .

المجال الثالث (الطفولة) : نسأل المريض عن طفولته، وعن أي نمط من الأطفال كان فى طفولته من حيث الهدوء أو «الشقاوة» أو الشراسة .. الخ . نطلب إليه جميع المعطيات المتصلة بتطوره البدنى والنفسى، مبتدئين فى ذلك من الحمل للولادة لننتقل إلى الفطام فالمشى فالكلام الخ . نسأله عن السن التى انتهى عندها تبليله لفراشه. ونستفسر منه عما إذا كان قد مارس قضم أظفاره. نطلب إليه ما إن كان قد مر بنوبات عصبية الخ . نسأله فى حالة تبليله لفراشه إلى سن متأخرة عما إن كان ينام بجوار أمه أو أخته.. الخ . وعن السن التى بدأ ينام فيها بمفرده الخ . وكذلك نحاول أن نتبين ما إن كان قضمه لأظفاره أو تبليله لفراشه بعد تدريبه على النظافة يرتبط بظروف أسرية كميلاد أخ جديد الخ .

المجال الرابع (سنوات التعليم) : نسأل المريض عن السن التى ذهب فيها إلى المدرسة، وعما كانت عليه استجابته . نسأله هل كانت له كثرة من الأصدقاء، وعن طبيعة اللعبة التى كان يحب أن يمارسها . نسأله هل كان يشعر بالميل إلى تزعم الغير أم إلى اقتفاء أثرهم . نسأله عن الحد الذى انتهى إليه ووقف عنده فى دراسته، وعن المادة التى كانت تحظى بشغفه واهتمامه. وعن المهنة التى كان يتمنى أن يزاولها حين يكبر . نسأله عما كان عليه من تفوق أو تخلف فى دراسته، وعن الضغط الذى كانت تمارسه الأسرة فى هذا السبيل. نسأله عما إن كان بعض مدرسيه قد ترك أثرا قويا لديه سيان كان ذلك أثرا طيبا أو سيئا .. الخ .

المجال الخامس (العمل) : نسأله عن عمله الأول، طبيعته وماكان عليه، ومدى ماكان يشعر به من تعلق تجاهه. نطلب إليه الدافع الذى دفعه إلى هذا العمل، والفترة التى زاول خلالها هذا العمل، ثم نطلب إليه السبب فى تركه أو ارتحاله عنه. نستفسر منه عما إذا كان شغوفا بعمله الحالى وعما إذا كان راضيا عنه وسبب ذلك. نطلب إليه ما إن كان قانعا بأجره راضيا بمرتبه ، وما إن كانت علاقاته طيبة مع رؤسائه وزملائه ومرؤوسيه. نسأله عما يطمح إليه فى مجاله المهنى . هذا إلى الأسئلة الأخرى

التى نحاول بها الكشف عن موقف المريض تجاه ظروف حياته المهنية من مشاكل مادية وصراعات انفعالية وصدمات نفسية الخ ..

المجال السادس (مكان الإقامة) : نسأله عن تاريخ ارتحاله لأول مرة عن مكان ميلاده، وعن السبب الذى دعا إلى ذلك ثم نطلب إليه ما إن كان محل الإقامة الجديدة ينزل من نفسه منزلة الرضا . تتكرر الأسئلة بالنسبة إلى كل مكان أقام فيه . وعن علاقاته بالجيران من زملائه .. الخ .

المجال السابع (الحوادث والأمراض) : نتناول بالأسئلة كل حادث على حدة حتى نأتى عليه بالفحص منتهين إلى ظروف الحادث بالنسبة إلى الحالة النفسية التى كان عليها الشخص وقتها ، ففى ذلك ما يكشف لنا عن مدى استعداده السابق تجاه الحوادث من حيث هو استعداد يرجع إلى دافع لاشعورى. نسأل عما كانت عليه استجاباته، كما نسأله عما يراه من رأى تجاه العاهات، وماكانت عليه استجابته تجاه الختان، وفى أى عمر حدث وذلك لنتبين موقفه من (الخصاء) . نستعرض الأمراض التى نزلت به محاولين بذلك أن نبلغ إلى وصف دقيق لأعراض المرض واستجابات المريض النفسية تجاهه، فإذا ما بلغنا هذا الحد من الاستجواب اتخذنا من الأسئلة المنصبة على الأمراض الجنسية ما يعيننا كمعبر على الدخول إلى صميم الحقل الجنسى.

المجال الثامن (الحقل الجنسى) : ويعد هذا الميدان أصعب الميادين تناولا، وإن كان بوسعنا مع ذلك أن نبلغ بالمريض إلى أن يتحدث عنه فى حرية، بل وأن يشعر فى حديثه بكثير من الراحة والتخفف . ويكون هذا حين نوفق إلى تخطى هذه المسافة النفسية التى يشعر بأنها تعزله عنا وذلك بتحقيق جو من الثقة والقيم بعيدا عن الحياء المصطنع والاستطلاع الشغوف . ويمكن القول بأن الصعوبة التى يشتهر بها هذا الحقل الجنسى ترجع إلى اتجاه الكلينيكى وموقفه منه أكثر مما ترجع إلى مقاومة المريض وعناده .

ففيما يتصل بالرجل نسأله عما إن كان يشعر برغبة قوية تجاه النساء ، وعن الوقت الذى بدأ فيه حياته الجنسية، وفى ذلك مايدفعه إلى الحديث عن تجارب

المراهقة والفترة السابقة عليها. نسأله هل كان يشعر إبان الطفولة وبداية الصبا بالرغبة القوية فى استكشاف مجاهل الحياة الجنسية، ونطلب إليه ما إذا كان قد حدث له أن حضر مشهد اتصال جنسي . نسأله فيما نسأله عن الوقت الذى استطاع فيه أن يدرك لأول مرة وجود فارق بين الجنسين . ونطلب إليه ماكانت عليه استجابته تجاه ذلك ، نسأله عما كان عليه اعتقاده فيما يتصل بميلاد الأطفال .

نطلب إليه أن يحدد الوقت الذى بدأ فيه الاستنماء ولا ينبغى أن يتخذ السؤال صورة الاستفهام الحيادى بمعنى ما إن كان الشخص قد قام به أم... بل يكون سؤاله عن معدل ممارساته للاستنماء فى الأسبوع. نسأله بعد ذلك عن أحلام اليقظة التى كانت تصاحب عملية الاستنماء وتعين عليها. نسأله ما إن كان يستنمي الآن بين حين وآخر حين تسنح له الفرصة .

نسأله عن الوقت الذى باشر فيه العملية الجنسية لأول مرة وكيف حدث ذلك ؟ ومع من حدث ؟ نحاول أن نتبين ما إن كان الاتصال الجنسى الأول قد تم بفعل المبادأة الشخصية أو نتيجة لغواية الأصدقاء إلى آخر ذلك من الدوافع عن عاطفة أو مقابل أجر الخ . نسأله بعد ذلك عن نوع الأثر الذى خلقه فى نفسه هذا الاتصال الأول بمعنى أنه واصل اتصالاته أو توقف أو اقتصر على العلاقة العاطفية الخ .

ننتقل بالأسئلة إلى الاستفسار عن اتصالاته الجنسية الحالية. فنتبين معدل تكرارها ومدى تبدل موضوعاتها وما قد يكون من قذف باكر (أى أن الجماع لايستمر أكثر من خمس دقائق) أو تعذر أو استحالة النشوة. نسأله عن قوة انتصابه وما إن كانت تتعرض للانهيار عند الإيلاج أو بعده .. الخ. نسأله عن استجابته عقب الفعل الجنسى بمعنى أن يشعر بالنشوة والراحة أو التعب والتقزز.. الخ .

نطلب إليه بعد ذلك ما إن كان قد شعر بميل قوى إلى أن يعيش تجربة الحب، ونسأله عن أول مغامرة غرامية محاولين أن نتبين كيفية انبثاقها، وفترة استمرارها وطبيعتها ونهايتها. تكرر الأسئلة بالنسبة إلى كل مغامرة من مغامراته العاطفية .

ننتقل بعد ذلك إلى الزواج بالنسبة إلى الشخص المتزوج، فنسأله عن الكيفية التى تم بها اللقاء والتعارف مع زوجته، وعن الفترة التى قضاها فى مغازلتها . ونسأله

عما يعتقد أنه الدافع الذى دفع به إلى حبها ، وينبغى أن نلح عليه بهذه الأسئلة حتى ننتهى إلى الكشف عن الدافع الذى يكشف لنا بدوره عن الجوانب العميقة للشخص. وهناك فارق بين قوله بأنه قد أكره على ذلك. أو أنه كان ينبغي له أن يستقر ويجد الزوجة التى تستطيع أن تسهر على راحته وبين قوله بأنه كان يحبها من أعماق قلبه.. الخ .

نسأله عما إن كان يتشاجر كثيرا مع زوجته، ولاينبغى أن يتخذ السؤال صورة الاستفهام الساذج عما إن كان متفاهما مع زوجته. نطلب إليه ما إن كان لديه أطفال . فإن أجاب بالإيجاب استرسلنا معه فيما كان عليه الحمل والوضع، وما كانت عليه تنشئة كل منهم. فإن أجاب بالنفى طلبنا إليه سبب ذلك .

نسأله عما يراه في مدى تفاهمه الجنسى مع زوجته. نسأله بعد ذلك عما إن كان يحدث له أن يتصل جنسيا بين حين وآخر بغير زوجته، فإن أجاب بالإيجاب طلبنا إليه أن يتحدث عما يدفعه إلى ذلك. نسأله أخيرا عن رأيه فى النساء على وجه العموم.

أما فيما يتصل بالمرأة فمن المهم أن نسأل عن السن التى بدأت عندها دورة الطمث، وعما إن كانت قد هيئت لذلك من قبل أم أن الأمر كان بالنسبة إليها مفاجأة ومصدر ذعر . نسألها هل كانت على إلمام بالأمور الجنسية قبل أن يأتيها الحيض .

وينبغى علينا بعد ذلك أن نوجه إليها نفس الأسئلة التى توجه إلى الرجال فيما يتصل بالجنسية إبان الطفولة والصبا والمراهقة الخ . نطلب إليها ما إن كان لها كثرة من المعجبين والمحبين، وكم كان عمرها حين أحبت لأول مرة . ثم نوجه إليها نفس الأسئلة التى توجه إلى الرجال فيما يتصل بكل مغامرة من مغامراتها العاطفية. نسألها تبعا للحالة عما إن كان لها صديق فى الوقت الحاضر أو عن السبب الذى دفع بها إلى الزواج. نطلب إليها ماكانت عليه استجاباتها ليلة الزفاف ثم نستطرد موجهين إليها نفس الأسئلة التى توجه إلى الرجل فيما يتعلق بالحياة الزوجية والأطفال. نسألها ألم يدر بخاطرها قط أن من الجائز أنها كانت تكون أكثر سعادة مع رجل آخر . ونسألها بعد ذلك عما إن كانت قد حاولت تبين ذلك .

نختتم الأسئلة طالبين إليها ما تراه من رأى فى الرجال على وجه العموم.

المجال التاسع (العادات والمعتقدات) : نسأل المريض عما يفعله خارج ساعات العمل . نسأله عما إن كان له كثرة من الأصدقاء المقربين. وكيف يقضى الوقت معهم. وفي حالة أن يجيب المريض بأن ليس له من أصدقاء نسأله عن سبب ذلك. نسأله عما إن كان يؤمن بعقيدة من العقائد الدينية، وعن السبب الذى دفعه إلى اختيار هذه العقيدة أو استبدال أخرى بها إن كان هناك اختيار أو إبدال. كما نسأله عن مدى ممارسته لعقيدته . نطلب إليه ما إن كان الإسراف في الشراب لايضره. وينبغي علينا أن نعيد السؤال فيما يتصل بالتدخين وتعاطي المخدرات. نطلب إليه آراءه السياسية بعد أن نفهمه أن اهتمامنا لايتعدى مجال الحدود المهنية. نطلب إليه فلسفته في الحياة بمعنى المبادىء التي يهتدى بهديها في سلوكه ، وما إن كان يؤمن بالسحر، ورأيه في الاعتماد على الجهد أو الوساطة أو العلاقات الخ .

المجال العاشر (اتجاهه من أسرته) : نطلب إلى المريض أن يحدد الأفراد الذين يعيش معهم حاليا والسبب في وجودهم معه ، نسأله عما إن كان يعاني الكثير من المضايقات في بيته . ونسأله عن طبيعة العلاقة التي تربطه ببقية أفراد أسرته الخ. وما إن كان يتمنى أن ينفرد بحياته ويستقل بها أو يتمنى الزواج. بالنسبة إلى عائلته (الزوجية) عما إن كان يشعر بالندم على زواجه وما إن كان يتمنى لو أتيحت له زوجة أخرى أو يتمنى العودة إلى حياته الاستقلالية السابقة على الزواج الخ .

المجال الحادى عشر (اتجاهه من المرض الحالي) : نسأل المريض عما يعتقد أنه السبب الذى يمكن أن ينسب مرضه إليه . ونسأله عما يعتقد أنه السبيل لتحقيق شفائه. نطلب إليه ماينتوى فعله حين يتحقق له الشفاء . (الإجابة على هذا السؤال تتضمن على وجه الدقة ما لا يرغب المريض في أعماقه أن يفعله ويتشبث بمرضه كي يتجنبه) . نحاول أن نتبين المكاسب الثانوية التي يجنيها من مرضه سيان من أسرته أو معارفه أو الآخرين. فهذه المكاسب الثانوية تشكل أعتى دعامة لمقاومته للشفاء .

المجال الثاني عشر (الأحلام) : نسأل المريض عما إن كان ينام جيدا وعما إن كان يعاني الكابوس. نطلب إليه ما إن كان يحلم، ونلح عليه حتى يقدم إلينا على سبيل

المثـال بعض أحـلامـه. وعلى الخـصـوص الأحـلام التى تتكرر والأحـلام المزعـجـة (الكوابيس) وآخر أحلامه التى يذكرها . ثم نطلب إليه مستدعياته عن كل حلم من هذه الأحلام حتى نتمكن من الوصول إلى المحتوى الكامل أى إلى الرغبات العميقة التى تعبر عنها هذه الأحـلام . وهذا المجال وماتنطوى عليه من جنبات مهمة ينبغى أن تكون مستقرة بشكل واضح فى ذهن الكلينيكى بحيث يكيفها فى مرونة تبعا لفردية المفحوص. وليس للكلينيكى أن يستعين على أى نـحو بنسخة مكتوبة لهذه المجالات وجنباتها ، وذلك لأنه يحتـاج إلى كل يقظته وطاقته ليحسن الاستماع ويحسن إدارة الحديث ويحسن الملاحظة. فالمقابلة الكلينيكية ملاحظة مشاركة بكل معنى الكلمة مما يعنى أن الكلينيكى ينبغى أن يعيش الموقف ويشارك فيـه، وإن كان عليه فى الوقت نفسه أن يدير دفته وهو يصغى إلى كل شىء فى اهتمام ولاتفلت من ملاحظته أدق الحركات والسكنات .

الاختبارات الإسقاطية

في عام ١٩٤٠ استخدم فرانك مصطلح الإسقاط ليشير به إلى الاختبارات التي هي من قبيل التات الرورشاخ . وكلمة الإسقاط تشير في علم النفس إلى ثلاثة معان متميزة .

١ – فهناك الإسقاط من حيث هو ميكانزم دفاعي محدد في التحليل النفسي وينحصر في أن يلصق الفرد بغيره مشاعره الأليمة ودوافعه الغريزية المستهجنة. وهذا النمط من الدفاع القائم على طرد الأفكار غير المقبولة من الذات إلى العالم الخارجي إنما يجد أنموذجه الأصلي الأول في عملية بصق الفم للأشياء الكريهة . وميكانزم الإسقاط يعمل بصفة أساسية في الفوبيات (المخاوف المرضية)وفي البارانويا (هذيانات الاضطهاد والعظمة) ، ولكنه يعمل أيضا عند الأسوياء .

كان جوبلز وزير الدعاية أيام النازية الهتلرية يقول في اضطهاد الألمان اليهود بأن اليهودي (كرمز للأمور المستهجنة) يوجد فينا جميعا ولكن من الأفضل والأيسر أن نضربه خارج أنفسنا . وكذلك العانس التي تكبت رغبتها في الانطلاق الجنسي وتسقطها على الأخريات، فإنها تدرك الأخريات مسرفات في ابتذالهن الجنسي. والجندي في الحرب عندما يستشعر الخوف الذي لايليق برجل فإنه يكبت أحاسيس خوفه ويسقطها على أحد زملائه فيخيل إليه أن زميله يرتجف خوفا وقد أصفر وجهه كالموتى. وفي حالة المخاوف المرضية يسقط المريض مخاوفه الداخلية على شيء خارجي غير موضوع خوفه الأصلي فتكون بذلك الفوبيا .

فهانز الصغير كان يكره أباه ويخاف منه ولكن كل هذا انكبت لديه وأسقطه على الخيل فأصبح لايخاف من أبيه ولايكرهه بل يخاف من الخيل ويمقتها أشد المقت. وفي حالات البارانويا تكون البداية عشقا مثليا للفرد من نفس جنس المريض ثم ينقلب العشق إلى كراهية وتنكبت هذه الكراهية تمهيدا لإسقاطها على ذلك الزميل الذي كان في البداية موضع عشق المريض، عندئذ يخيل للمريض أن زميله يكرهه ويضطهده، وأن من حقه بالتالي أن يجيب على الاضطهاد بالاضطهاد وعلى الكراهية بالكراهية. وإذا

كان زميله يضطهده فما ذلك إلا حقد هذا الزميل على عظمته غير العادية. بذلك تستقر هذيانات الاضطهاد والعظمة عند مريض البارانويا . تلك أمثلة على ميكانزم الإسقاط عند الأسوياء وعند العصابيين وعند الزهانيين .

٢ – وهناك الإسقاط من حيث هو نتاج طبيعي للدينامية التي تحكم الإدراك ، فظاهرة الإدراك كأي ظاهرة نفسية هي انتظام ينتج كمحصلة لصراع كل القوى القائمة في الحقل ونعني العوامل الذاتية والقوى البيئية . ومعنى هذا أن المثيرات الخارجية ليس لها من حيث المبدأ نفس الانتظام أو نفس الدلالة بل يتحدد هذا الانتظام وتتحدد هذه الدلالة بالرجوع إلى شخصية الفرد القائم بالإدراك . ذلك ما أوضحته نظرية الجشطلت بتجاربها القاطعة على العوامل الذاتية والشروط الخارجية ومايمكن أن نرجع إليه في الترجمة العربية لكتاب جيوم ، علم النفس الجشطلت، ص ١٦٥ ومايليها .

فبعض المثيرات الخارجية تكون من القوة والوضوح بحيث لاتسمح بأي هامش لعمل العوامل الذاتية ، بينما يكون بعضها الآخر من عدم التحدد وعدم الوضوح بحيث يسمح بهامش فسيح لعمل العوامل الذاتية . فهذه منضدة وهذا كتاب ولا إمكانية للاختلاف على ذلك بين الأفراد، بينما يمكن أن يختلف الأمر تماما لو كانت الإضاءة تقترب من الإظلام أو كان الكتاب بين أشياء تحجب على نحو معين جانبا منه . ولكن مهما كانت الظروف فإن الإدراك يكون دائما محصلة الصراع بين الشروط الخارجية والعوامل الذاتية . وبقدر ما تكون الشروط الخارجية واضحة التحدد، يتضاءل الدور الذي تلعبه العوامل الذاتية، وعلى العكس من ذلك عندما تكون الشروط الخارجية غير واضحة التحدد فينفتح المجال فسيحا أمام فاعلية العوامل الذاتية في اضطلاعها بتحديد الانتظام (البنيان) وفي تحديد الدلالة . هنا تكون الكلمة الفاصلة لدوافع الشخص واتجاهاته . لرغباته ومخاوفه . فهذا الشيء الذي يسعى في ظلمة المساء يدركه العاشق وكأنه طيف المشيقة التي تسعى إليه، ويدركه اللص وكأنه طيف الشرطي الذي يتربص به ، وقد يدركه العاشق على أنه طيف المنافس الغاصب، وقد يدركه اللص على أنه صيد ثمين يسوقه القدر . فكل ذلك

وغيره يتوقف على الدوافع الغلابة في شخصية الفرد .

وهكذا فبقدر مايكون بنيان الموقف فقيرا في انتظامه غير محدد في دلالته تتدخل الشخصية بالقدر نفسه لتسبغ على المثيرات انتظامها ودلالتها، ذلك هو الأساس الذي تستند إليه الاختبارات الإسقاطية حين تقدم إلى الشخص مثيرات غير محددة الدلالة؛ فنطلب إليه أن يصفها أو يصنع منها قصة أو غير ذلك بما ينطوي على إدراك هذه المثيرات من خلال شخصيته . والفرد في إدراكه لهذه المثيرات إنما يسهم بشخصيته في تحديد دلالتها فيتيح لنا أن نمسك بالخصائص العميقة المميزة لشخصيته.

٣ - وهناك الإسقاط من حيث هو نتاج طبيعي للدينامية التي تحكم كل مسالك الفرد بغير استثناء. وهذا المعنى الثالث والأخير للإسقاط هو أكثر المعاني شمولا . فالإدراك ليس غير شكل من أشكال السلوك، والديناميــة التي تحكم الإدراك هي الدينامية التي تحكم السلوك، ومن هنا فإن الشخصية تترجم عن نفسها في كل سلوك من مسالكها، الأمر الذي يعبر عنه الفهم الشائع عندما يقرر بأن كل إناء ينضح بما فيه. فالشخص في انتقائه لملابسه وكتبه وصحفه وأنديته ومسارحه وأثاث منزله وأصدقائه.. الخ، إنما يكشف عن الخصائص المميزة لشخصيته. وإذا كان الإنسان يتكلم ببدنه بأعمق مما يتكلم بكلماته ، فإن مسالكه التعبيرية تمثل أدق وأصدق لغاته على الإطلاق (انظر الفيلسوف الفرنسي جان فال)، فتعبيرات الوجه المرئية وحركات البدن الإيمائية ونبرات الفرد الصوتية كلها تعبر عن الخصائص العميقة للشخصية. وإذا كانت التربية (التعلم) تمكن الفرد من أن يكذب بكلماته وتعبيراته المرئية فإن تعبيراته الصوتية غالبا ماتفلت من مقتضيات التزيف التي يفرضها التوائم الاجتماعي. ولكن إذا كان الشخص يتكلم ببدنه فينبغي ألا ننسى أنه يستطيع دائما أن يصدق أو يكذب، ولكن الحقيقة كثيرا ما تندس في أكاذيبه. فالمرأة التي تنطوي على عدوانية في أعماقها كثيرا ماتكون ملائكية في حديثها ونبرات صوتها؛ ناعمة في مصافحتها بحيث تسلم يدها لتنام في يد الآخر مما يرجع بالتأكيد إلى التكوينات المضادة كميكانزمات دفاعية .

نظرية جديدة في الإسقاط :

إن هذا التمييز الشائع بين أنواع ثلاثة من الإسقاط يبدو لنا أمرا مجافيا لأوليات العملية العلمية . فهذا التصنيف للإسقاط إلى أنواع ثلاثة إنما يستند إلى الأسلوب الأرسطالي الذي يقوم على تفكير الوقائع بلغة الفئات والأصناف، بعيدا عن «المجانسة» و «الشرطية». وفي مقدمة الطبعة الثانية من ترجمته لكتاب سيكولوجية الإشاعة(١) استطاع مخيمر أن يرينا أن ظاهرة الإشاعة ليست غير صورة من الصور التي ينتظم عليها الإدراك الجمعي عندما تكون المثيرات الخارجية غير واضحة التحدد والدلالة ومن ثم تفسح المجال عريضا أمام فاعلية العوامل الذاتية .

ونحن هنا نستند إلى عبارة جوته الشهيرة والتي تقدر بأن «ما هو في الداخل هو أيضا في الخارج» . فالدوافع العميقة للشخصية تلعب دائما دورها ضمن هامش الحرية الذي تتيحه لها الشروط الخارجية . ومعنى هذا أن عوامل الفرد الذاتية بكل نوعياتها الدفاعية أو غير الدفاعية تترجم عن نفسها – ما أمكن– في المسالك الخارجية، وهنا ينبغي أن نتنبه إلى أن الفرد الذي يحقق إشباعا هلوسيا لرغباته وآماله في القصص التي يبتدعها وفي الإدراكات التي يعيشها إنما يقوم على نحو ما بالدفاع عن كيانه. على نحو لايختلف عن دفاعه عن كيانه عندما يلصق مشاعره المستهجنة بالآخرين.

فالشخص الذي يتوهم تحقق آماله يدافع عن كيانه كالشخص الذي يتوهم تخلصه من آلامه في الحالة الأولى يتوهم لنفسه الخير والفضيلة وفي الحالة الثانية يتوهم لنفسه الخلو من الشر والرذيلة ، ويظل الهدف في الحالين واحدا في طبيعته الدفاعية .

مما سبق يكون بوسعنا أن نقرر أن ما هو في الداخل هو أيضا في الخارج سيان كان ذلك في صورة دفاعية أو غير دفاعية ، في صورة إدراكات أو مسالك خارجية، وفي «تناول جديد في تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية» أوضح مخيمر مستويات التمخرج لهذا الذي هو في الداخل بحيث يكون بوسعنا أن نمسك بتمخرجه في الأحلام، أو بتمخرجه في أحلام اليقظة والإدراكات وما إلى ذلك من ظواهر شعورية،

---

(١) الناشر سعيد رأفت سنة ١٩٧٩ .

أو فى تمخرجة فى اللعب والسيكودرامة وما إلى ذلك، أو فى تمخرجه فى المسالك التعبيرية وشتى الصور التى تتخذها المسالك الخارجية . فما هو فى الداخل أشبه مايكون بالحسناء التى تحرص على أن تستمر فتنتها أكثر فأكثر كلما أمعنت المضى فى طريقها إلى الخارج حيث تلتهمها عيون الآخرين. وهكذا أتقدم خطوة على الطريق التى بدأها مخيمر بمجانسته لظاهرة الإشاعة كصورة من الصور التى ينتظم عليها الإدراك. هنا أيضا «نعيد بناء» الوقائع من خلال تفكيرها بلغة السياقات واضعين فى اعتبارنا «المجانسة» و«الشرطية» فإذا الأصناف الثلاثة للإسقاط مجرد تشكيلة تباينات للصور التى تتجسد عليها العوامل الذاتية فى انتظامات الإدراكات والمسالك الخارجية . وهكذا يرتد الأمر كله إلى فينومينولوجيا الإدراك وديناميات الحقل .

لا استخدام لمنطق التواتر فى التأويل :

إن تأويل الاختبارات الإسقاطية على مختلف أنواعها ينبغى أن يكون تأويلا طليقا يستند إلى مفاهيم السيكودينامية والتحليل النفسى . فكل محاولة لتصنيف الإجابات وحساب تواترها (عدد مرات تكرارها) إنما تقحم على السياق الحى للإنسان بديناميته ووظيفته. منطقا غريبا عليه كل الغرابة ونقل منطق السيكومترية الذى يقوم على التواتر وذراتية وميكانيكية . يقول فرج أحمد فرج فى رسالته للماجستير عام ١٩٦٥ ص ٤٣ مايلى :

«والخلاصة .. هى أن أصحاب الموقف السيكومترى من الممارسين لاختبار تفهم الموضوع يحاولون نقل مفاهيمهم بموقفها النظرى الضمنى إلى اختبارات ترتبط بإطار نظرى متكامل ومغاير تماما للإطار النظرى الذى ظهرت داخله هذه المفاهيم. ومن هنا فإن المشكلة الرئيسة هى محاولة نقل مفاهيم القياس النفسى إلى الاختبارات الإسقاطية على الرغم من اختلاف طبيعة الموقف الفكرى النظرى لكل منهما. إن الاختبارات السيكومترية للتقليدية إنما تقوم على منطق الشعور، منطق العمليات الثانوية، وتستند فى صدقها إلى معيار التواتر، فى حين أن الأساليب الإسقاطية إنما تقوم على منطق العمليات الأولية والثانوية معا. ومن ثم فإننا إذا ما أردنا أن نقوم الاختبارات الإسقاطية كاختبارات سيكولوجية فإنه ينبغى أن تستمد معايير هذا التقويم من هذا المنطق الجديد أساسا . لا أن

نلجأ إلى معايير مستمدة من منطق الشعور وحده(١) .

يتضح ذلك مثلا عند النظر إلى بعض المسالك النمطية التى تعبر بتكرارها عن بعض الخصائص المميزة للشخصية فليس لنا فى مثل هذه الحالات أن نعمد إلى حساب التواتر طالما أن ذلك يبتعد بنا تماما عما ننشده من «فهم» للظواهر النفسية . صحيح أن أسلوب اللغة التى نتكلمها أو نكتبها يعبر عن شخصية الفرد. وذلك لأن الكلمات لاتعبر فحسب عن الأذكار والوقائع وإنما تعبر أيضا عن شخصية الشخص الذى يستخدمها، وليست الكلمات التى تلبسها الأفكار هى وحدها تعبر عن الشخصية، ولكن أيضا الملابس التى يلبسها الفرد تعبر هى الأخرى عن شخصيته. وكذلك الأصوات المنطوقة والخطوط المكتوبة . ويمكن القول بأن الكتابة المنتظمة كاللهجة الهادئة فى الكلام وكالألوان الوقورة فى الملابس والألفاظ المعتدلة فى التعبير عن الفكرة كلها تترجم عن اتزان صاحبها وسيطرته على ذاته بعيدا عن الطرفين القصويين ونعنى الكف بتردده وإحجامه من ناحية والاندفاعية من ناحية أخرى . كل هذا صحيح ولكن الذى ليس بصحيح هو الانتقال من دلالة هذا التواتر لبعض المسالك النمطية إلى حسابات تواترها ومحاولات تقنينها . فقد حاول البعض مثلا تقنين الكتابة بدراسة لسمك الحروف وطولها للانتهاء من هذا كله إلى جدول يكون أشبه شىء بمفتاح الشفرة بحيث تكون لبعض الرموز دلالات ثابتة بعينها . وهذا يذكرنا ولاشك بما كان سائدا فى تفسير الأحلام قبل ظهور التحليل النفسى بديناميته ووظيفيته . فحتى الرموز العامة فى الأحلام لاينبغى أن يكون تأويلها إلا بالرجوع إلى الوحدة الكلية الفريدة لشخصية المفحوص. ومن جديد مع نظرية الجشطلت وقانونها عن العضوية ينبغى أن نذكر أن الجزء هو ما هو عليه بالرجوع إلى الكل الذى ينتمى هذا الجزء إليه. فالجزء فى انعزال يختلف عنه ضمن كل، ويختلف عنه ضمن كل ثان، وهكذا تتحدد دلالة كل جزء بل يتحدد وجوده وتتحدد وظيفته بالرجوع إلى هذا الكل

---

(١) انظر الصفحة الأخيرة من الفصل الأول حيث يتضح بشكل قاطع ما يذهب إليه موراى من أن علم النفس ينبغى أن يكون علما بالحالة الفردية ، بعيدا عن التجريبية السيكومترية التى تقوم على التقدين والتواتر .

الذى ينتمى الجزء إليه . فالثعبان الذى يعتبر فى تفسير التحليل النفسى للأحلام من أكثر الرموز عمومية فى دلالتها على القضيب ، التقى به مخيمر كرمز للمهبل بحيث لاينزعج الحالم ويصحو مذعورا من نومه إلا عندما يفتح الثعبان فمه وكذلك الحال أيضا بالنسبة إلى الكلب فقد التقى به مخيمر كرمز للمهبل لا للقضيب، وهكذا يستحيل تفسير سلوك من المسالك مهما كان تواتره بدون الرجوع إلى الوحدة الكلية لشخصية صاحبه . وكل تثبيت للعلاقة بين سلوك أو رمز أو بين دلالة بعينها هو خروج على أبسط مقتضيات الدينامية والوظيفية .

فليس للمسالك ولا للرموز من دلالة ثابتة وإنما تتحدد دلالاتها بالرجوع إلى شخصية الفرد . ومن هنا انتهى «نوتكات» كما انتهى «موراى» إلى ما يفيد أن علم النفس لايمكن إلا أن يكون علما بالحالة الفردية . يقول «نوتكات» فى كتابه «سيكولوجية الشخصية(١)» بأن علم النفس العام يتحتم عليه أن يخلى السبيل أمام دراسة الحالة الفردية، إن كان لنا أن نبلغ من النتائج شيئا أكثر مما هو «تقريبى» . فالفردية تنتصب حقيقة عنيدة تذهب بكل قيمة للقوانين فى مجال النفس البشرية، وللمستويات الإحصائية التى تتمخض عنها التجريبية السيكومترية . فما جدوى ما يقول به «ميللر» من أن الإحباط يولد العدوانية، فذلك يصدق على البعض دون البعض الآخر. ولابد أمام هذه الحالة التى توجد هنا والآن من دراسة شاملة لنتبين ما إن كان الإحباط يولد لديها العدوانية أو ذروة النشوة الجنسية . فكل القوانين فى علم النفس هى مستويات إحصائية أكثر منها قوانين بمعنى الكلمة، ومن ثم تنتمى إلى علم نفس الجماعات أى إلى علم النفس الاجتماعى .

وخلاصة ما سبق أن الاختبارات الإسقاطية هى اختبارات ولكنها ليست بمقاييس مقننة على أى نحو . فالمعطيات التى نحصل عليها من الاختبار الإسقاطى إنما تتحدد قيمتها ودلالتها بالرجوع إلى الوحدة الكلية للشخصية، وتمكننا من أن نبلغ إلى «فهم» هذه الشخصية استنادا إلى مفاهيم السيكودينامية وذلك كله بعيدا عن المعايير الإحصائية التى تستند إليها المقاييس المقننة فى تحديدها لمكان المفحوص من الآخرين

---

(١) الترجمة العربية – مخيمر – الأنجلو .

بتجميع للنتائج الجزئية . فبينما تنطوي معطيات الاختبار الإسقاطي مباشرة على دلالتها فإن المقاييس (والاستبيانات وسلالم القياس .. الخ) لاتحفل بالدينامية وتنظر إلى الشخصية وكأنها مجرد حاصل جمع لبعض القدرات أو العناصر الأولية الأولى. وبعبارة أخرى فإن المقاييس المقننة تقوم على «الذراتية» والميكانيكية، وتتناول الإنسان كما تتناول علوم الطبيعة «أشياء» الطبيعة مما يمكننا من تصنيف الأفراد ومقارنتهم بعيدا عن كل محاولة لفهمهم. وصحيح أن الرورشاخ (بقع الحبر) يقوم بحسابات لإجابات الفرد الشائعة النادرة ولإجاباته الراجعة إلى اللون والشكل وتلك التي ترجع إلى الحركة مما يصل بنا إلى تحديد نمط الشخصية، ولكن هذه الحسابات هي مجرد وسائل يستعين بها الكلينيكي في فهمه بعيدا عن كل معنى للتقنين . فاختبار الرورشاخ لايتمخض عن تحديد مكان المفحوص بالنسبة إلى الآخرين ، بل يقدم عن المفحوص لوحة كلينيكية تشخيصية في بضعة أسطر . فعلى الرغم من عناية المشتغلين بالرورشاخ بالوسائل الكمية وبتحديد الدرجات فإنهم يأبون تماما ربط هذه الدرجات بأية دلالة ثابتة بعينها، على طريقة مفتاح الشفرة . ولولا رفضهما هنا لتوقف الرورشاخ عن أن يكون اختبارا إسقاطيا، ولأصبح مجرد مقياس مقنن وأداة سيكومترية.

وتلك هي الغلطة الكبرى التي يقع فيها بعض الجاهلين بالاختبارات الإسقاطية عندما يضعون الدرجات ويجمعونها على نحو ما يحدث أحيانا في اختبار ساكس لإكمال الجمل أو عند استخدام استمارة بيلاك لحساب تواتر الاستجابات في اختبار الإدراك الداخلي للموضوع (التات) ، وما إلى ذلك. إنهم بذلك يلغون الاختبار الإسقاطي من حيث هو كذلك ويخفضونه إلى مجرد مقياس مقنن وذلك لأنهم ينتقلون من منطق السيكودينامية إلى منطق التواتر .

ذلك هو الحال مثلا بالنسبة إلى كينت وروزانوف فيما يتصل باختيارهما لتداعي الكلمات عندما قاما بحساب مرات التكرار لكل إجابة من الإجابات ، وأصبح من الممكن مقارنة إجابات المفحوص بالقائمة الإحصائية المقننة التي قاما بإعدادها – وكانت العصابية في ذلك الوقت تقاس في أمريكا بميل المفحوص إلى إنتاج عدد كبير من الاستجابات الفردية والنادرة. وكذلك الحال عندما يكون على المفحوص أن ينتقي

إجابة من جملة إجابات معدة مسبقا مما يعرف بالاختيار المتعدد، ويعنى تعدد الفرص أمام اختيار المفحوص. فمثل هذه الاختبارات تقوم على التقنين ومنطق التواتر، فهى مقاييس مقننة لا صلة لها على الإطلاق بالاختبارات الإسقاطية التى تقوم أساسا على منطق السيكودينامية .

ويتضح هذا كله بشكل بارز عندما نتبين الأسباب التى دفعت إلى ظهور الاختبارات الإسقاطية. لماذا الاختبارات الإسقاطية؟ إن الإجابة على هذا السؤال تتضح بالإجابة على سؤال آخر فى مجال التحليل النفسى ونعنى الأسباب التى دفعت فرويد إلى ابتداع التداعى الطليق هذا الذى يسميه بالقاعدة الأساسية والذى يعتبر العمود الأول الذى يقوم عليه التحليل النفسى بينما يمثل الطرح العمود الثانى والأخير، كان التنويم المغناطيسى لا يصلح مع جميع الحالات وكانت نتائجه العلاجية غير حاسمة، وكان التنويم المغناطيسى يزيد من تباعية المريض بينما يستميل كل معنى للشفاء بغير زيادة للاستقلالية ، من هنا شرع فرويد يجرب طريقة الإيماء للمريض بعد أن يسترخى على أريكة ولكن ذهبت جهوده عبثا، فميكانزمات الدفاع تقف فى وجه المكبوتات تحول بينها وبين التسلل إلى الشعور . فما السبيل لجعلها تتسلل إلى الشعور اللهم إلا أن يكون خداع هذه الدفاعات استنادا إلى الحتمية النفسية . نطلب إلى المريض أن يتكلم بكل ما يخطر على ذهنه دون استبعاد لشىء أو انتقاء أو تفضيل لشىء . إنه بذلك يتخلى عن المعقولية ومنطق الشعور ليقوم بمجرد «الدش» كيفما اتفق . ولما كانت الظواهر النفسية تجهل الصدفة العشوائية، فإنما يبدو للمريض مجرد «دش» يخلو من كل علاقة ومعنى فى تتابعه ، إنما يرتبط أوثق الارتباط بالنسبة إلى أعماقه . بذلك يكشف لنا عن أعماقه دون أن يتنبه إلى أنه يفعل ذلك .

ذلك على وجه الدقة هو صميم ماتهدف إليه الاختبارات الإسقاطية. «يكشف عن أعماقه دون أن يتنبه إلى ذلك» فلو أن المفحوص قد تنبه إلى ذلك فلن يكون بوسعه أن يمنع نفسه من الدفاع. وقديما قال الفيلسوف «سبينوزا» بأن الإنسان هو أبعد الكائنات عن نفسه . فكل ما هو شعورى يتسم بالجزئية والتحيز بحيث تكون صورتنا الشعورية عن أنفسنا شيئا زائفا ولكننا نستطيع أن نرضى عنه . وهكذا فإن المفحوص

عندما لايدافع بشكل شعوري عن طريق الأكاذيب المقصودة فإن ميكانزماته الدفاعية تتولى ذلك بشكل لاشعوري غير مقصود. وفي الحالتين تكون النتيجة هي إجابات زائفة . ومن هنا كان ولابد من استخدام شيء شبيه بالتداعي الطليق في التحليل النفسي؛ وبحيث يكشف المفحوص عن أعماقه دون أن ينتبه إلى ذلك .

ومن هنا كان استخدام «عادة إثارة مبهمة» خاصية أساسية لكل الاختبارات الإسقاطية، سيان اقتصر الإيهام على الدلالة أو تخطى ذلك إلى الانتظام البنياني الشكل. ويترتب على هذا الإيهام أن تكون الاستجابات الممكنة لا نهائية في تنوعها وثرائها وبعيدة كل البعد عن مفاهيم الخطأ والصواب. إنها هي الأخرى مجرد «دش» كيفما اتفق. يتضح ذلك في إدراكنا لبقع الحبر الرورشاخ وفي تأليفنا لقصة من مشهد اللوحة في اختيار الإدراك الداخلي للموضوع (التات) وفي إكمالنا لبعض العبارات الناقصة وفي رسومنا الطليقة وفي لعبنا بالدومة وفي كل شيء نقوم به على مسرح الإبهام وعدم التعدد. وقد سبق أن رأينا بأنه كلما كانت عوامل الانتظام الخارجية قوية مستقرة واضحة، ضاق المجال أمام فاعلية العوامل الذاتية ، والعكس بالعكس. ومن هنا يتحتم على المثيرات في الاختبارات الإسقاطية أن تسمح بحيز من الإبهام وإساءة الفهم يفتح الباب عريضا أمام العوامل الذاتية لتعبر عن نفسها .

فالمقاييس المقننة بكل أشكالها وما يتصل بها من استبيانات وسلالم قياس تستجوب الشعور بل وتستجوبه بشكل عمودي مباشر يوقظ المقاومة ويحرك الدفاعات بحيث تختلط التحريفات الشعورية بالتحريفات اللاشعورية جاعلة من النتائج مجرد أكاذيب لا جدوى منها . وقد سبق أن رأينا أن المتعاطين للحشيش قد كشفوا في إجاباتهم على الاستبيان عن مستوى رفيع من الرضى عن ذاتهم وحياتهم بينما يسخر واقع حياتهم من هذه النتيجة طالما أن تعاطي الحشيش يستحيل بغير أرضية اكتئابية تصرخ بعدم رضى الفرد عن ذاته وحياته جميعا. ولكن ماحيلة المقاييس المقننة وهي لاتستطيع إلا أن تستجوب الشعور وبشكل عمودي مباشر وصريح . إن الإجابة عليها – شأنها شأن حديث المنجمين – تكذب وإن صدقت طالما أن الصدق الشعوري ينطوي بالضرورة على التحريف والتزييف لأن الشعور بطبيعته مجهلة، وإذا كان الأفراد

يأخذون حذرهم بشكل شعورى أو لا شعورى عندما توجه إليهم أسئلة مباشرة. وإذا كان شعورهم نفسه ينطوى على التحريف والتزييف ، فلم يعد بد من استخدام طرائق لاينتبهون معها إلى ماتستهدفه فتتعطل بذلك دفاعاتهم ويكون بوسعها فى الوقت نفسه أن تحرك أعماقهم العميقة بحيث تظهر فى استجابتهم . فأمام لوحة من لوحات التات يكون علينا أن نتبدع قصة بما تنطوى عليه من أحداث وتنتهى إليه من نهاية . وعالم النفس الكلينيكى المتمرس لايستطيع مع كل علمه ودرايته أن يتجنب الكشف عن أعماقه إن هو قام بابتداع القصة. فلاسبيل إلى الإفلات إلا بالامتناع عن الإجابة .

تأويل المعطيات الإسقاطية :

إن تأويل المعطيات الإسقاطية يتم فى الغالب بالرجوع إلى المضمون وكما هو الحال فى (التات) ولكن أحيانا مايتم بالرجوع إلى الشكل من قبيل أسلوب الإدراك كما هو الحال فى الرورشاخ . ومع ذلك فإن التأويل فى واقع الأمر يستند إلى المضمون والشكل جميعا. وإن تباينت أهمية الواحد والآخر فى كل حالة من الحالات، ففى حالة لوحات موراى التى تسمى (بالتات) ينصب الاهتمام على تحليل المضمون ولكن فى غير ما إغفال لأسلوب القصة وكلماتها وما تنطوى عليه من زلات للقلم وما إلى ذلك . وفى حالة الرورشاخ ينصب التأويل أساسا على أسلوب الفرد فى الإدراك بمعنى أن إدراك الفرد إن كان يغلب عليه إدراك البقعة كلها أو أجزاء كبيرة منها أو الأجزاء المسرفة فى الصغر وما إن كان يستند فى إدراكه هذا إلى شكل البقعة أو لونها وما إن كان يدركها كشىء ثابت أو متحرك الخ.. ولكن الرورشاخ لايغفل بحال مضمون الإجابة من حيث إنها تنصب على إنسان أو حيوان أو شىء من الأشياء .

ولكن إذا كان موراى فى تأويله لمضمون (التات) يعول على توحدات المفحوص مع أبطال قصصه ، فإن توميكنز يهتم بالكشف عن الاتجاهات النوعية للمفحوص إزاء النوعيات المختلفة من مواقف الحياة. وبدهى أن طريقة موراى تنفتح للكثير من العسر واللبس. فقد يتوحد المفحوص مع بطل من غير جنسه، وقد يتوحد جزئيا مع البطل الرئيس فى القصة وجزئيا مع بطل ثانوى. هذا إلى أن توحد المفحوص مع البطل يمكن أن يكون تعبيرا عن نفسه «كما هو» ويمكن أن يكون تعبيراً

تطلبت فترة طويلة من الدراية والممارسة ومن ثم فإنها لاتتيح بآليتها هذه مجالا لخبرة الكلينيكي وتمرسه. هذا إلى أن الرورشاخ يتيح لنا إلصاق بطاقة تشخيصه بالحالة التى نقوم على فحصها دون أن يمكننا كما يفعل التات من تبين الصورة الفريدة التى ينتظم عليها المرضى فى الحالة التى تعنينا. وبعبارة أخرى فإن الرورشاخ يتيح لنا التشخيص من حيث هو «مماثلة» بينما يمكننا التات من التشخيص فى معناه الحق ونعنى من حيث هو «مواءمة» . هذا إلى أن الكلينيكى لايستطيع أن يتخلى عن حريته فى تناول الوقائع ليحصر نفسه ضمن خطة ثابتة للتحليل على النحو الذى يحتمه الرورشاخ، وذلك حتى لايتعرض لخطر تجاهل تلك الوقائع التى لاتساير الخطة المرسومة سبقا. فالكلنيكية علاقة حرة وملاحظة مشاركة وبالتالى فإن كل تقييد لهذه الحرية بآليات ثابتة فى التأويل إنما يقضى على الطابع الصميمى للكلينيكية ويهبط بها إلى مستوى السيكومترية .

وفى تأويل الشكل لاينصب الاهتمام على المضمون التصورى لاستجابات المفحوص بل على أسلوبه الإدراكى لهذا المضمون وأسلوبه التعبيرى عن هذا المضمون. وبعبارة أخرى فإن الكلينيكى يهتم هنا بالطريقة النوعية التى تغلب على إدراك المفحوص وعلى أسلوبه فى التعبير عن مضامين بعينها بحسبانها ممثلة لجملة من المواقف المتكافئة الدلالة. فالتأويل هنا لاينصب على الاتجاهات النوعية من النوعيات المختلفة لمواقف الحياة بما ينطوى عليه ذلك من صراعات وتصورات نوعية بل ينصب على هذه الإرادة اللفظية التى تتبدى فيها صراعاته واتجاهاته وتصوراته وما قد يكون مصاحبا لذلك من حركات بدنية وتعبيرات صوتية . فانتقاء الشخص للألفاظ التى يستخدمها فى القصص التى يبتدعها عن لوحات «التات» وطريقة الشخص فى صياغة عباراته تكشف عن خصائص مهمة فى شخصيته وكذلك الحال بالنسبة إلى تماسك القصة أو ما يمكن أن نسميه «بالحبكة الروائية» ففى ذلك ما يشير إلى ارتفاع حظ المفحوص من الذكاء . هذا إلى أهمية التعبيرات التى تغلب على المفحوص كأن يكون ميالا إلى القول «يبدو لى» ، «يخيل لى» مما يعبر عن عدم ثقته ومما يختلف عن قوله «ليس من شك» . «من المؤكد أن» . «بدهى أن هذا» .. الخ. مما

يترجم عن ثقة زائدة بالنفس والتي تقترب من الاندفاعية بعيدا عن التروي. وكذلك الحال عندما يكون المفحوص ميالا في عباراته إلى استخدام مايكشف عن احتمالات مختلفة، «إما أن يكون كذا. وفي هذه الحالة الخ ، وإما أن يكون كذا وفي هذه الحالة.. الخ» ، ففي ذلك مايكشف عن تردد شديد يترجم عن ميل إلى التشكك يحملنا ولا شك على افتراض وجود عصاب قهري . وبالإضافة إلى هذا كله فإن زلات القلم والكلمات المشطوبة والنسيانات وما إلى ذلك تكون قاطعة في دلالتها . وخلاصة هذا كله أن التأويل لاينبغي بحال أن يغفل الشكل والأسلوب وما إلى ذلك من أردية وملابسات تتبدى فيها أفكار المضمون ومعانيه واتجاهاته .

وكذلك الحال بالنسبة إلى الرورشاخ. كانت تأويلاته في البداية تنصب أساساً على التشخيص الفارق لمختلف صور العصاب وذلك استناداً إلى دراسة العمليات الإدراكية، ولكن الاختبار يستخدم اليوم وبنفس الفاعلية على جميع الأفراد. ولكن الكلينيكي في استخدامه للرورشاخ يقوم بإتباع آليات تصل به إلى التشخيص دون أن يفهم سبباً لذلك. فرورشاخ قد وصل إلى ما وصل إليه من نتائج بعد عشر سنوات من العمل المضني ليستخلص في النهاية الخصائص المميزة لاستجابات الأسوياء وتلك المميزة لاستجابات الهستريين أو القهريين وما إلى ذلك. فاختبار الرورشاخ اختبار إمبيريقي يتيح لنا بآلياته أن نبلغ إلى التشخيص ولكن دون أن نفهم الأسباب التي تبرر مثل هذا التشخيص. كل ما هنالك أن تجريب الرورشاخ على مدى عشر سنوات قد كشف عن وجود هذه الخصائص المميزة في حالات كذا .. الخ. فاختبار الرورشاخ ينتمي إلى قوانين التواتر التي تسمح بالتنبؤ دون أن تسمح بالفهم، بينما ينتمي اختبار التات إلى القوانين الفهمية التي تسمح بالتنبؤ وبالفهم جميعا(١) . وثمة اتجاه حديث يميل إلى تأويل الرورشاخ استناداً إلى المضمون وبالرجوع إلى مفاهيم لتحليل النفس وذلك بدلا من اتباع الوسائل التقليدية للتأويل. وفي هذا الاتجاه الجديد ما قد يتيح الفهم بالإضافة إلى التنبؤ.

وإذا كانت الطرائق الإسقاطية عديدة تستحيل على الحصر فليس من الضروري

بحال أن نختار بينها. فبوسعنا أن نستخدم الاختبارات التى تنصب على تأويل المضمون جبنا إلى جنب مع الاختبارات التى تنصب على تأويل الشكل، وبوسعنا أن نستخدم فى هذه الحالة وتلك بعض الاختبارات التى تستند إلى منبهات سمعية وبعضها الآخر الذى يستند إلى منبهات بصرية، فغالبا ما تكمل هذه الاختبارات بعضها البعض بصورة مفيدة. بوسعنا أيضا أن نستخدم أسلوب إتمام القصص تبعا لنوعية الحالة. ففى انتقائه لبعض الأخصائيين الاجتماعيين للعمل مع العميان استخدم مخيمر مع بعض لوحات التات إتمام القصة التالية: الآن وقد فرغت من دهان بدنك بالدواء الجديد أصبحت رجلا خفيفا بحيث ترى الجميع بينما يستحيل على أحد أن يراك كيف تستفيد من هذه القدرة العجيبة؟ وغنى عن البيان هنا أن المفحوص يجد نفسه بذلك فى نفس الموقف الذى سيكون عليه مع العميان فهو يرى كل شئ منهم بينما لا يرى أحد من العميان شيئا منه. ومن هنا فإن إجابته تكشف عن مدى قوة أو ضعف وازعه الأخلاقى ومن ثم عن استعداداته الانتهازية والاستغلالية من الزاويتين الجنسية والعدوانية جميعا. وفى استخدام التات اللفظى مع العميان كثيرا ما نطلب إلى الواحد منهم فى النهاية أن يكتب لنا فى سطور ما يفعله لو أصبح مبصرا لأسبوع واحد. ومهما يكن الأمر من أمر فليست العبرة بجمع مادة كثيرة وإنما باستخلاص خير ما يمكن استخلاصه من المادة المتاحة لنا.

كلمات عن بعض الاختبارات الإسقاطية الشهيرة:

١ – اختبار تداعى الكلمات:

تعد هذه الطريقة أول طرقة إسقاطية استخدمها البحاث. وربما يرجع هذا إلى ما كان للارتباطات والنظرية الترابطية من أهمية فى علم نفس القرن التاسع عشر. ولقد قام يونج بمحاولة ليجعل من هذه الوسيلة طريقة منهجية تسمح بالكشف عن مواطن الصرع. وفى هذه الطريقة يطلب الكلينيكى إلى الشخص أن يجيب على الكلمة المقترحة بأول كلمة ترد إلى ذهنه، فيسجل الكلينيكى الإجابة وزمن الرجع وبعض

(١) انظر وحدة علم النفس – الترجمة العربية – مخيمر – الأنجلو – ص ٥٢ وما يليها.

الملاحظات المتصلة بالسلوك الإجمالي للشخص. ولكن هذه الطريقة لا تستخدم في الوقت الحاضر إلا نادراً، سيان في صورتها القديمة التي تستند إلى قوائم من الكلمات المعدة من قبل أو في صورتها الحديثة حيث تقود الكلمة المعطاة للمفحوص إلى كلمة يجيب بها فنقدمها إليه من جديد فتقود إلى كلمة جديدة وهكذا على نحو ما يحدث في تفسير الأحلام. فكلتا الطريقتين قليلة الفاعلية بالقياس إلى الطرائق الأخرى المتاحة.

ويخطئ البعض ولا شك حين يتوهم بساطة الظاهرة هنا، فتدخل ميكانزمات الدفاع والمقاومة في شتى صورها يبعد بها عن البساطة المزعومة، فحين تتلاحق الكلمات المقترحة بصورة سريعة يمكن للدفاعات أمام الكلمة المهمة أن تضطلع بتأجيل الاستجابة الحقيقية فيستجيب في التو بكلمة حيادية بينما يستجيب بعد كلمتين أو ثلاث كلمات، بالكلمة التي اضطلعت المقاومة بتأجيلها. ومعنى هذا أن الإجابة الحقة لا تظهر أمام كلمتها وإنما أمام كلمة أخرى من الكلمات التالية. وثمة صور أخرى للمقاومة منها أن يجيب الشخص بكلمة مرادفة أو باسم النوع الذي تدخل الكلمة تحته أو بتعبير من التعبيرات الثقافية الشائعة وما إلى ذلك من استجابات منطقية دفاعية. وهكذا تعتبر اختبارات تداعي الكلمات مساءلة تاريخية ليس غير.

٢ – اختبار إكمال الجمل وإتمام القصص:

نقوم في العادة بتقديم جملة ناقصة ونطلب إليه أن يقوم بإكمالها على النحو الذي نجده في اختبار ساكس. وعادة ما تشتمل الجملة على كلمة مهمة ضمن إطار موجه من قبيل: كنت أتمنى لو كان أبي ....، أشعر بالقلق عندما ...، يعتريني الشعور بالذنب إذا... الخ. وكذلك الحال بالنسبة إلى إتمام القصص عندما نقدم إلى المفحوص عبارة تصلح بداية للعديد من القصص وذلك من قبيل: وكانت الشمس على وشك الغروب عندما انطلق الزورق بي وهي تجلس إلى جانبي على صفحة النيل الهادئة ....، وأخيرا استطعت الحصول على العصا السحرية وأمسكت بها.... وهذه الاختبارات وخصوصا في صورة إتمام القصص لا تختلف في شئ عن اختبارات التات وإن كان أقل شمولا بالقياس إليه. إنها تفيد في الحصول على فكرة استطلاعية عن المفحوص بالإضافة إلى سهولة اندماجه فيها بحيث لا ينتبه إلى الطابع المصطنع لموقف

الاختبار. ومن الأفضل تطبيقها عن طريق الكتابة، ومن الممكن استخدامها بصورة جماعية ولكنها على أية حال تعد محدودة النتائج بالقياس إلى التات.

٣ – اختبار التوتوفون:

ابتدع سنكر عام ١٩٣٦ جهازا كالحاكى يخرج مقاطع صوتية إيقاعية مبهمة غير واضحة البنيان أو الدلالة. ولقد كان روزنزفايج أول من فكر في استخدام هذا الجهاز كاختبار إسقاطي، وذلك بأن يطلب إلى الشخص أن يحكى ما يسمعه. وحيث إن الشخص لا يسمع كلمات محددة المعاني وإنما مجرد مقاطع صوتية مبهمة فإنه يسقط شخصيته من خلال إدراكه السمعي. فما يفهمه الشخص أو ما يتوهم أنه سمعه ليس إلا ما يريد أن يسمعه بل وأحيانا ما يخشى أن يسمعه (انظر شهادة الشهود في سيكولوجية الإشاعة – الترجمة العربية – مخيمر – الناشر سعيد رأفت). وفي وسعنا أن نستخدم صورا صوتية مبهمة فتكون بمثابة لوحات صوتية من ال ت أ.ت ومن المنتظر أن يكون لمثل هذه الصور الصوتية أهمية كبرى في المستقبل وذلك لما هنالك من صلة وثيقة بين المجالين الصوتي والانفعالي.

وقد قامت بعض الإذاعات بعمل مسابقات تقوم على التأويل الصوتي بحيث تقدم لوحات صوتية وتطلب إلى المستمعين تحديد مايسمعونه، وكان مما يلفت الانتباه مثلا أن توزعت تأويلات المستمعين بالنسبة إلى أحد الأصوات ما بين تأويل الصوت على أنه صوت زجاجة الشمبانيا وهي تفتح، وتأويله إلى أنه صوت طلق ناري ينطلق من مسدس. ومن الحقائق المعروفة أن الأمهات عندما يتقدم بهن السن ويثقل سمعهن يسهل على الأبناء أن يتبينوا حقيقة ما يرغبن فيه ويخجلن من التصريح به، وذلك عندما يسمعن الكلمات التي ينطق بها الأبناء لا على النحو الذي هي عليه بل على النحو الذي يترجم عن رغباتهن. والنادرة الريفية المشهورة عن الأسرة الصماء تصور ذلك بشكل دقيق. فقد جلس الأب والأم والابنة يتناولون الطعام وهم يتحدثون، وقال الأب بأن المحصول في هذا العام يكون على ما يرام فأجابته الزوجة منذ متى أذهب معك لأنتقى قماش ملابسي؟ اشترى لي ما تريد كعادتك فأنت تحسن الاختيار، وعندئذ قامت الابنة بالتعليق. فقالت: ليس لي من خيار، زوجوني في بحرى أو قبلي كما ترون فالأمر لكم.

٤ – اختبار لوحات السحب:

ابتدع شتيرن هذا الاختبار ليتجنب بعض أوجه القصور التى يأخذها على الرورشاخ، من قبيل ذلك ما تتسم به بقع الرورشاخ من تناظر كامل وما يطبعها من حدود قاطعة مما لا يتفق فى رأيه مع ما ينبغى للاختبار الإسقاطى من بعد عن التحدد. ويرى مخيمر أن شتيرن على حق فيما يذهب إليه خاصة عندما ينصب تأويل الاختبار على المضمون. فبقدر ما يكون الاختبار غامضا غير محدد بعيدا عن المألوف، تزداد قدرته الإسقاطية. ومن هنا يخطئ البعض عندما يتوهم ضرورة تمصير لوحات التات بجعله مشاهدها مصرية. فالمصرى أمام صورة رجل غربى لا تكون دفاعاته على حذر بقدر ما تكون أمام صورة رجل مصرى يلبس نفس ملابسه بحيث يرى فيه نفسه ولكنه قهر التقنين بفرض نفسه على أوهام السيكومترين فلا يتصورون إمكانية للعلم بغير تقنين.

وفى اختبار لوحات السحب نقدم للمفحوص صورا لثلاث سحب ونطلب إليه وصف ما يراه فيها. ويميز شتيرن فى الإجابات بين ما هو منطقى نمطى وما هو حدسى وما هو ابتكارى. ولكن اختبار لوحات السحب نادرا ما يستخدم الآن بل نادرا ما يستعين المعالج النفسى بالاختبارات الإسقاطية طالما يستطيع فى المقابلة الشخصية وعن طريق الأحلام أن يبلغ إلى كل ما يريده من معطيات الأعماق.

٥ – اختبار اللوحات الأربع:

يعد هذا الاختبار الذى ابتدعه فان ليينب تمهيدا لاختبار موراى. تمثل إحدى اللوحات المكتب، وتمثل الثانية غرفة النوم، والثالثة جولة التنس، والرابعة رجلا وحيدا فى الطريق يستند إلى شئ. نطلب إلى المفحوص أن يبتدع قصة واحدة عن كل هذه اللوحات. وتشير اللوحات إلى أربعة مواقف اجتماعية محددة: الشخص عندما ينفرد بنفسه فى غرفة النوم، وحين يجد نفسه وحيدا فى الطريق، وحين يلعب الرياضة مع آخر، وحين يعمل مع آخر. وليس هنا ترتيب بعينه للوحات، أما التأويل فينصب أساسا على المضمون. ويستند الاختبار إلى افتراض قيام الشخص بالتوحد مع البطل، فيكشف بذلك عن مشكلات حياته الأساسية. وفى حالة ما يعجز المفحوص عن تأليف قصة

واحدة عن اللوحات الأربع، نطلب إليه أن يبتدع قصة لكل لوحة، فإذا ما فرغ من ذلك طلبنا إليه أن يقوم بالتأليف بين قصصه في قصة واحدة. وهذا الاختبار نادرا ما يستخدم اليوم لقصوره بالقياس إلى الثات.

٦ – اختبار الرورشاخ:

تتلخص فكرة الرورشاخ في استخدام بقع الحبر للكشف عن العمليات النفسية التي تميز شخصية الفرد الذي يقوم بإدراكها. ولقد كان تأويل البقع يستخدم في القديم للتنبؤ بالمستقبل مما نجد بعض مخالفاته في تأويل رواسب القهوة والزاج الأبيض (الشبه الزفرة). ولقد نبه بارتلت عام ١٩٠٦ إلى وجود صلة بين نوع الإجابة التي يقدمها الشخص وبين حياته العاطفية الخاصة.

ومن المعلوم أن رورشاخ قد انتهى إلى لوحاته العشر بعد عشرة أعوام من التجريب الأعمى. ويستند هذا الاختبار أساسا إلى تأويل الأساليب الإدراكية فلا يلعب تأويل المضمون إلا دورا ثانويا. وعلى الرغم مما يطبع هذا الاختبار من اهتمام بحساب الدرجات فإنه مع ذلك اختبار دينامي في صميمه، ينتهي بنا إلى لوحة كلينيكية تشخيصية.

تعتبر هذه الإجابات بمثابة عينة لطريقة الشخص في الاستجابة إزاء جملة من مواقف الحياة المختلفة. لقد كانت تأويلات رورشاخ كما قلنا تستهدف في البداية التشخيص الفارق لمختلف صور العصاب، فكان ينتهي إلى تشخيص نوع العصاب عند الفرد. ونظرا لأن لوحات الاختبار لا تتيح تدخل الدفاعات فقد وفق الرورشاخ إلى حد كبير في تحقيق ما كان يستهدفه.

ومن الصحيح أن رورشاخ قد نحا بتفكيره منحى أقرب إلى التنميمية منه إلى الدينامية. ولعل هذا يرجع إلى ما كان سائدا في ألمانيا من دراسات تنميطية تستهدف تصنيف الشخصيات في أنماط. فعلى سبيل المثال نجد أن تأويل الإجابات تأويلا يستند إلى المنطقة يساير النزعة الشائعة عند علماء الأنماط والتي ترى الإجابات الإجمالية التي تنصب على البقعة كلها ما يشير إلى الميل إلى التجريد والتعميم، بينما تفضيل الأجزاء يشير إلى النزعات العملية أما الإغراق في التفاصيل فيشير إلى عدم السوية.

وكذلك فكرة التقابل ما بين الشكل واللون فإنها من الأفكار الشائعة فى علم النفس الألمانى حيث يرتبط اللون بالانبساطية الاندفاعية والهستيرية بينما الشكل يرتبط بالجوانب العقلانية والقهرية. أما الإجابات التى تستند إلى الحركة (الكنيستيزيا) فتشير إلى ثراء الإمكانات الداخلية والاستعدادات الطبيعية الجوانية. ولكن مهما يكن من أمر هذه النظرات التنميطية والاعتماد على الأرقام والإحصاء، فإن الاختبار يستند فى أساسه إلى الدينامية بمعنى الأساليب الإدراكية التى يستجيب بها الشخص إزاء مواقف الحياة. ويتضح ذلك من أن الاختبار لا ينتهى إلى مجرد تحديد نمط للشخص ولا تحديد مكانه بالنسبة إلى الآخرين وإنما يقدم عنه لوحة كلينيكية تشخيصية.

وتتباين طريقة استخدام هذا الاختبار على الرغم من محاولات عديدة لتوحيدها إلى حد أن الرموز المستخدمة مازالت تختلف من بلد لآخر، فبينما يفضل البعض أن يستلقى الشخص أثناء إجابته نجد البعض الآخر يفضل أن يجلس الشخص فى مواجهته ويفضل البعض الثالث أن يكون إلى الوراء من الشخص ليستطيع النظر إلى اللوحة فى استبعاد للخجل أو الحرج. وتحرص الغالبية على استبعاد العوامل الدخيلة التى قد تؤثر على طبيعة الإجابات وذلك كالأصوات أو الإضاءة غير العادية، وأما قياس زمن الرجع فيتم بدقة بالنسبة إلى كل إجابة وكل لوحة.

أما صعوبة إفهام الشخص ما ينبغى أن يفعله تدفع البعض إلى التضحية باللوحة الأولى ليتخذها مثالا يشرح عليه. ولكن هذا يؤثر على التأويل فى تتابعه التلقائى الذى أراده له رورشاخ. ومن هنا فإن الغالبية تتبع طريقة كلوبفير فى التوضيح بعبارة كهذه: كثير من الناس يرى فى هذه البقعة كثرة من الأشياء فماذا ترى أنت؟. وينبغى أن يحرص الأخصائى على أن يتبع طريقة موحدة بعينها فى تقديم اللوحات إلى الشخص فلا يقدم الواحدة مثلا معدولة والأخرى مقلوبة وإن كان عليه أن يترك الحرية للشخص فى أن يغير من اتجاه اللوحة كما يشاء.

وثمة مشكلة تتصل بصعوبة تحديد الشكل بمعنى تحديد المنطقة التى ينصب عليها إدراك الشكل. فلو طلبنا إلى الشخص أن يحدد المنطقة فى نهاية كل لوحة فإن ذلك سيؤثر ولا شك على تتابع الإجابات. أما إذا طلبنا إليه ذلك فى نهاية الاختبار

فستتعرض تحديداته لتأثير الذاكرة والنسيان. ومع هذا فالغالبية تفضل اتباع هذا الحل الأخير. أما فيما يتصل بالأشكال الشائعة فإن البعض لا يتحرج من أن يوحي إلى الشخص بها حتى يتبين ما إن كان الشخص قد رآها وأحجم عن الإدلاء بها لتفاهتها وظهورها الواضح أو أنه حقا لم ينتبه إليها.

ويتم تسجيل الإجابات باستخدام الرموز. فلو أدرك الشخص البقة كلها في إجمالها سجلنا بالإنجليزية W أو بالفرنسية G ولو انصب إدراكه على جزء كبير سجلنا D. أما في حالة جزء تفصيلي أو قليل الأهمية فنسجل DD. وهذه الحالة الأخيرة يمكن أن تتخذ صوراً مختلفة فلو أدرك الشخص أرضية اللوحة على أنها الشكل سجلنا DD-BI إلى غير ذلك.

العوامل المحددة للإدراك:

ونعني الشكل والحركة واللون والتظليل.

(أ) **الشكل**: ويمكن أن يكون هو العامل الذي حدا بالشخص إلى أن يدرك ما أدركه. فحين تبدو البقعة مطابقة للإجابة «خفاش مثلا» نسجل F+. وحين تكون عكس ذلك نسجل F- وحين تكون بين بين نسجل F=. وازدياد نسبة الأشكال الحسنة F+ يترجم عن ارتفاع الإمكانات العقلية للشخص. والإجابة التي يقدمها الشخص إما أن تكون شائعة أو فريدة تتسم بالأصالة. ويتم ذلك بالرجوع إلى النتائج الإحصائية.

(ب) **الحركة**: فإذا رأى الشخص الشكل في حالة حركة سجلنا بالإضافة إلى ما سبق K «كنستزيا» ثم الرمز الخاص بالإنسان H أو الحيوان A أو الأشياء O تبعا للمضمون.

(جـ) **اللون**: وهنا نسجل مدى ما اضطلع به اللون في تحديد الإدراك الذي أدركه الشخص وذلك بالقياس إلى عامل الشكل. فلو انفرد اللون بتحديد الإدراك سجلنا C ولو تغلب اللون سجلنا CF ولو تغلب الشكل سجلنا FC وتعد الصلة بين اللون والحركة غاية في الأهمية.

فحسبما تكون هذه الصلة يتحدد ما يسمى نمط حياة الشخص.

(د) **التظليل**: وقد أضيفت بعد رورشاخ ويتصل بالفاتح والقاتم أي بتباين

الدرجات اللونية من الرمادية إلى الأسود.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ السلوك الإجمالى للشخص وما يصدر عنه من أمارات التعجب أو الصدمة أو الدهشة أو تعليقات أو استغراق نسبى فى الصمت أو رفض اللوحة. كذلك فإن عدد الإجابات التى يقدمها الشخص لها أهمية فى هذا الاختبار. فهى هى تتراوح عند الشخص العادى فى اللوحات كلها ما بين عشرين وثلاثين إجابة، وقد تنخفض إلى خمس عشرة، وقد ترتفع إلى السبعين. وتشير كثرة الإجابات عندما تكون حسنة إلى الذكاء والخيال، أما حين تكون كثيرة وفقيرة فغالبا ما تكون فى حالات الفصام، وزمن الرجوع عند الشخص العادى هو حوالى نصف دقيقة من الرؤية إلى الإجابة. وهناك نسبة شبه ثابتة تتوزع بينها الإجابات من حيث المنطقة عند الشخص العادى. ففى ثلاثين إجابة عادة ما نجد حوالى سبع إجابات تنصب على البقعة فى إجمالها أى G ونجد عشرين إجابة تنصب على الأجزاء D وثلاث إجابات على التفاصيل .DD وعادة ما تشير كثرة الإجابات من النوع الأخير إلى وجود القلق أو التأخر العقلى.

فإذا ما انتهينا من تسجيل الإجابات وإفراغها فى «البروتوكول» مستخدمين الرموز الإصلاحية، ومبينين العوامل المحددة، فإننا نشرع فى عملية التفسير وذلك بتعيين نمط الحياة عند الفرد. يتحدد هذا النمط تبعا للنسبة ما بين عدد الإجابات التى ترجع إلى عامل الحركة وعدد الإجابات التى ترجع إلى اللون. إذ تشير الأولى إلى حياة باطنية ثرية تتسم بالروية بينما تشير الثانية إلى الانفعالية التى تتسم بالاندفاعية. وهناك أربع نقاط:

(أ) **النمط المنبسط**: عندما تكون إجابات اللون أكثر من إجابات الحركة.

(ب) **والنمط الباطنى**: عندما تكون إجابات الحركة أكثر من إجابات اللون.

(جـ) **والنمط الفقير**: عندما تتساوى هذه الإجابات وتلك فى ضآلة عددها.

(د) **والنمط الثرى**: عندما تتساوى هذه الإجابات وتلك ولكن فى ثراء وكثرة.

واختبار الرورشاخ وإن لم يكن اختبار ذكاء إلا أنه يستطيع أن يقدم لنا صورة كلينيكية لا رقمية عن ذكاء الشخص. فالإجابات الإجمالية تكشف عن الذكاء النظرى

بينما تشير الجزئية إلى الذكاء العملي. هذا وتكشف الإجابات ذات الأشكال الحسنة F+، أي هذه التي تنطبق تماما على البقعة، عن ارتفاع الذكاء. كذلك يكشف عنه تواتر الترتيب لمناطق الإجابات، بمعنى أن يبدأ الشخص بإجابات إجمالية وينتقل إلى الجزئية وينتهي بالتفصيلية في كل لوحة، كذلك يكشف تعدد إجابات الحركة عن ارتفاع مستوى الذكاء عند الشخص.

وفي الحالات التي يقلب فيها الشخص اللوحة بصورة منتظمة بحيث يبدأ دائما بتأويل مناطقها السفلية فكثيرا ما يكشف ذلك عن ميول إلى الجنسية المثلية.

وحين تكثر التأويلات ذات الطابع العلمي أو المدرسي فمن المحتمل أن يكون ذلك من الشخص محاولة لدفع مشاعر النقص أو رغبة منه في الاستعراض.

أما الإجابات التشريحية الطابع فقد تصدر في حالة اهتمام الشخص بصحته. وينبغي أن ننتبه إلى أسلوب اللغة عند الشخص وما قد ينطوي عليه من تعبيرات التأكيد أو الشك أو التعجب أو التعليق في غير موضعه.

ومهما يكن من أمر فإن تطبيق هذا الاختبار على نحو مفيد إنما يتطلب أخصائيا قضى السنوات في تعلمه وممارسته. ولقد حاول البعض تبسيط هذا الاختبار باستخدامه كاختبار جمعي، فتظهر اللوحة على شاشة العرض بينما توزع على الأشخاص كراسات ذات رسوم تخطيطية يحددون عليها إجاباتهم. ولكن هذه المحاولة تكشفت عن قصورها.

وأخيرا نضيف بأن الرورشاخ يشتمل على عشر لوحات تشمل كل لوحة منها على بقعة من الحبر تتسم بالسيمترية، تماما كما يفعل الأطفال عندما يقومون بتطبيق ورقة إلى أربع بحيث تنطبع بقع الحبر المنثورة على ربع فيها على بقية الأرباع. وغالبية هذه البقع تتراوح ما بين الأبيض والأسود فيما عدا بعض اللوحات التي تشتمل على اللون الأحمر. وينبغي أن نذكر القارئ بأن الرورشاخ أداة تشخيصية فعالة إذا فهمنا من التشخيص مجرد إلصاق لافتة بالحالة، بينما يكشف الرورشاخ عن قصوره عندما نفهم التشخيص بمعناه الملئ الذي يحتم على الكلينيكي أن يبلغ الانتظام الفريد الذي يتجسد عليه المرض في هذه الحالة بالذات.

٧ - اختبار التات: (إدراك الثيمات)(١)

ابتدع موراى ومرجان هذا الاختبار عام ١٩٣٥ . وهو يتألف من ثلاثين لوحة تشتمل كل واحدة فى الغالب على منظر به شخص أو جملة أشخاص فى مواقف غير محددة مما يسمح بإدراكها على أنحاء مختلفة وبينها لوحة بيضاء. بعض هذه اللوحات خاص بجميع الذكور ويحمل الرمز BM«ص.ر»، وبعضها الآخر خاص بالذكور فيما فوق ١٤ سنة ويحمل الرمز M «ر» بينما بعضها الثالث بالذكور فيما تحت ١٤ سنة ويحمل الرمز B«ص». وهناك لوحات خاصة بجميع الإناث وتحمل الرمز GF «ب.أ»، بينما توجد لوحات خاصة بالإناث فوق ١٤ سنة وتحمل الرمز F«أ» ولوحات خاصة بالإناث تحت ١٤ سنة وتحمل الرمز G«ب». ويرى مخيمر عدم ضرورة الالتزام بهذه التحديدات، فكثيرا ما يتوحد الرجال ببطلات القصص وتتوحد النساء بأبطال القصص. فليست العبرة فى الذكورة والأنوثة بالأساس التشريحى بل بغلبة السادية أو المازوشية.

نطلب إلى الشخص أن يبتدع قصة عن منظر اللوحة ونفهمه أن القصة لابد وأن تنطوى على ماض نتبين منه ما حدث حتى أصبح الموقف على ما هو عليه الآن، كما لابد وأن تنطوى القصة على نهاية توضح ما ستنتهى إليه الأحداث. نعطى اللوحات العشرين على جلستين تستمر كل منهما ساعة ولا يحدد عادة وقت لكل لوحة. ولكننا نحاول عندما يقف الشخص عند مجرد وصف اللوحة أن نستثيره بأسئلة من قبيل كيف؟، و متى؟، و ما السبب؟، ثم ماذا؟ .. الخ. أما فيما يتصل باللوحة البيضاء فنطلب إلى الشخص أن يتخيل بنفسه المنظر ثم يبتدع بعد ذلك قصة عنه. وينبغى فى رأى مخيمر أن تكون الإجابة كتابة لما ينطوى عليه الشطب والخطأ والتصحيح من دلالة! كما يستحسن إن أمكن أن يعطى المفحوص لكل قصة العنوان الذى يراه. وقد سبق أن رأينا ما يشير به مخيمر من ضرورة تكيف الكلينيكى مع كل حالة وإن كان يفضل فى العادة أن تبدأ القصص باللوحتين (١١ ، ١٣) لتبين اتجاه المفحوص من العاطفية والإنسالية، ثم يأتى دور اللوحة (واحد) لتبين موقفه من الخصاء وبعد ذلك تأتى اللوحتان (٦) و (٧) تبعا لجنس المفحوص لتبين موقفه من الأوديبية، مما يعتبر

أساسيا لتفسير اللوحات السابقة واللاحقة. يكون بعد ذلك الانتقال إلى اللوحة (٨ ص ر) لتبين العدوانية، ثم يأتي دور اللوحتين (٩)،(١٢) تبعا لجنس المفحوص لتبين موقفه من الجنسية المثلية. وتبعا للحاجة يمكن أن ننتقل إلى اللوحتين (١١)،(١٨ ص.ر) لتبين موقف المفحوص من القلق ،ثم إلى اللوحة (١٢ ص،ب) لتبين موقفه من التفاؤل، وأخيرا تكون اللوحة (١٥) التي يمكن أن تحدد موقفه من التشاؤم.

وتبعا للحالة أيضا يمكن الاستعانة بطريقة إتمام القصص بحيث نعطي للمفحوص عبارة تنطوي على إطار موجه ويكون عليه بعد ذلك إتمام القصة. وقد استخدم مخيمر التات اللفظي مع العميان ثم مع المبصرين فكشف عن فاعلية لا تختلف بحال عما يمكن أن يكون عليه الأمر عند استخدام لوحات التات.

وينبغي تسجيل ملاحظات عن السلوك الإجمالي للشخص، وعن مناسبات التردد أو الصمت وعلامات الدهشة والتعليقات المختلفة. ويمكن بعد الانتهاء من الاختبار أن نستوضح الشخص ما نرى ضرورة استيضاحه من نقاط. ولا بد لفهم الإجابات وتشخيص الحالة من أن نطلب إلى الشخص الكثير من المعطيات عن تاريخ حياته. وينبغي أن ننظر إلى الإجابات وسلوك الشخص بحسبانهما وحدة كلية. وينبغي التنبه إلى أن التات اختبار كلينيكي بمعنى الكلمة يستند في تأويله إلى مفاهيم السيكوديناميه بعيدا كل البعد عن حساب التواترات التي تقوم عليه استمارة بيلاك. ومن هنا فإن تأويل قصص التات يحتاج في العادة إلى كلينيكي متمرس لا يشرع في التأويل إلا بعد أن يفرغ من تاريخ الحالة ومن قراءة لكل القصص التي كتبها المفحوص. فكثيرا ما تنطوي قصة لاحقة على مفتاح التأويل الدقيق لقصة سابقة، وكذلك الحال بالنسبة إلى معطيات تاريخ الحياة وما يتمخض عنه تفسير بعض أحلامه.

مرة أخرى ينبغي أن ننبه إلى ضرورة النظر إلى الإجابة في وحدتها الكلية وفي

---

(١) الثيما: تعني الموضوع المحوري الذي تدور حوله الأحداث. ومن هنا يحسن تسمية التات باختبار إدراك الثيمات. فتلك تسمية أدق من الإدراك الداخلي للموضوع ومن اختبار تفهم الموضوع.

صلتها بنوعية مجالات الإجابة. صحيح أن النهاية التى تغلب على قصص الشخص تشير إلى ما يغلب عليه من تفاؤل أو تشاؤم، ولكن ينبغى ألا نقع فى الخطأ الذى يتورط فيه البعض من أصحاب العقلية السيكومترية عندما يحاولون حساب متوسط التفاؤل أو التشاؤم. فليس لهذا الاتجاه أو ذاك من قيمة إلا بالنسبة لنوعية الموقف والمجالات التى يتكشف فيها.

وصحيح أن تأويل هذا الاختبار يستند أساساً كما رأينا إلى المضمون ومن هنا كان اهتمام موراى بالكشف عن التوحدات واهتمام تومكينز بتبين اتجاهات المفحوص النوعية من مجالات الحياة المختلفة. ولكن ليس معنى هذا أن نغفل تأويل الأسلوب أو الصياغة. فانتقاء الشخص لألفاظه وتكرار بعض التعبيرات وطريقته فى صياغة الجمل كلها تكشف عن خصائص مهمة فى شخصيته، على النحو الذى سبقت الإشارة إليه.

وإذا كنا قد رأينا من قبل قصور الرورشاخ بالنسبة إلى إمكانية التات فى البلوغ بنا إلى التشخيص بالمعنى الملئ للكلمة، فقد مضى مخيمر خطوة إلى الأمام بإشرافه على مجموعة من الرسائل التى تستهدف تبين مدى فاعلية التات فى تشخيص الأعصبة والأذهنة المختلفة(١) . ويمكن القول بأن اختبار التات هو أعظم الاختبارات الإسقاطية فاعلية واقتدارا على التشخيص شريطة أن يقوم بتأويله كلينيكى متمرس.

التات اللفظى

السلسلة الأولى:

١ – صبى صغير جالس أمام منضدة شعره متهدل على وجهه ورأسه مستندة إلى ذراعه وكوعه على المنضدة. توجد على المنضدة أمامه كمنجة وقوس. وتحت الكمنجة والقوس كراس موسيقى مفتوح. عينه اليمنى تكاد تكون مقفلة واليسرى مفتوحة نصف فتحة.

٢ – مشهد فى الريف. فى المستوى الأمامى وإلى اليسار امرأة شابة فى يدها كتب. يبدو أنها تتطلع بعيدا، وإلى اليمين تستند فلاحة إلى شجرة وفى المستوى الخلفى رجل عارى الصدر، يبدو وكأنه يعمل فى الحقل. ويرى

حصان. رأس الرجل ورأس الحصان ينظران إلى الخلف. وفي القاع بعض المنازل والتلال.

٣ – ص.ر – شخص صغير السن منحن إلى نفسه (أو على الأقل شخص مذكر صغير السن) يستند رأسه على ذراعه اليمنى، وهو منكفئ على سرير، لا يرى وجهه. وإلى يسار السرير وعلى الأرض يرى شئ لا يمكن تبينه بوضوح. من الممكن أن يكون مسدسا.

٣ – ب – أ باب مغلق وأمام الباب امرأة شابة. إنها واقفة ورأسها مائل إلى الأمام تغطي وجهها بيدها اليمنى. ويدها اليسرى تستند أفقية إلى الباب ورأسها مستند إلى هذه الذراع.

٤ – في المستوى الأمامي امرأة ورجل. تنظر المرأة إلى الرجل ولكن الرجل مشيح عنها بوجهه. قميصه مفتوح. المرأة تحتضنه بذراعيها ويدها اليسرى على كتفه الأيمن. وفي القاع يبدو شئ يشبه النافذة. وفي أقصى اليسار تبدو امرأة جالسة وساقها فوق الأخرى، ملابسها لا تكاد تسترها. نهداها واضحان تماما من وراء الملابس. وإلى أعلى مساحة بيضاء يمكن أن تكون ورقة مطبوعة.

---

(١) انظر رسالة الدكتوراة – محمد الطيب – كلية التربية – جامعة طنطا، رسالة الماجستير – على الخطيب – كلية التربية – جامعة طنطا، رسالة الماجستير – على أبو زيد – كلية التربية – جامعة المنصورة.

٥ – حجرة حديثة خافتة الإضاءة. منضدة عليها مصباح وإلى جانب المصباح إناء زهور. رف بالحائط عليه كتب. دولاب غير مرتفع عليه بعض الكتب، وإلى اليسار باب مفتوح. امرأة متوسطة العمر يبدو أنها قد فتحت لتوها الباب ويدها ما تزال ممسكة بمقبضه. إنها تميل قليلا إلى الأمام تنظر داخل الحجرة.

٦ – ص.ر – امرأة متقدمة بعض الشئ فى السن رمادية الشعر فى حجرة. إنها واقفة على مقربة من النافذة تنظر خلالها ونظراتها مثبتة إلى بعيد. يقف وراءها رجل أصغر منها سنا ورأسه تجاهك. إنه يرتدى معطفا ويمسك قبعته المتدلية إلى أسفل، وهو ينظر إلى بعيد.

٦ – ب.أ – امرأة صغيرة السن نسبيا جالسة فى ركن أريكة وأمامها منضدة. تلتفت برأسها إلى رجل خلفها وإلى يسارها. والرجل منحن نحوها. يبدو أنها تتكئ بيدها اليسرى على ظهر الأريكة. فى فم الرجل بيبة ونظراته مركزة على المرأة.

٧ – ص.ر – رجل متقدم نسبيا فى السن رمادى الشعر وشاربه رمادى اللون يخفض رأسه ناظرا إلى رجل أصغر منه سنا ومحملق إلى بعيد.

٧ – ب.أ – امرأة متوسطة العمر جالسة على أريكة. وعلى مقربة منها بنت صغيرة جالسة فيما يبدو فوق ظهر مقعد وثير قريب من الأريكة – الذراع الأيمن للمرأة مستند إلى المنضدة. وفى يدها كتاب تنظر فيه ويبدو أنها تقرأه للبنت. ولكن نظرات البنت تبعد عن المرأة محملقة إلى بعيد. والبنت ممسكة بدمية فى يديها.

٨ – ص.ر – إلى اليمين فى المستوى الأمامى رجل شاب يتجه بنظره إليك. وعن يساره بندقية تظهر منها الماسورة. وفى القاع رجل على نقالة وصدره عار. وخلف هذا يقف رجلان يمسك أحدهما بآلة فى يده، ويبدو كأنه يجرى عملية للرجل الملقى على النقالة. وإلى جانبه رجل يبدو وكأنه ينظر إليه. وما من شئ يظهر بصورة واضحة.

٨ – ب.أ – امرأة شابة جالسة على مقعد وتستند بكوعها إلى ظهر المقعد وذقنها مستندة إلى ذراعها الأيمن وتنظر إلى بعيد.

٩ – ص.ر – ثلاثة رجال يرقدون على الحشيش يبدو أنهم نائمون وعلى رؤوسهم قبعاتهم. يستند أحدهم برأسه فيما يبدو إلى جسم الآخر، وأمامهم على الحشيش يجلس رجل رابع لا يرى غير ظهره.

٩ – ب.أ – جذع شجرة – تقف أمامه امرأة شابة في ثوب المساء وعلى ما يبدو ترفع الجونلة وكأنها تجرى مبتعدة. ومن وراء الشجرة تنظرة امرأة ثانية شابة ممسكة بكتاب أو كراسة في يدها اليسرى وشئ يمكن أن يكون حقيبة أو غير ذلك.

١٠ – ظلان غير محددين يبدو أنهما لرجل وامرأة فلا يرى في الحقيقة غير الرأسين ويبدو أن أحدهما يسند رأسه إلى كتف الآخر ويلمس بيده الكتف الثاني. وكلا الشخصين مغلق العينين.

السلسلة الثانية:

١١ – منظر يشبه حكاية الجنيات. صخور وأشجار. كل شئ قاتم غير واضح. ووسط الأرض الصخرية يوجد طريق ضيق وفي القاع صخرة أو حائط – ومن الصخرة حيوان خرافي يمد رأسه وصدره. ويوجد حيوان مماثل في مستوى الأرض.

١٢ – ر – رجل شاب ممدد على أريكة عيناه مقفلتان. رجل آخر واقف على مقربة من الأريكة وركبته مستندة إلى حافة الأريكة. إنه مائل قليلا على الشخص الراقد وذراعه اليمنى ممتدة قليلا بحيث تبدو يده على مسافة ما من رأس الشخص الراقد وكأنه ينومه مغناطيسيا.

١٢ – أ – في المستوى الأمامي ظل لامرأة شابة رأسها إليك نظراتها غير محددة تحملق إلى بعيد – وخلفها امرأة متقدمة نسبيا في السن وحول رأسها إيشارب ويدها اليمنى أمام فمها. يبدو وجهها غير مستريح بعض الشئ. تشيح بنظرها عن المرأة الشابة.

١٢ – ص.ب – منظر طبيعي. في المستوى الأمامي شجرة مزهرة. خلف ذلك أشجار أخرى والأرض مغطاة بالحشائش. يبدو أنه توجد بحيرة أو جدول ماء وإن لم يكن ذلك من المؤكد. وعلى الأرض قارب بغير مجاديف. ليس هناك وجه بشري.

١٣ – ر.أ – إنها ممدة فوق سرير أو أريكة. إنها امرأة أو بالأحرى جسم امرأة. الصدر عاري النهدين وذراعها اليمنى تتدلى من فوق حافة السرير. ربما تكون جثة يقف أمامها رجل ووجهه في اتجاهك وذراعه اليسرى تتدلى إلى جانب جسمه وذراعه اليمنى تخفي وجهه. وفي الركن الأيمن منضدة عليها كتابان ومصباح، وخلف المنضدة مقعد.

١٣ – ص – كوخ خشبي. الباب مفتوح. صبي صغير جالس على عتبة الباب وكوعاه على ركبتيه ورأسه مستندة إلى يديه.

١٣ – ب – يبدو المنظر وكأنه سلم حلزوني. بنت صغيرة تمسك بحاجز السلم وهي تصعد.

١٤ – كل شئ مظلم غير أن نافذة تبرز في هذه الظلمة. وعلى حافة النافذة يجلس شخص يمسك بيده اليمنى إطار النافذة.

١٥ – منظر يغلب عليه الطابع الهندسي. أشكال يبدو أنها شواهد قبور وصلبان. في الوسط وفي المستوى الأمامي وجه رجل نحيل وغائر الخدين. ذراعاه متصلبان إلى أسفل ويده على الأخرى.

١٦ – صورة بيضاء. يتحتم على الشخص أن يبتدع المنظر قبل أن يبتدع عنه قصة.

١٧ – ص.ر – حائط (أو جانب من الحائط) يتدلى أمامه حبل، ويتعلق بهذا الحبل رجل عار يصعد أو يهبط على الحبل.

١٧ – ب – أ – منظر يغلب عليه الطابع الهندسي ولا يسهل تبين التفاصيل بصفة أكيدة. ليس من شك في أن هناك كوبري فوق مجرى مائي. وعلى الكوبري امرأة في وضع يوحي بأنها راكبة دراجة. فالدراجة غير ظاهرة.

وتحت الكوبرى منزل عند حافة الماء ومركب. عدد من الأشخاص المحملين بالزكائب فى طريقهم من المركب إلى المنزل. وأمام المنزل رجل وكأنه يشرف عليهم. الكوبرى وراءه منزل آخر أو كوخ. وفى أعلى المنظر قرص قاتم تنبعث منه أشعة.

١٨ – ص.ر – قاع مظلم – وفى المستوى الأمامى رجل معطفه وسترته مفتوحتان ورأسه ملتفت إلى اليمين بحيث يظهر الرأس جانبيا. عيناه مقفلتان، نرى ثلاثة أيد الواحدة فوق ذراعه اليمنى والثانية فوق كتفه والثالثة فوق ذراعه اليسرى.

١٨ – ب.أ – سلم يستند إليه شخص، يصعب تبين ما إن كان رجلا أو امرأة وأمام هذا الشخص امرأة تحيطه بذراعيها (وفى الحقيقة لا نرى غير اليد اليسرى والإبهام مستند إلى السلم).

١٩ – منظر يغلب عليه الطابع الهندسى. ويصعب أن نتبين ما يمثله. ومن الممكن أن تكون سحبا أو كتلا من الجليد، فى المستوى الأمامى شئ يمكن أن يكون كوخا.

٢٠ – فانوس يستند إليه شخص ولا نستطيع أن نتبين ما إن كان رجلا أو امرأة. فالوجه غارق فى الظلمة. بعض الأشجار تظهر من خلف الشجيرات. ما من شئ واضح ومتميز.

ملاحظة:

يشير الحرف (ص) إلى أن لوحة خاصة بالصبية، والحرف (ر) إلى أنها خاصة بالرجال، والحرف (ب) إلى البنات، والحرف (أ) إلى الإناث.

في الهفوات والأفعال الإعراضية والأحلام

١ – الهفوات والأفعال الإعراضية:

لا صدفة ولا عشوائية بل حتمية نفسية.

تشتمل الهفوات والأفعال الإعراضية على:

(أ) زلات اللسان والقلم.

(ب) أخطاء القراءة وأخطاء السمع.

(جـ) النسيان المؤقت لأسماء الأشخاص والأعلام والنسيان المؤقت للوعود والأعمال التى كان من المفروض تنفيذها.

(د) الإضاعة الوقتية لشئ من الأشياء، وبعض التصرفات غير الموفقة التى تنم فى ظاهرها عن عدم المهارة.

وتسمى هذه الظواهر بالهفوات لأنها تنطوى على هفوة غير مقصودة من الناحية الشعورية، ويسمى بعضها الآخر بالأفعال الإعراضية حيث تكون هناك أفعال غير مقصودة أيضا من الناحية الشعورية ولكن لها دلالة الأعراض المرضية من حيث إنها تمثل محصلة للرغبة المكبوتة أو المقموعة ولدفاعات الأنا وعادة ما تعتبر الهفوات والأفعال الإعراضية شأنها شأن الأحلام بمثابة طريق سلطانى يتيح لنا إطلالة على أعماق الفرد اللاشعورية.

والتحليل النفسى لا ينكر دور العوامل التى يعتبرها الفهم الشائع مسئولة عن هذه الظواهر، كالتعب الشديد وشرود الذهن والتهيج الانفعالى والخواص الصوتية للألفاظ وما إلى ذلك، ولكنه يعتبرها مجرد عوامل مساعدة تتيح للحفزات المكبوتة أو المقموعة أن تفلت من هيمنة الرقابة. والتحليل النفسى فى ذلك لا يختلف فى الواقع عن حدس النساء والفهم الشعبى الشائع. فأين الحبيبة التى تغفر لحبيبها وهى ناعسة بين أحضانه أن يزل لسانه فيتحدث إليها على أنها فتاة أخرى، بل أين الخطيبة التى تغفر لخطيبها بحجة انشغاله بالعمل أن ينسى موعد اللقاء بينهما.

وأين النساء اللائى لا يتشاءمن عندما تفقد الخطيبة خاتم خطبتها.. وأين.. وأين.. الخ.

كل هذا الذى أتى به التحليل النفسى ليس بجديد على الناس. فعندما يرتبك الشخص لسبب أو آخر فى مناقشاته العنيفة كثيرا ما يزل لسانه فينطلق بنفس ما يحاول أن ينكره بالألفاظ. هنا تنطلق ألسنة الناس بعبارات من هذا القبيل: والنبى تسمع نفسك .. أنت مش عارف تكدب .. هو أنت اللى قايلها واللا أنا .. كلمة الحق طلعت وكفاية لماضة. والمرأة عندما ينسى خطيبها موعد اللقاء بينهما، غالبا ما ينطلق لسانها بعبارات من هذا القبيل: طبعا إحنا قدمنا وبقينا مش على البال .. اللى واخد عقلك يتهنى به .. جاييبنى تعمل بى إيه، روح لها وخليك صريح .. الخ وفى هذا كله ما يشير إلى الفهم الشعبى لدلالة الهفوات والأفعال الإعراضية.

ومنذ وقت طويل لاحظ الفيلسوف شوبنهاور أن التجار الذين يخطئون فى جمع المبيعات غالبا ما يخطئون لصالحهم على الرغم مما يتسمون به من صلاح وتقوى، مما يرجع إلى رغبتهم اللاشعورية فى الثراء السريع. وكل ما أضافه التحليل النفسى على مثل هذه الحقيقة ينحصر فى أن التاجر يمكن أن يخطئ فى جمع المبيعات لحساب الزبون وذلك عندما تكون لديه أحاسيس ذنب لا شعورية تدفعه إلى عقوبة الذات أو عندما يكون الزبون يلقى كل إعجاب فى أعماق التاجر بحيث ترغب هذه الأعماق فى تقديم كل المشتريات بل وأكثر منها هدية للزبون الساحر الحسن. وفى هذه الحالة الأخيرة يعطى التاجر للزبون المشتريات التى طلبها وبقية عشرة جنيهات مع أن الورقة التى دفعها الزبون جنيه واحد.

يذهب التحليل النفسى الآن نشاط الآنا فى مثل هذه الحالات إنما يختل بتأثير دوافع عميقة وقوية لدى الشخص. وهذه الدوافع يمكن أن تكون شعورية أو قبل – شعورية يتعرف عليها الشخص بسهولة، كما يمكن أيضا أن تكون لا شعورية لا تقبلها الأنا وترفضها بكل شدة. وعادة ما يدخل تفسير الهفوات والأفعال الإعراضية بصورة مستمرة فى العلاج بالتحليل النفسى، جنبا إلى جنب مع تفسير الأحلام والمستدعيات الطليقة للمريض فى تتابعها على النحو الذى تتابعت عليه. ففى حالة مريض كان بشكل لا شعورى يحتال بحيث يستجلب لنفسه المصائب والكوارث وكل أشكال المعاناة، قال فى الجلسة الأولى: أنا والله عايز أموت وأستريح .. أقصد أعيش وأستريح. زلة

لسان لم يكن يقصدها ولكنها تؤكد بشكل قاطع رغبته العميقة فى أن يستريح بالموت .... من أحاسيس ذنب لا شعورية تملأ عليه بالتأكيد كل أعماقه. ولا يقتصر الأمر على الدوافع العميقة والمكبوتة بل يتخطاها إلى الدوافع العارضة وغير المكبوتة مما يظهر فى كل نشاطات حياتنا اليومية. طالبة شديدة التدين تحرص على صيام الإثنين والخميس من كل أسبوع. كانت صائمة وهى تقوم بترجمة نص من الإنجليزية إلى العربية واعترضتها الكلمة الإنجليزية Tacitly فسارعت إلى القاموس العصرى لإلياس. وبعد لحظات كانت تقرأ المعانى العربية المكتوبة ضمنا بسكوت. ولكنها قرأت الكلمة الأخيرة بفتح الباء وتسكين السين مما يعنى باسكوت مما يعبر عن رغبتها القوية فى الإفطار على الرغم من صيامها.وقد كان من المفروض عليها بالنظر إلى الكلمة الأولى ضمنا أن تقرأ الكلمة الثانية بكسر الباء وضم السين مما يعنى دون تصريح لفظى.

وفى حالة أخرى كانت المحللة النفسية تشرح لمريضتها كيف أن أعراضه المرضية (من عجز جنسى يعوقه عن الزواج من خطيبته ومن تصرفات غريبة ترغم زملاءه فى العمل على كراهيته، ورؤساءه على عقوبته) إنما هى محاولات للتفكير بعقوبة الذات عن أحاسيس الذنب العاتية والتى نشأت فى الطفولة. واستمرت أثناء الصبا والمراهقة والشباب نتيجة لاتصالاته الجنسية بشقيقاته، ولكن المريض فى مقاومته راح يرفض فى عنف وعصابية تفسير المحللة وقال لها كيف يكون ذلك وكل أعراضى المرضية ومتاعبى قد ظهرت بعد ذلك. أقصد قبل ذلك. وزلة اللسان هنا قاطعة فى دلالتها، فأعماقه تعترف بما تحاول كلاماته الشعورية أن تنكره بحيث يتاح له أن يستمر فى علاقاته المحارمية التى بدأها منذ طفولته.

مثال آخر، ولكن الدافع فيه غير عميق وغير مكبوت. كانت الزوجة قد دعت إلى العشاء زوجة زميل من زملاء زوجها لتحضر هى وزوجها إلى العشاء. ولم يكن الزوج يستريح إلى هذه المبادرة التى قامت بها زوجته لما كان يشاع عن هذا الزميل من أنه عميل مخابرات يتجسس على زملائه – ولكن أفلت الزمام واجتمع الكل على العشاء. وفى لحظات من الدعابة والمرح راح كل واحد من الحاضرين يقول أفضل ما

يحبه من كلمات الأغانى المصرية. وجاء دور الزوج صاحب البيت وعبثا يحاول أن يتذكر شيئا من ثورة الشك التى يفضلها على كل الأغانى بل عبثا حاول أن يتذكر عنوان الأغنية. وكان من الضرورى أن يقول شيئا ولكنه لم يجد فى رأسه إلا تلك الكلمات من إحدى الإغنيات لكوكب الشرق والتى استولت بشكل قهرى على رأسه منذ بداية الحفل إلى نهايته. وكانت الكلمات من فيلم سلامة: خلينا بعيد ... بعيد أسلم.

والأمثلة كثيرة تعج بها الحياة اليومية لكل الناس. فكثيرا ما تدخل الطالبات إلى أستاذهن يسألن أو يستوضحن شيئا من الأشياء. ويحدث أحيانا أن تخرج الواحدة منهن وقد نسيت بعض أشيائها على مكتب أستاذها لتعود بعد قليل أو كثير تسترد ما نسيت. وهناك فارق هائل فى الدلالة بين أن تنسى الطالبة براية أقلامها أو تنسى حقيبتها أو قلمها الذى كانت تكتب به، ففى كل حالة تختلف الدلالة. فهذه التى تنسى قلمها تكشف عن اتجاهاتها الذكرية، بينما تكشف التى تنسى حقيبتها عن اتجاهاتها الأنثوية، أما التى تنسى براية أقلامها فإنها تكشف عن أنثوية عدوانية خاصية، وما أكثر ما تقوله التصرفات البسيطة والأقوال التافهة، ولكن لمن يستطيع أن يفهم.

مثال آخر – يرينا أن ما من شئ يرجع إلى الصدفة أو العشوائية.. سيدة فى الثلاثين من عمرها متزوجة ولديها أطفال وتبدو سعيدة فى حياتها. تتسم شخصيتها بالدماثة والإخلاص وبالعطاء الكريم الذى يبلغ حد الشهامة، ومن هنا وعلى غير العادة بين النساء لها صديقتان منذ الطفولة دائما على اللقاء بها ويبادلانها أعظم الحب والإخلاص. كانت هذه السيدة كلما خلت بنفسها إلى مكتبها تتسلى برسم بعض الخطوط. وكان الرسم لا يخرج أبدا عن أمرين. أحيانا ترسم نجمة سداسية وفى أحيان أخرى ترسم فرع شجرة غير كبير ثم تتسلى بأن تملأ بقية الصفحة كلها بأوراق الفرع الصغير. ولم تكن تدرى سببا لذلك، فالأمر مجرد تسلية وتضييع وقت، ولكن لماذا ترسم هذين الرسمين؟.

كانت طالبة فى الدراسات العليا عند مخيمر فسعت إليه بعد ما كان شرحه للحتمية النفسية تسأله عن دلالة هذين الرسمين اللذين لا تخرج عنهما أبدا كما لا تمل من رسمهما. وسألها كيف ترسمين النجمة السداسية فأجابت بأن هذا أمر بسيط. إنها

ترسم مثلثا قاعدته إلى أعلى ثم ترسم فوقه مثلثا آخر قاعدته إلى أسفل فتكون النجمة السداسية. ولما كانت الدلالة الرمزية للمثلث شيئا واضحا فقد اتضح أن هذا الرسم إنما يعبر عن جنسيتها المثلية القوية، فهى تصبو إلى الاتصال الجنسى بامرأة أخرى. ولكن ما عساه أن يكون الدور الذى تفضله فى ممارستها المشتهاة للجنسية المثلية؟ أتراها تفضل الإيجابية بحيث تلعب دور الرجل أم السلبية بحيث تلعب دور المرأة؟

كانت الإجابة على هذا السؤال فى الرسم الثانى الذى يفرض نفسه عليها ولكن يستحسن هنا أن نشير إلى فيلم أجنبى شهير عرفته القاهرة منذ عشر سنوات وكان يسمى المرأة الثعلب.

قصة الفيلم عن امرأة تقدم بها السن إلى الأربعين وترفض الزواج على أى نحو ولكنها تعيش فى مزرعة تقوم على إدارتها مع فتاة فى العشرين تحظى بكل الحب. وفى وسط المزرعة تقريبا ينتصب ساق شجرة كبيرة لا هى مورقة بالغصون والأوراق ولا هى عديمة الحياة، لم يكن هناك ما يكدر صفو الحياة المشتركة فى هذه المزرعة غير ثعلب ماكر يدأب على سرقة الدجاج وما من سبيل إلى قتله أو تفاديه. وتمضى الأيام وتتعرف الشابة اليافعة على شاب جندى وتقوى الصلة بينهما ويعلم ما يزعجها من أمر الثعلب فيجاهد بكل قوته حتى يبلغ إلى قتله. عندئذ تولع الفتاة الشابة ببطلها الجندى الشاب وتكثر اللقاءات بينهما ويتفقان على الزواج. كان ذلك بمثابة أعظم كارثة يمكن أن تنزل بالعانس صاحبة المزرعة. ودون أن يفهم أحد سبباً لذلك يسقط ساق الشجرة الكبيرة متداعيا على الأرض وتنتهى بذلك قصة الفيلم. فما دور هذه الشجرة التى لم تكن لا هى بالمورقة ولا هى بالميتة؟ وما معنى تداعيها واقعة على الأرض حتى نهاية هذه القصة؟.

من البدهيات المعروفة فى التحليل النفسى أن البنت فى نموها النفس - جنسى تبدأ بالجنسية المثلية قبل أن تنتقل إلى الجنسية الغيرية .. ومن هنا ولع المراهقات بعضهن ببعض أو بمدرسة من مدرساتهن. والجنسية المثلية تعنى نوعا من تثبيت الطاقة الليبيدية على البظر الذى هو بالنسبة لكل بنت قضيبها الصغير. وعندما يكتب للبنت أن تنتقل من المثلية إلى الغيرية، تسقط الليبيدية عن بظرها إلى مهبلها فتكتمل

بذلك أنثوتها. وليس من العسير أن نفهم أن قيمنا الثقافية تشدد على بناتنا اليافعات الصغيرات فى تحذيرهن من ألاعيب الرجل وخداعه حتى يظفر منها بما يريد فيلوذ بالهرب فتصوير الرجل بالثعلب تصوير دقيق بالنسبة إلى الفتيات اليافعات، خاصة وأن الدجاجة شأنها شأن القطة رمز شائع ومألوف للمهبل. ولكن نعود إلى ساق الشجرة الكبيرة التى لم تكن بالمورقة ولا بالميتة. لم تكن هذه الساق فى الفيلم غير تعبير رمزى عن البظر المشحون بالطاقة الليبيدية والذى ما يزال حيا وإن ظل قاصرا على أن يزهر ويثمر. فقضيب الرجل وحده هو الذى يستطيع الإنجاب. كانت الجنسية المثلية عند صاحبة المزرعة التى تقدم بها السن ظاهرة تخطت أوانها ومن ثم تنتمى إلى اللاسوية، بينما كانت عند الشابة اليافعة ما تزال تعيش أوهام اليافعات ورعبهن من خداع الرجل الثعلب ليظفر بالدجاجة ويلوذ بالهرب، ولكنها تعرفت على الجندى فشفاها من أوهامها، وحصل على ثقتها ومن ثم لم تعد الأنوثة إليها خطرا يهدد قيمة ذاتها. عندئذ تحولت الطاقة الليبيدية من البظر إلى المهبل واكتملت أنوثتها. وبذلك غدا بظرها بغير حياة أو قل تداعى ساق الشجرة ميتا على الأرض.

يسهل علينا الآن أن نتبين دلالة ذلك الرسم القهرى الآخر الذى ينحصر فى رسم فرع شجرة ثم القيام بعد ذلك بتغطية الصفحة كلها بأوراق لهذا الفرع. إنها كانت بذلك تعبر عن رغبتها فى أن يورق قضيبها الأنثوى الصغير. كانت فى رسمها القهرى الأول تعبر عن رغبتها فى الاتصال الجنسى المثلى ومن هنا كانت لا تتوقف عن وضع مثلثها مقلوبا فوق مثلث الأخرى وهى تتوهم أنها ترسم نجمة سداسية ربما تكون لها صلة بإسرائيل. ولكن لماذا قطعنا بأنها تتصور مثلثها هى فوق مثلث الأخرى بدلا من أن نفترض عكس ذلك؟ بكل بساطة لأنها تعبر فى رسمها القهرى الثانى عن نزعة ذكرية قاطعة فهى تريد لبظرها ونعنى قضيبها الأنثوى الصغير أن يقتدر كقضيب الرجل على الإنجاب ومن ثم يورق ويزدهر ويملأ صفحة الحياة كلها بالبنين والبنات. وهكذا فإن هذين الرسمين القهريين يسمحان لنا بأن نقطع بوجود جنسية مثلية إيجابية عند هذه السيدة، مما يعنى رفضها القاطع لأنوثتها. وليس يعنينا فى المنهج الكلينيكى أن تكون هذه السيدة أنثى من الناحية التشريحية تستمتع بدرجة عالية من الجمال وأنها

زوجة وأم لعديد من الأولاد. فالمنهج الكلينيكى هو علم نفس الأعماق.

وبعد هذه الأسئلة عن الهفوات والأفعال الإعراضية يكون بوسعنا أن نتحدث عن الأساس النظرى لهذه الظاهرة. فنسيان أسماء الأشخاص مع عدم تذكرها بالمرة أو تذكرها على نحو خاطئ يشير إلى وجود دوافع خاصة تسببت فى كبت هذا الاسم، كما يشير أيضا إلى وجود صلة معينة مع الاسم الخاص الذى احتل مكانه. وقد يتم نسيان الاسم حينما يكون هناك شبه أو صلة بين الاسم وبين واقعة كريهة اضطر لشخص من قبل دفعها خارج الشعور أى إلى كبتها كل شئ يبدو وكأن المضمون المكبوت فى اللاشعور يجذب نحوه كل عنصر مشابه له (أو يرتبط به على نحو آخر) يدخل إلى الشعور ومن ثم كان يهدد باجتذاب المكبوت إلى السطح. ومن هنا يكون احتمال نسيان الأسماء الشبيهة أو المرتبطة بالاسم الكريه الذى عانى الكبت. فكثيرا ما ينسى الإنسان اسم رواية أو بطلة أو بعض فقرات من قصيدة لأنها تشير إلى وقائع كريهة تتصل بحياته واضطر شعوره فى الماضى إلى أن يتحول عنها أى يكبتها. وفى هذا ما يفسر شكاية البعض من ضعف الذاكرة عندهم. وفى بعض الحالات يرجع النسيان إلى رقابة تتصل بالموقف الخارجى لا إلى دوافع الشخص المكبوتة، كما يحدث حين ننسى نادرة من النوادر لأن سردها لو تم قد يجرح شعور أحد الحاضرين أو قد يسبب للراوى أخطارا ممكنة، مما يتضح فى نسيان النكات السياسية أمام شخصيات مسئولة أو «عميلة» من الزملاء.

وكذلك الحال بالنسبة إلى المقاصد والنيات والمشاريع والمواعيد التى ينساها الشخص فيغفل عن الوفاء بها. وقد أشار فرويد بصفة خاصة إلى أخطاء الروشتة وخطورة علاج الطبيب لأقاربه ومعارفه. وكذلك بعض الأعراض الإعراضية التى تبدو فى ظاهرها مجرد صدفة أو انعداما للمهارة بينما تكون فى الواقع نوعا من المهارة اللاشعورية تتيح لبعض الدوافع الخفية أن تعبر عن نفسها. إن المهارة اللاشعورية التى تضع نفسها فى خدمة الدوافع اللاشعورية تذكرنا بما يأتيه النائم الماشى من أفعال. وعليه فعدم المهارة البدنية هو فى الواقع مهارة لا شعورية فى استخدام عدم المهارة الظاهرة للوصول إلى الغرض، كمن يرتبك على رصيف ضيق

يزدحم بالناس عندما تكون هناك فتاة قادمة في مواجهته بحيث ينتهي على الرغم منه إلى أن يصطدم بها ويعتذر. ومن ذلك أيضا حالة الشخص الذي يعد عن حرج بإعارة كتاب أو تأدية خدمة أو زيارة أو الذهاب إلى موعد فينسى أو يتأخر أو يضل الطريق. كذلك الحال حين يقطع الإنسان إصبعه عن خطأ أثناء استخدامه للسكين، أو حين تنطلق رصاصة عن غير قصد فتقتل آخر. فالتحليل يكشف دائما في مثل هذه الحالات عن رغبة في عقوبة الذات أو عن عدوانية اتجاه الآخر أو عن الأمرين معا. وكذلك أيضا حالة العمال الذين تنزل بهم حوادث العمل المرة بعد المرة مما يعرف باستهداف الحوادث أو عصاب القدر. وخلاصة القول أن هناك حتمية نفسية تحكم جميع مظاهر السلوك التي تبدو وكأنها عشوائية، مجرد صدفة غير مقصودة ولا ترتبط بدوافع معينة.

وتفسير هذا كله ينحصر في الانتباه من حيث هو ضرب من الرقابة يحول في الحالات العادية دون خروج أية كلمة أو أي تصرف لا يكون ملائما للموقف، ولكن عندما يضعف هذا الانتباه لسبب أو آخر تنطلق الدوافع الكامنة فتعبر عن نفسها بالقول أو بالفعل رغما عن صاحبها. ومن هنا يصطنع رجال الشرطة والمخابرات كل الوسائل لإضعاف الرقابة باستخدام المخدرات أو التخدير أو الإجهاد المضني كالاستجواب بعد الحرمان من النوم لفترة طويلة وما إلى ذلك من وسائل. ومعنى هذا أن وقائع التجارب الحية تنتظم داخل الفرد كما عاشها، ولكن متطلبات الحياة الاجتماعية والواقع يفرضان عليه ألا يكشف من نفسه عن كل شئ بل هو يعرف منها القدر الذي يراه مناسبا في الظروف التي يراها مناسبة وفي الصورة التي يراها مناسبة. ومن هنا كان دور الرقابة في صورة كبت أو قمع حتى لا تفلت بعض الوقائع الكريهة أو الخطرة أو المحرجة. فإذا ضعفت الرقابة أو غفلت، فذلك غياب القط الذي يتيح لفئران الدوافع الكامنة أن تنطلق لاهية على مسرح التحقق الخارجي.

٢ – الأحلام :

الأحلام هي الطريق السلطاني إلى أعماق النفس البشرية. فعندما نعاشر شخصا من الناس سنوات طويلة لا نستطيع أن نفهم منه أكثر مما يفهم عن نفسه طالما أن كل

المعارف الشعورية جزئية ومتحيزة، بينما تكفينا بضعة أحلام لنتعرف بدقة على أعماقه.

ولكن كيما نفهم الحلم ينبغى أن نتبين وظيفته، هذه التى لا تتضح إلا بفهمنا للنوم. وفهم الحلم لا يختلف فى الواقع عن فهم الهفوات والأفعال الإعراضية المرضية. فالفكرة الأساسية تنحصر فى أن الأنا تهيمن على مسرح الشعور وتفرض رقابة دفاعية على جميع المواد النفسية التي يمكن أن تدخل إلى نطاق الشعور أو التى يمكن أن تخرج منه إلى حيز التعبير والتحقق الخارجي. فالحفزات الغريزية التى تنطلق من منطقة الهى وتبلغ ما قبل الشعور، تنظر الأنا فى أمرها بالرجوع إلى الأنا العليا، فإن رأت صلاحيتها مسايرة لقيم الأنا العليا أتاحت لها أن تدخل إلى الشعور بل وأن تخرج منه إلى حيز التنفيذ الفعلى. أما إذا رأت الأنا عدم ملاءمة هذه الحفزات الغريزية، على ميكانزمات الأنا الدفاعية أن تضربها وأن تعيدها من حيث أتت وأن تقف فى وجهها لتحول بينها وبين أى محاولة أخرى للتسلل. ذلك هو الكبت فى صورته الأولية، ولكن إذا تسللت الحفزات إلى الشعور قبل أن تلحق بها الدفاعات فتعيدها من حيث أتت وتسد عليها كل طريق فذلك هو الكبت الثانوى. ويمكن للأنا أن تسمح للحفزة الغريزية بالبلوغ إلى الشعور دون أن تسمح لها بأية صورة من صور التعبير الخارجي ألفاظا كانت أو أفعالا وذلك ما يسمى بالقمع. فإذا ما ضعفت رقابة الأنا لسبب من الأسباب كان بوسع الحفزات الغريزية مكبوتة كانت أو مقموعة أن تستغل الفرصة وتنطلق فى صورة هفوات أو أفعال إعراضية أثناء اليقظة أو فى صورة أحلام أثناء النوم.

ولكن ما هو النوم ؟

كل سلوك له دوافع، والنوم من حيث هو سلوك دافعه الحاجة إلى الراحة. ومن هنا فإن النوم الهادئ يمثل أقصى صورة لخفض التوتر عند الكائن الحى، مما يرجع إلى أن النوم موت صغير. وفى هذا بالطبع ما يؤكد ما ذهب إليه مخيمر من أن خفض التوتر ينتمى إلى غرائز الموت بينما يكون اشتهاء الاستثارة (التوتر) هو المبدأ التفسيرى لغرائز الحياة. ومن الناحية النشوئية يعتبر النوم بمثابة عودة وقتية إلى رحم الأم، الأمر الذى يتضح من الظروف التى نحصل عليها والأوضاع التى نتخذها أثناء النوم. فنحن

نحرص على درجة من الدفء والظلام وانعدام المثيرات وتتخذ أبداننا من الأوضاع ما يقترب بها من وضع الجنين في الرحم. كل شئ يبدو وكأن الأنا أشبه شئ بذلك الحيوان الذى يعيش فى القوقعة والذى يعود مع التعب أو الإجهاد أو الخوف داخلا إلى قوقعته.

فدلالة النوم هى العزوف عن الواقع مما يعنى أن النوم يمثل بالضرورة حالة تكون الأنا فيها ضعيفة نسبيا لأن الأنا هى المختصة بالواقع والتكيف مع الواقع. وبلغة أخرى فإن النوم يمثل حالة تكون فيها الحاجة إلى الراحة أقوى بالقياس إلى الحاجات الأخرى جميعا. ولكن هذا الضعف النسبى للأنا أثناء النوم يعنى بالضرورة تقوية نسبية أثناء النوم للجهازين الآخرين وهما الهى ، الأنا العليا . والهى كما نعلم تشتمل– بالإضافة إلى الحفزات الجنسية والعدوانية– على كل الحفزات الغريزية التى لم تقبلها الأنا ومن ثم عانت الكبت. وهذه المكبوتات تميل دائما إلى العودة إلى نطاق الشعور ولكن دفاعات الأنا تقف في وجهها وتحول بينها وبين ذلك. غير أن هذه الدفاعات أو الرقابة تكون أثناء النوم (ضعف الأنا) أكثر تساهلا، لأن الحفزات المكبوتة لو خرجت فلن تنتقل إلى حيز الفعل، طالما أن النائم يشبه سيارة ينعزل فيها المحرك عن العجلات، مما يعنى أن الأفكار التى تدور فى المحرك تكون معزولة عن التعبير الحركى والسلوك الخارجى فى صورة الفعل.

ولكن ليس معنى هذا التساهل من جانب ميكانزمات الدفاع أن تخرج الحفزات المكبوتة عارية صريحة إلى حيز الشعور دون ما تنكر فلابد من أن يأتى السلوك الحلم محصلة تتيح شيئا من الإشباع للحاجات المكبوتة وشيئا من الإشباع لحاجة دفاعات الأنا إلى الأمن. ومن هنا يكون الحلم إشباعا هلوسيا (إدراكات بغير موضوع) للحفزات المكبوتة ولكن على نحو من التنكر، بحيث لا تنتبه الأنا عند اليقظة إلى أن إشباعا قد تحقق للحفزة المكبوتة. ومعنى هذا أن الحلم هو تعبير عن الحفزات المكبوتة في براقعها التنكرية. أما إذا كانت الحفزات شعورية (مقموعة أو غير مقموعة) ولم يكتب لها الواقع الإشباع فإنها لا تستثير مقاومة من الأنا وبالتالى يمكن أن تحصل فى الحلم على الإشباع بصورة صريحة مباشرة دون حاجة إلى تنكر، مما يسمى بالأحلام الشفافة أو

بالأحلام من نمط أحلام الأطفال. ومثل هذه الأحلام الأخيرة لا تنطوى على قيمة بالنسبة إلينا طالما أنها تعبر عن حفزات شعورية يعرفها صاحبها ويعيها فى يقظته.

وعليه فتحقق النوم معناه التغلب النسبى للحاجة إلى الراحة على ما عداها من حاجات أخرى، أما اضطراب النوم فمعناه على العكس تغلب الحاجات الأخرى على الحاجة إلى الراحة. ومعنى هذا أن النوم الذى لا يحقق الراحة وكذلك الأرق يرجعان إلى تغلب الحاجات الأخرى وضغطها من حيث هى توترات مزعجة.

(أ) فبعض حالات اضطراب النوم ترجع إلى انفعالات حالية من قبيل الهموم الشعورية الشديدة. (من قبيل الغضب الشديد أو التهيج الجنسى أو الحزن البالغ أو الفرح المسرف أو حتى التوقع لأحداث سارة أو محزنة).

(ب) وبعض حالات اضطراب النوم ترجع إلى انفعالات قديمة مكبوتة. ذلك أنه ما دام النوم يمثل حالة ضعف جنسى نسبى للأنا يصل بها إلى حد الشلل والعجز فهناك فعلا ما يبرر خوف الفرد من أن تنتهز المكبوتات هذه الفرصة فتجتاح الأنا أثناء النوم. ومن هنا يكون التشبث باليقظة أى بالأرق كقط ساهر ليحول بين الفئران المنكبتة وبين أن تنطلق إلى حيز الشعور، وذلك (من قبيل الرغبة القديمة المنكبتة فى القتل أو الخوف من التعرض للقتل انتقاما وثأرا من مثل هذه الرغبة العدوانية أو الرغبة فى الاستمناء أو الاحتلام على موضوع محارمى والخوف من تحقق ذلك أثناء النوم). ولكن ينبغى أن ننتبه إلى أن النوم يكون أحيانا عند أشخاص آخرين على العكس من ذلك تماما، بمعنى أن يكون وسيلة يتخذها الشخص للدفاع ضد إحباطات الحياة. وهذا هو الهروب فى النوم.

ولكن ما هو الحلم ؟

الحلم سلوك دافعه خفض التوترات التى تتهدد النائم بالإيقاظ. فوظيفة الحلم حراسة النوم بإتاحة إشباعات هلوسية (الأحلام) للدوافع الملحقة التى يمكن أن توقظ الشخص من نومه. ومن الممكن كما رأينا أن تكون هذه الدوافع قديمة مكبوتة، كما يمكن أن تكون شعورية وحديثة. فالحلم هو حارس النوم يحرسه ويبقى عليه ضد

الدوافع التى تتهدده وذلك بتقديم إشباعات هلوسية لها يتضح ذلك بشكل بارز عندما يكون النائم متعبا فى حاجة إلى الراحة ويستشعر فى الوقت نفسه العطش فيحلم بأنه قد شرب الماء متيحا بذلك لنومه وراحته أن يستمرا. وكذلك الحال فى الأحلام الشفافة من نمط أحلام الأطفال والتى يعترف بها الفهم الشائع فى المثل الشهير: الجعان يحلم بسوق العيش، ولكن الذى يعنينا فى علم النفس هو الأحلام التى تكون إشباعا لحفزات قديمة مكبوتة لأنها هى وحدها التى تتيح لنا أن نتبين الدوافع اللاشعورية العميقة عند صاحبها.

وإذا كان الإشباع فى الأحلام من النمط الطفلى يمكن أن يتم بصورة صريحة مباشرة وبغير تنكر أو تمويه، فإن الأمر يختلف عن ذلك فى حالة الدوافع المكبوتة التى سبق للأنا أن رفضتها ومن ثم تستثير عودتهما كل مقاومة من جانب الأنا. فى هذه الحالة الأخيرة لا يستطيع الحلم أن يقوم بوظيفته وهى المحافظة على النوم إذا لم يتم تنكر هذه الدوافع المكبوتة بحيث يصعب التعرف عليها. ومن هنا يتحتم فى حالة الدوافع اللاشعورية (المكبوتة) أن يأتى الحلم متنكرا فى معناه مستغلقا على الفهم العادى. فإذا فشلت عملية التنكر هذه بحيث تخرج الدوافع المكبوتة عارية صريحة فإن القلق يجتاح مسرح الشعور، إشارة إنذار بهذا الخطر ونعنى خطر عودة ما سبق للأنا أن قامت بطرده. ذلك هو الكابوس واليقظة المرتعبة التى تتيح للأنا أن تستعيد سيطرتها، هذه التى كان النوم قد ذهب بها.

ومن هنا تبرز أهمية ميكانزمات صياغة الحلم التى تقوم بالتمويه والتنكر فتوفق بذلك ما بين حاجة الحفزات المكبوتة إلى الإشباع، وحاجة الأنا إلى الأمن بحيث يكون الناتج إشباعا للحفزات المكبوتة ولكن على نحو تجهله الأنا. بذلك يكون الحلم إشباعا جزئيا وغير مباشر للحفزات المكبوتة، مما لا يختلف فى شئ عن الأعراض المرضية. فالحلم اختلال نعيشه فى النوم بينما الاختلال حلم نعيشه فى اليقظة.

وميكانزمات صياغة الحلم هى ما يسمى بالنمط الأولى أو العمليات الأولية المميزة لجهاز الهى فى مقابل العمليات الثانوية (التعلم أو الاكتساب) المميزة لجهاز الأنا. وعلى الرغم مما يذهب إليه البعض من أن ميكانزمات صياغة الحلم ليست

بميكانزمات دفاعية فإن مخيمر يلح على طابعها الدفاعي. فوظيفة الحلم كحارس للنوم لا تقتصر على إشباع الحفزات التى حرمت الإشباع بسبب كبتها أو قمعها أو غير ذلك، بل تتخطى ذلك كله بأن تستبق أحيانا المخاوف تحقيقا للطمأنينة أو تكرر الصدمات تحقيقا لإفراغها والألفة بها وتمهيدا لمواجهتها في الواقع العياني. ففي الأحلام النمطية للامتحانات حيث يرى الحالم نفسه راسبا(١) في امتحان سبق أن اجتازه، يكون هدف الحلم هو طمأنة الحالم بالنسبة إلى قلق حالي يعكر صفو حياته «ليس لك اليوم أن تقلق فقد سبق أن عانيت القلق قبيل امتحانك بغير ما داع حقيقي لذلك». وفي أحلام أخرى حيث يتكرر حادث صدمي عاشه الشخص (من قبيل ذلك أن يحلم الجندى عدة مرات الموقف الذى حدثت له فيه الإصابة وفقد ساقه أو بصره) يكون هدف الحلم هو التمهيد لتحقق التوافق، فالأنا في مثل هذه الأحلام تقوم بتكرار إيجابي لما سبق أن عانته سلبيا. وفي هذا التكرار ما يسمح للأنا بتحقيق إفراغات جزئية آجلة وما يتيح للنوم أن يستمر على الرغم من التوتر الداخلي. وفي هذا التكرار أيضا ما يحقق للأنا الألفة ويتيح لها تعبئة الطاقات الدفاعية لمواجهة الموقف في الواقع العياني. وهكذا ينتهي مخيمر إلى أن الحلم وإن كان دائما حارسا للنوم فإنه لا يبلغ إلى ذلك دائما بتحقيق للرغبات كما يرى فرويد بل أيضا باستباق للمخاوف وتحقيق للطمأنينة تجاهها.

وميكانزمات صياغة الحلم يمكن تلخيصها كما يلي :

(أ) **التكثيف:** بمعنى أن المحتوى الظاهرى في الحلم هو اختزال للمحتوى الكامن وهنا يعنى التحتيم بأكثر من سبب. فكل عنصر من العناصر الظاهرة في الحلم يرجع إلى عدة أفكار كامنة. كأن يكون القئ في الحلم تعبيرا عن التقزز من الجنسية وفي نفس الوقت تعبيرا عن الرغبة في الحمل.

(ب) **الرمزية:** بمعنى استخدام الحلم للرمز كوسيلة للتعبير. هذه الرموز قد تكون عامة عند كل الناس. وقد تكون ثقافية خاصة بثقافة معينة. وقد تكون فردية خاصة بخبرات الفرد. ومن الرموز العامة الشهيرة: الأسد والذئب كرمز للأب، والعربات والمياه والالتقاء على السلم كرمز للجنسية، وفقدان الشعر أو فقدان البصر أو الأطراف أو الأسنان كرمز للخصاء. ومن قبيل ذلك

أيضا كل ما هو مدبب في رمزه لعضو التذكير، وكل ما هو مجوف في رمزه لعضو التأنيث. فمنقار البط مثلا يرمز لعضو التذكير، بينما الفم يرمز لعضو التأنيث.

ويرى مخيمر ضرورة الاستعانة بالمستدعيات دائما حتى بالنسبة إلى الرموز العامة والرموز الثقافية. ففي خبرته الكلينيكية التقى أكثر من مرة بالثعبان والكلب كرمزين للمهبل مع أنهما من أكثر الرموز العامة دلالة على القضيب. (يفتح الثعبان فمه وعندئذ فقط يرتعب الحالم ويصحو مذعورا أي يتحول الحلم إلى كابوس، مما يشير إلى تصور المهبل ذي الأسنان) انظر سيكولوجية المرأة – ماري بونابرت – الترجمة العربية – الطبعة الثانية – الأنجلو.

(جـ) **الإزاحة**: بمعنى أن تنفصل الخاصية الوجدانية عن موضوعها الحقيقي وتنصب على موضوع آخر فرعي. وذلك من قبيل الإزاحة من أسفل إلى أعلى بحيث ينصب الاهتمام في الحلم على منقار البط والفم بدلا من القضيب والمهبل.

(د) **الإخراج المسرحي**: ويعني أن الحلم يعبر عن الأفكار المجردة بصور مرئية تماما كاللغة الهيروغليفية عند قدماء المصريين. فالحلم يعبر عن أفكاره الكامنة بمشاهد بصرية تماما كما يحدث في الأفلام الصامتة فتتابع الصور البصرية ونادرا ما تتدخل الأصوات والحوار. ومن قبيل ذلك أن إحدى الفتيات رأت هذا التتابع في حلمها: تصعد على سلالم كوبري يمتد فوق مجرى ماء ثم تهبط من الناحية الأخرى بضع درجات لا تصل بها إلى نفس مستوى الأرض من الضفة الأخرى. وعندئذ ترى ذكر بط وحشي رأسه رأس إنسان ولكنه أصلع وله منقار طويل. يهجم عليها فترتبك ولا

(١) عندما لا يكون الحالم قد اجتاز الامتحان من قبل وعندما لا يكون على الحالم أن يجتاز امتحانا ما، يمكن للرسوب كاستباق للفشل أن يحقق الطمأنينة طالما أن وقوع البلاء لا يثير قلقا بل انتظاره هو الذي يثير القلق. ومن هنا فليس من الضروري أن يكون حلم الرسوب قبل الامتحان تعبيرا عن رغبة لدى الشخص في الرسوب.

تدرى ماذا تفعل، وإذا بذكر البط يدخل منقاره فى فمها فتشعر بالتقزز وتتقيأ. ويتغير المنظر فترى نفسها تحمل طفلا رضيعا تشعر أنه ابنها وإلى جانبها زميل لها فى الدراسة أعمى بمركز المكفوفين.

(هـ) **التصفية الثانوية**: بمعنى أن حالة الحالم بقدر ما تكون قريبة من اليقظة تضفى على هذا النتاج منطقية معقولية فيبدو متماسكا كالقصة المترابطة التى ذكرناها. ففى حلمها تعبر الفتاة عن نزعتها الذكرية وتقززها من الدور الأنثوى فى الجماع الجنسى، ومن هنا فإنها لا تنزل إلى الماء الذى يرمز إلى الحياة الجنسية بل يكون عبورها عن طريق الكوبرى الذى لا تنزل منه إلى نفس مستوى الضفة الأخرى، إن لقاءها مع ذكر البط الوحشى يتحقق فى مستوى أعلى إشارة إلى بظرها مما يساير ذكريتها وتخوفها من الدور الأنثوى فى الجماع الجنسى. ولكن ذكر البط الوحشى وإن كان يرمز بصلعته إلى الخصاء فإنه يرمز بمنقاره الكبير إلى ذكورته القوية. فذكر البط الوحشى يجيب بصلعته كرمز للخصاء على ذكريتها بينما يجيب بمنقاره الكبير كرمز للفحولة على رغبتها الأنثوية الوجلة. إنها تتجه بنزعتها الذكرية إلى صلعة ذكر البط بينما تتجه بنزعتها الأنثوية إلى المنقار الكبير لذكر البط وفى هذا ما يقطع بانتمائها إلى النمط البظر مهبلى من النساء. وذكر البط الوحشى هذا تعبير دقيق عن زميلها الأصلى الذى تعبر فى الحلم عن رغبتها فى الاقتران به والإنجاب منه. فزميلها الأعمى مخصى يشد بالعمى نزعاتها الذكرية ولكنه فى الوقت نفسه قوى الشخصية عنيف يشد بفحولته هذه نزعاتها الأنثوية. فالحلم لا يعبر عن رغبتها فى الإنجاب من زميلها الأعمى بل يتيح لنا فى الوقت نفسه جملة من الخصائص المهمة المميزة لها فى تتامها مع الخصائص المميزة لزميلها الأعمى.

تفسير الحلم:

يحتاج الحلم إلى جهد لتفسيره. وكان فرويد يوصى بتقطيع الحلم إلى أجزاء وذلك لنطلب من الحالم مستدعيات أفكاره عن كل جزء من الأجزاء على حدة وبذلك نصل من العناصر الظاهرة فى الحلم إلى المحتوى الكامن وراء كل عنصر من

المناصر. وفي هذا التقطيع للحلم ما يخلصنا من المعنى الظاهر ومن المعقولية والمنطقية الظاهرة.

أما تفسير الحلم اليوم فيقتصر على عمل مستدعيات الأفكار بالنسبة إلى بعض عناصر الحلم أو أجزائه وذلك لأن الرمزية العامة، عادة ما تكفي لفهم غالبية الأجزاء والعناصر الظاهرة. ويمثل تفسير الأحلام جانبا مهماً في العلاج النفسي، وعادة ما يحاول المعالج أن يمسك بدلالة الحلم ضمن سياق العملية العلاجية. فقد يكون الحلم تعبيرا عن مقاومة للعلاج أو تعبيرا عن تغيير في الدوافع العميقة أو عن إصرار عليها. والمعالج في تفسيره للحلم يرجع إلى الشخصية في وحدتها الكلية. وفي بعض الحالات لا يكتمل الحلم إلا بعد ظهور معلومات جديدة. من قبيل ذلك الحلم المريضة التي رأت المعالج واقفا في مكانه عند استقبالها كالعادة ولكن يوجد ببنطلونه شق طولي في المنطقة التي توجد بها الأزرار. فقد اتضح معناه من حلم رأته بعد ذلك، رأت فيه أخاها الأكبر، الذي كان ينزل من نفسها منزلة الأب وكانت تعتمد عليه في طفولتها وتلقى عليه بمسئولياتها، رأته بعد وفاته يرقد حيا في فراشه رأسه هي هي تماما ولكن بدنه عندما لمسته وجدت أنه جسم أمها. ومن هنا فهي في طرحها لمشاعرها الطفلية تجاه هذا الأخ على المعالج قد قامت بإحداث التغيرات اللازمة حتى يصبح المعالج نسخة من تصورها الطفلي لأخيها الأكبر: شخصية قوية تقتدر على الحماية، وجسم أنثوي من الناحية التشريحية، وبالتالي كان الحلم الأول تعبيرا عن عملية الطرح على المعالج.

الحلم المؤلم والكابوس :

سبق أن رأينا أن الحلم لا ينجح في وظيفته وهي المحافظة على النوم إلا حين ينجح النشاط الدفاعي في عمله التمويهي الذي يجعل الدوافع المكبوتة متنكرة عند إشباعها. أما إذا فشل النشاط الدفاعي في عمله هذا فذلك معناه فشل الحلم. عندئذ تدخل الدوافع المكبوتة عارية صريحة فينبعث القلق في الحلم إشارة إنذار بهذا الخطر، ويشتد القلق إلى الحد الذي يقطع النوم بيقظة مفعمة بالقلق. ومن هنا يكون تعريف الكابوس بأنه تحقيق صريح لرغبة شنيعة .. وهذا الأرق المفاجئ وسيلة للدفاع ضد هذا الخطر إذ تستعيد الأنا باليقظة قوتها على المواجهة، هذه التي كانت قد ضاعت بالنوم.

وهناك أحلام أخرى تكون أليمة في محتواها الظاهر بحيث يبدو من الغريب

فهمها على أنها تحقيق لرغبة وإشباع لدافع من قبيل ذلك المرأة التى تنزل كارثة بأمها فى الحلم وتغرق فى حزن شديد على أمها يبلغ حد البكاء، أو تلك الأخرى التى ترى أباها فى الحلم ينهال عليها ضربا بعصا طويلة غليظة بينما تتألم وتبكى، أو تلك الثالثة التى تفقد فى الحلم ابنها الوحيد وتصحو مفزعة. ففى كل هذه الحالات يتضح أن الحلم على الرغم من طابعه الأليم يحقق رغبة عند الشخص. ففى الحالة الأولى تشبع الحالة عدوانيتها الأوديبية تجاه أمها، وفى الحالة الثانية تشبع الحالة رغبتها الجنسية الأوديبية تجاه أبيها، بينما الحالمة تعبر فى الحالة الأخيرة عن رغبتها فى التنازل عن ذكريتها مما يعنى قرب اكتمال أنوثتها. وفى حالات أخرى يكون الطابع الأليم للحلم راجعا إلى رغبة الحالم فى عقوبة الذات نتيجة لأحاسيس الإثم لديه وتطلعه إلى التخفف عن طريق التكفير بالمعاناة. فى مثل هذه الحالات يكون الحلم إشباعا لرغبة الحالم فى العقوبة (مازوشية معنوية).

ولكن ليس معنى هذا أن تكون كل الأحلام الأليمة مجرد تحقيق لرغبة عند الحالم فى نهاية الأمر فقد سبق أن رأينا مع مخيمر أن الأحلام يمكن أن تستبق المخاطر والمخاوف كما يمكن أن تكرر إيجابيا ما عانته سلبيا من أحداث صدمية فى الحياة وذلك تحقيقا للطمأنينة والألفة وتعبئة للطاقات الدفاعية من أجل المواجهة مع الواقع العيانى. ومعنى هذا أن الأحلام فى صورها المختلفة (شأنها شأن الإسقاط فى أشكاله المختلفة) مما تضطلع أساسا بوظيفة دفاعية لا تقتصر على إشباع الرغبات(١) بل تتخطى ذلك إلى استباق المخاوف والأخطار والتمهيد لمواجهة الواقع العيانى بفعالية تتيح التوافق. ومن هنا فإن مخيمر وإن اتفق مع فرويد فى وظيفة الحلم الدفاعية كحارس للنوم إلا أنه يختلف معه من حيث الوسيلة إلى ذلك. فالحلم دفاع ضد كل التواترات التى تهدد النائم بالإيقاظ سيان كان ذلك إشباعا للرغبات أو استباقا للمخاطر يتيح الطمأنة أو تكرارا إيجابيا لأحداث صدمية يتيح مع الإفراغ تعبئة آليات للمواجهة بلوغا إلى التوافق. فهدف الحلم ينحصر فى خفض التواترات التى تهدد النوم، هذه التواترات التى يؤدى ارتفاعها بصورة مسرفة أو صدامها مع الأنا إلى القلق الغامر والكابوس واليقظة الفجائية.

مثال :

كان زوجي يتوق بشكل قوى إلى أن تكون لنا طفلة وكان يبرر ذلك استنادا إلى تخصصه بأن ابننا محيي هو ككل ذكر يولد يضيع لحساب أمه ومن هنا كان يريد أن يكون المولود الجديد بنتا ليكون من حسابه. وأخيرا وصلت ابنتنا ساهي. كان محيي يطاردها طوال اليوم باستطلاعيته وحركاته العنيفة التى ما تزال بعيدة عن المهارة طالما أنه ما يزال فى الشهر الأول بعد اكتمال عامين من عمره. كان زوجي يشعر بخطورة مداعباته الثقيلة للضيفة الجديدة ساهي ومن هنا راح يحذرنى المرة بعد المرة حتى لا تتاح للذئب الصغير فرصة الانفراد بها وفى اليوم الثامن لميلادها، رأى زوجى الحلم التالى وكان بصريا خالصا .. كانت ساهى فى لفافاتها ترقد واقعة على الأرض على مقربة من السرير الكبير وكانت لفافاتها المبعثرة تقطع بوقوعها من فوق الفراش الكبير الذى كثيرا ما أتركها فوقه بعيدا عن سريرها الصغير، واستولى الذعر على زوجى وراح يصرخ ينادينى حتى أسارع بالحضور والتفتت رأسه إلى الباب فإذا به يرى محيي وهو يسارع بالخروج من الغرفة هاربا على طريقته المعتادة عندما يرتكب شيئا يدرك أننا نمنعه عنه وسوف نؤنبه عليه. عندئذ أدرك زوجى أن ما كان يخشاه قد وقع واستولت عليه لحظات من الرعب راح يتساءل فيها: ءأيمكن أن تكون ساهى قد ماتت؟ أيمكن لهذه الحادثة أن تؤثر على رأسها الصغير أو مخها؟ واستولى عليه الغيظ

---

(١) سبق أن رأينا في حديثنا عن التات ضمن عرضنا للاختبارات الإسقاطية أن قصص المفحوص يمكن أن تعبر عن رغباته وآماله كما يمكن أن تعبر عن تخوفاته وضروب قلقه وصراعاته. وفى مقدمة الطبعة الثانية – الترجمة العربية لكتاب سيكولوجية الإشاعة أولبرت بوستمان، الناشر سعيد رأفت – أوضح مخيمر كيف أن ظاهرة الإشاعة شأنها شأن ظاهرة الإسقاط تضطلع دائما بوظيفة دفاعية ولا تخرج عن كونها انتظاما من الانتظامات التى يمكن أن يتخذها الإدراك عندما تكون الغلبة للعوامل الذاتية بالقياس إلى الشروط البيئية (انظر ١٥٦ من علم نفس الجشطلت بول جيوم – الترجمة العربية – الناشر سعيد رأفت) بذلك تكون قد حققنا مبدأ المجانسة بالنسبة إلى الأحلام والاختبارات الإسقاطية وذلك من حيث الوظيفة الدفاعية فى غير ما اقتصار على تحقيق الرغبات. وقد سبق أن حققنا مبدأ المجانسة ما بين الأشكال المختلفة للإسقاط والصور المختلفة للإشاعة والانتظامات المتباينة التى تتخذها الإدراكات. وليست المجانسة غير تعبير عن مبدأ الاقتصاد فى العلم.

تجاهى لأنه حذرنى أكثر من مرة فقد كان يتوقع هذا كله وكان بوسعنا أن نتجنبه لو أننى أوليت تحذيراته الاهتمام الكافى. ومن فرط ارتعابه انتقل زوجى إلى تلك الحالة ما بين اليقظة والنوم وراح يتساءل أيكون من الممكن أن تنطوى أعماقى على رغبة موت ابنتى ساهى وقد عشت حياتى كلها أرجو من الله أن يرزقنى ابنة؟ هذا مستحيل .. هذا مستحيل، وصحا من نومه وكنت قد استيقظت على بكاء ساهى وأقوم بإرضاعها فحكى لى حلمه الذى رآه منذ لحظات وكان من الطبيعى بعد ما سمعته أن أجيبه بهذه الكلمات: إننى لست فى حاجة إلى مثل هذا التحذير العنيف المروع وإننى أؤكد لك أننى متيقظة لمثل هذا الاحتمال، ولن ينفرد ذئبنا الصغير محيى بحملنا الوديع ساهى .. ولست فى حاجة أيضا يا عزيزى أن تحاول من جديد أن إقناعى بتعديلك الجديد الذى أدخلته على نظرية فرويد فى الأحلام والذى يؤكد بأن الحلم لا يمكن أن يكون دائما مجرد تحقيق لرغبة فكثيرا ما يكون تعبيرا عن مخاوف يحذر منها ويهيئ لتجنبها أو يعين على مواجهتها فى حال وقوعها .. ومع ذلك يمكن أن نحتال على الكلمات فنقول بأن حلمك هذا مجرد تعبير عن رغبتك فى تحذيرى بشكل عنيف ومن هنا استباقك لأسوأ ما يمكن أن يحدث لو أننى تكاسلت وأهملت. فحلمك هذا إنما رأيته أنت لحسابى أملا فى ترويعى لتبلغ بى إلى أقصى ما تستطيعه من تنبيهى وتحذيرى إلى الخطر المحتمل. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون حلمك أيضا وفى نفس الوقت تعبيرا عن مخاوفك وتعبئة للمزيد من اليقظة وتهيئة للمواجهة لو أن المرهوب لا قدر الله قد وقع يوما .. كل ذلك ممكن طالما تؤمن بمفهوم التحتيم بأكثر من سبب وأن الحلم فى خدمة الشخصية كلها بحيث لا يقتصر على رغباتها دون مخاوفها.

(٣)

الفصل الثالث
في المناهج السيكودينامية
مفاهيم - مفاتيح
كإطار تفسيرى يتيح الفهم

الفصل الثالث

فى المناهج السيكودينامية

مفاهيم - مفاتيح

كإطار تفسيرى يتيح الفهم

سبق أن رأينا أن المنهج الكلينيكى يستهدف الفهم سيان كان ذلك فى صورة التشخيص الحالى (دياجنوزس) أو فى صورة تشخيص التطور المقبل للحالة. ومن هنا تبرز أهمية الإطار التفسيرى بما ينطوى عليه من (المفاهيم – المفاتيح) التى تتيح لنا ما ننشده من «فهم». وليس هناك من شك فى أن التحليل النفسى كان وما يزال النظرية الوحيدة التى تتيح لنا أن نتبين المعقولية من وراء لا معقولية الأمراض المرضية.

وإذا كان لنا أن نبدأ ببعض كلمات تاريخية كان علينا أن نذكر أن فرويد كان يعمل قبل اكتشافه للتحليل النفسى مساعدا لبروير فى علاجه النفسى للحالات عن طريق التنويم المغناطيسى. وكان فرويد قبل ذلك فى بعثة بفرنسا استمرت عاما كاملا استطاع خلالها أن يتتلمذ على شاركو فى باريس وعلى برنهايم فى نانسى. وكلنا يعلم تلك الحالة الشهيرة «أنا» التى كان يعالجها بروير يعاونه فرويد. كانت المريضة فى كلمات عاجزة عن أن تشرب الماء من كوب وكانت تجلس إلى فراش أبيها المريض تسند ذراعها إلى المقعد عندما خيل إليها أنها رأت ثعبانا على الحائط الملاصق لفراش أبيها. عندئذ انشل ذراعها عن الحركة وإن ظلت أصابعها تتحرك.

وليس لنا أن ندخل فى تفصيلات هذه الحالة التى تركها فرويد بغير تحليل مكتمل وإن كنا نتبين فيها تثبيتا شهويا من جانب المريضة على أبيها مع شئ من النزعات الذكرية لديها تتمثل فى الثعبان الذى خيل إليها أنها رأته على الحائط وفى ذراعها الذى كان من الممكن لرغباتها الشهوية المجرمة أن تتحرك به إلى الفعل لولا أن سارعت الدفاعات فنالته بشئ من الشك دون أن تأتى مع ذلك على حرية الأصابع فى التعبير الرمزى عن الرغبة فى التحرك إلى الفعل.

وكان فى ذلك ولا شك محصلة للحفزة الشهوية المكبوتة ودفاعات الأنا جميعا.

ولكن فرويد لم يعرض لهذا كله بل اقتصر على عجز المريضة عن أن تشرب

الماء من كوب دون أن تدرى لذلك سببا .. وقد استطاع بروير بتنويمها مغناطيسيا أن يتبين الحادثة التى كانت سببا فى ذلك. فقد رأت مربيتها الإنجليزية تسقى كلبها من كوب عادى فشعرت بالتقزز والاشمئزاز وأصبحت بعد ذلك عاجزة عن أن تشرب الماء من كوب. وكما كان متبعا فى العلاج بالتنويم المغناطيسى فى تلك الفترة من نهاية القرن التاسع عشر طلب إليها بروير وهى فى حالة التنويم أن تمسك الكوب الذى قدمه إليها وأن تشرب منه وبعد ذلك طلب منها أن تستيقظ وهى تشرب وكانت تلك هى نهاية العرض المرضى.

وليس من شك أن مثل هذه الحادثة ما كان يمكن أن تكفى لتوليد مثل هذا العرض المرضى لولا ما تنطوى عليه من دلالة لا شعورية. ذلك أن المريضة كانت مع تفجر مرضها قد توقفت عن التحدث بلغتها الأصلية لتتحدث بالإنجليزية التى هى لغة مربيتها بما يدفعنا بالضرورة إلى التساؤل عن نوعية العلاقة التى كانت تتوهم المريضة قيامها بين مربيتها وأبيها. كل شئ يحمل على الافتراض بأن هذه المربية كانت موضع حسد من جانب المريضة وكان بودها لو استطاعت هى الأخرى أن تقدم كوبها(١) إلى الكلب الظمآن ليرتوى ولم يكن الكلب غير تعبير رمزى عن أبيها فى صلته بالمربية. وليس مما يعتبر تناقضا أن تكشف المريضة فى مشهد الكلب عن نزعاتها الأنثوية بينما تكشف فى مشهد الفراش عن نزعاتها الذكرية، طالما أن نمط البظرية – المهبلية من الأنماط الشائعة بين النساء.

وكل ما يعنينا مما سبق أن المريضة «أنا» شرعت تتعلق عشقيا بمعالجها بروير فآثر الأخير السلامة وتوقف تماما عن كل علاج نفسى.

كانت هذه هى الإشارة الأولى إلى ظاهرة الطرح الموجب التى سوف يكشف عنها فرويد كفنية أساسية من فنيات التحليل النفسى بعد ذلك بسنوات. وكان على فرويد بعد ذلك أن يعمل بمفرده وأن يتبنى طريقة أخرى فى العلاج غير تلك التى تقوم على التنويم المغناطيسى. فقد كان من شأن التنويم أن يزيد من تبعية المريض للمعالج بينما يستحيل على الشفاء إلا أن يكون تقدما نحو الاستقلالية.

---

(١) أحيانا ما يرمز الكوب للأنوثة من النمط الذكرى.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأعراض التى كانت تختفى عن طريق التنويم كانت تظهر من جديد بعد حين أو يظهر غيرها فى مكانها مما يعنى أن المرض لم تقتلع جذوره بعد. وبالإضافة إلى هذين السببين لم يكن من الممكن فى الواقع إخضاع كل المرضى للتنويم المغناطيسى، ومن هنا كان لابد من التنقيب عن طريقة جديدة. وراح فرويد يجرب الإيحاء للمريض بأن يتذكر وقد جعله يستلقى فى استرخاء على أريكة ولكن ذهبت كل الإيحاءات دون جدوى فميكانيزمات الدفاع كانت تقف فى صورة مقاومة في وجه المكبوتات تمنعها من الظهور إلى الشعور.

واهتدى فرويد بعد ذلك إلى التداعى الطليق الذى يستند إلى مفهوم الحتمية النفسية والذى يشكل الفنية الأولى للتحليل النفسى (بينما يشكل الطرح فنيته الثانية والأخيرة) ومن هنا كانت تسميتها بالقاعدة الأساسية التى تحتم على المريض وقد استلقى على الأريكة أن يتحدث بصوت مسموع بكل ما يخطر له دون ما انتقاء أو استبعاد من جانبه. وكانت الأحلام تلقى عناية خاصة فى جلسات التحليل بحيث يجرى عليها تطبيق قاعدة الاستدعاء الطليق للكشف عما يكمن وراءها من حفزات واتجاهات. فقد كانت الأحلام بمثابة الطريق السلطانى الذى يمضى بالمحلل مباشرة إلى أعماق المريض. وعليه فإن المريض يتحدث بكل ما يخطر برأسه وكانت مستدعياته تبدو عشوائية فى تتابعها لا تنطوى على أى علاقة أو رابطة بينما هى فى واقع الأمر «محتومة» فى تتابعها نتيجة لارتباطها الوثيق فى لا شعور المريض وأعماقه. ولكن المريض لم يكن ينتبه إلى ذلك ومن ثم كان بوسع المستدعيات أن تخرج إلى حيز الشعور فى الجلسات التحليلية. ولكن هذه الصورة المبسطة لا تمثل حقيقة الأمر فى واقعه؛ فعندما تفلت بعض الحفزات المكبوتة خارجة إلى السطح تسارع عادة بعض الدفاعات لتفرض نفسها على مجرى المستدعيات مما يجعل التحليل النفسى فى الجلسة العلاجية تحليلا للصراع ما بين الحفزات المكبوتة والميكانيزمات الدفاعية التى تتصدى لها.

وغنى عن البيان أن الأمر لا يقف عند القول لأن المريض كثيرا ما يتكلم ببدنه ومن هنا يكون التنبيه لأرهف الحركات المصاحبة لأقوال المريض وربما تكون بعض

هذه الحركات مستحيلة على الملاحظة ويتحتم على المريض الإدلاء بها (كأن يشعر ببعض الانقباضات الهينة فى إسته عند الحديث عن أحد أصدقائه).

وكان ولابد أن تمضى فترة من الوقت قبل أن يتوصل فرويد إلى اكتشاف الفنية الثانية والأخيرة ونعنى ظاهرة الطرح التى كشفت بدورها عن حيوية التزام المحلل بالحيادية مع مريضه. وكان فشل فرويد فى تحليله لحالة «دورا» بتوقفها عن العلاج هو الذى نبهه إلى ظاهرة الطرح، فالمريض فى الجلسات العلاجية يعيش خبراته الطفلية من جديد تجاه المحلل كبديل أبوى ومن ثم يتيح للمحلل ليس فقط أن يمسك بأكبر الخبرات الوجدانية الطفلية السابقة على اللغة بل وأيضا أن يقوم بتصحيح ما تنطوى عليه هذه الخبرات الطفلية من اتجاهات خاطئة وتثبيتات شهوية مستهجنة وما لحق بذلك من عدوانية للأب المنافس .. الخ. ولما كانت هذه الخبرات الطفلية وعلى الخصوص ما يعرف منها بالعقدة الأوديبية هى الأساس الذى تقوم عليه كل الاضطرابات والاختلالات فى المستقبل (استنادا إلى كبت العقدة الأوديبية نتيجة للعجز عن تصفيتها مما يقيم العصاب الطفلى الذى هو البذرة لكل الاختلالات (اللاحقة)، فإن تصحيحها على أرضية من الطرح ضمن الإطار العلاجى يقوض الدعامة المرضية ومن ثم يفتح الباب عريضا أمام السوية.

ولا يقتصر الأمر على ذلك فإن الطاقات التى كانت مضيعة بين الدفاعات والمكبوتات لم يعد لها الآن من دور تلعبه ومن ثم تعود لتكون فى خدمة الأنا الشعورية مما يعنى إثراء للطاقة المتاحة (الاقتصاديات النفسية) وبالتالى مزيدا من الإمكانات والإيجابيات والقدرة على الاستمتاع بالحياة. وغنى عن البيان أن تفسير ظاهرة الطرح للمريض يظل مستحيلا بغير حيادية المحلل(١) فما دام المحلل باتجاهه لا ينطوى على أى شئ يبرر تلك الطاقات الفياضة العشقية من جانب المريض أو تلك العدوانية المستقرة فى أعماقه تجاه المحلل فإن المريض يسهل عليه أن يقتنع بأن هذه المحبة

---

(١) يتحتم على المحلل أن ينتبه إلى الطرف السالب (الكراهية) وأن يسارع إلى تحليله بحيث يفسح المجال دائما لإمكانات الطرح الموجب (المحبة) هذه التى تعتبر بمثابة القناة الانفعالية التى تتيح لاستبصارات المحلل (تفسيراته) أن تنفذ إلى أعماق المريض وأن تتمخض عن تعديلات جذرية.

العشقية أو أن هذه العدوانية الفتاكة إنما تصدر عن أعماقه الطفلية فى مواقفها التى كانت عليه من الأبوين. وأن الأمر هنا لا يزيد عن أن يكون تكرارا وطرحا لها على المحل كبديل أبوى. ولكن ينبغى أن نتصور أن فرويد قد جاء بكل ذلك من عنده دون إرهاصات مهدت له وفتحت عينيه على كثرة من الحقائق كان له فضل التنبيه إليها وإقامتها فى صرح تفسيرى مكتمل – وسنحاول تلخيص هذه الإرهاصات والكشوفات السابقة على النحو التالى:

١ – فشكسبير بحدسه النفاذ يقرر في رواية هاملت بأن العقل قواد الرغبة، ويأتى بعد ذلك شوبنهور فيلسوف التشاؤم ليقرر أن العقل ليس غير أركان حرب يعمل فى خدمة القيادة الحقيقية التى يسميها بإرادة الحياة.

٢ – وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت الهيستيريا هى عصاب العصر لما كانت تستهدفه الدفاعات من نظافة الجنسية فى المقام الأول. وشاع التنويم المغناطيسى كأسلوب فى علاج الهيستيريا التى تتميز أقصى ما تتميز بقابلية المريض للإيحاء. ومن ثم تكون إمكانية تنويمه مغناطيسيا. كان الكل يستخدم التنويم المغناطيسى وإن تباينت الطرائق والنظريات فظهرت تجارب عديدة كشفت عن أن الأوامر التى يعطيها المعالج للمريض أثناء تنويمه يشرع فى تنفيذها عند استيقاظه وكأنها تصدر عن إرادة حرة وعن رغبته الخالصة. لأنه لا يذكر عند يقظته تلك الأوامر التى تلقاها أثناء تنويمه. وكان فى مثل هذه التجارب ما يؤيد بشكل قاطع حدس شكسبير ورؤية شوبنهور، فالأعماق تريد وعلى العقل أن يقوم بالتنفيذ بل وبالتبرير عندما يلزم الأمر.

٣ – سبق أن أشرنا إلى (شاركو) الذى نبه إلى أن الخبرات الجنسية مهمة فى نشأة الهيسيريا ولكن (جانيه) مضى إلى ما هو أبعد من ذلك.قال بأن المرض النفسى ينشأ عن ذكرى منسية لحادث صدمى بل تحدث صراحة عن اللاشعور ولكنه تراجع عندما تعرض للنقد.

وكان (جانيه) فى استخدامه للتنويم المغناطيسى يمضى من أحدث الرقاقات النفسية إلى ما هو أقدم منها فأقدم حتى يصل إلى الخبرات الطفلية. وكان من المعروف

أن تذكر المريض للحادثة الصدمية لا يكفى لاختفاء العرض المرضى بل لابد أن يكون التذكر مصحوبا بإفراغات انفعالية لم يكن بوسع المريض فى موقفه الصدمى ذلك، أن ينفس بالإفراغات عنها.

٤ – إن حكمة الشعوب التى تتمثل فى أمثالها الشائعة وفى تعبيراتها المألوفة إنما تعتبر ضربا من علم النفس الضمنى. ومن الشائع فى الأمثال المصرية أن يقال عن الشاب غير المتزوج عند وفاته ما يفيد أن الحياة الجنسية كمفردات للدنيا وللفرحة: مات من غير ما يخش دنيا .. مات من غير ما يفرح.. وحكمة الشعوب هنا تقصد الإنسالية أى العلاقة الجنسية، بينما الجنسية فى التحليل النفسى تشمل العاطفية والإنسالية جميعا، مما يوقع بعض الغافلين فى اللبس ويحملهم على انتقادات تستند إلى جهلهم.

وسوف نلتقى فى عرضنا للعقدة الأوديبية بأمثلة شعبية أخرى تكشف عن إدراك الناس منذ أقدم العصور إلى تلك الحقائق التى كان لفرويد من الشجاعة ما مكنه من تبينها وإقامة نظرياته استنادا إليها.

نظرية التحليل النفسي

يرمز مصطلح التحليل النفسى إلى منهج ووسيلة العلاج التى ابتدعها فرويد هذا إلى نظرياته فى الغرائز والشخصية. فالتحليل النفسى يشير أولا إلى منهج للبحث فى العمليات النفسية، هذه التى تكاد تستعصى على أى منهج آخر. والتحليل يشير أيضا إلى طريقة لعلاج الاضطرابات العصبية استنادا إلى منهج البحث السابق. والتحليل يشير ثالثا وأخيرا إلى هذه المعارف النفسية التى تأتلف فى جهاز نظرى جديد عن الغرائز ونضجها وعن الجهاز النفسى (الشخصية).

وكما سبق أن أوضحنا فقد ظهر التحليل النفسى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر نتيجة أبحاث ووقائع كثيرة تتعلق بالتنويم المغناطيسى والتجوال النائم والهيستيريا، هذا إلى نظريات فلسفية مهدت له.

ففى الحالة الشهيرة تحت اسم «آنا» بروير وفرويد» كان العلاج بالكلام أثناء التنويم المغناطيسى، وكانت تختفى الأعراض المرضية عند التذكر الانفعالى للمناسبة

التى ظهرت فيها الأعراض لأول مرة. وكانت طريقة هذا العلاج التطهيرى تعتمد على التنويم للكشف عن المواقف الصادمة المولدة للأعراض، وذلك فى حركة تبدأ من الحاضر منجهة أكثر فأكثر إلى الماضى. وقد حظى التنويم فى فرنسا بدراسة سيكولوجية عند شاركو وأتباعه وبدراسة كلينيكية تنصب على الآثار العلاجية عند برنهايم وأتباعه، وجاء جانيه فقرر تأثير الذكرى المنسية للأحداث المرتبطة بالانفعالات العنيفة فى تكوين المرض. فانفصال الذكرى فى رأيه إنما يرجع إلى عملية آلية تنتج عن الضعف النفسى فهو لم يصل إلى مفهوم الديناميـة أى الصراع وعملية الكبت مما سيأتى به فرويد.

انتهى فرويد فى العشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر إلى التحليل النفسى وذلك بعد عدة محاولات، فقد بدأ بالعلاج التطهيرى مع بروير وكان يستعين بالتنويم فى الكشف عن ذكرى الحادثة الصادمة كشفا يحقق الإفراغ الانفعالى.

ولكن كان التنويم المغناطيسى ممكنا فقط بالنسبة إلى البعض، وكان أثر التطهير إلى حين. ومن هنا التجأ فرويد إلى اليقظة وإلى الإيحاء للمريض أثناءها حتى يتذكر. واصطدم فرويد بمقاومة المريض أى بهذا الكبت الناشئ من موقفه الدفاعى بإزاء النزعات غير المباحة. ومن هنا برزت ضرورة تدريب المريض على الإقلاع عن كل موقف نقدى والالتزام بالخواطر التلقائية الواردة (القاعدة الأساسية أى الاستدعاء الطليق) كان على المريض أن يفصح عن كل ما يخطر بباله مهما كانت طبيعته مما يتيح انطلاق الأفكار والانفعالات الوجدانية المكبوتة، ومما يسمح للمعالج استنادا إلى الحتمية النفسية بتفسير المواد التى تخطر فى تتابعها. فيما يبدو عشوائيا فى تتابعه يرجع فى الواقع إلى حتمية نفسية. واكتشف فرويد أيضا ظاهرة الطرح (التحويل) حيث يسلك المريض – بدلا من التذكر – تجاه المعالج على نحو ما كان يسلك إبان الطفولة تجاه الأبوين. والمريض بذلك يعيش ماضيه من جديد فى الحاضر فيتيح للمعالج أن يمسك بماضيه، ويتيح لنفسه أن يتعلم السيطرة على هذه المواقف والانفعالات هذه التى عجز فى الماضى عن السيطرة عليها مما ألجأه إلى كبتها. والمحلل لا يبلغ إلى ذلك إلا إذا التزم بالحيادية بعيدا عن المعاملة الودية أو الصارمة.

وتتميز الفترة الأولى من تاريخ التحليل النفسى بالاهتمام المتزايد بالمقاومة والطرح وبتحديد الأمراض التى يصلح لها التحليل النفسى، وازدياد أهمية العقدة الأوديبية ولكن هذه الفترة شاهدت أيضا بداية الاهتمام بسيكولوجية (الأنا)، وشاهدت انشقاق آدلر و يونج عن أستاذهما فرويد.

فقد اهتم أدلر بالعدوان والأنا أكثر من اهتمامه بالجنسية واللاشعور، بينما اهتم يونج باللاشعور الجمعى والتفسير الرمزى لعقدة أوديب.

ومن الناحية العلاجية انتقل الاهتمام عند كل منهما إلى الصراع الراهن بدلا من الصراع الماضى كمحور للتحليل.

وجاءت المرحلة الثانية فى عام ١٩٢٠ عندما اضطلع فرويد بتعديل فى نظرية الغرائز والجهاز النفسى. وكانت التعديلات خطيرة فى آثارها. فلم يعد التفسير يتمثل فى صراع بين الغرائز وإنما فى دفاع الأنا ضد الحفزات الغريزية والانفعالات. ولم تعد الحفزات جنسية فحسب فهنالك الحفزات العدوانية أيضا. هذا إلى الأهمية المتزايدة التى يوليها التحليل النفسى لدفاعات الأنا والعدوان مما يختلف تماما عن الصورة الجامدة الشائعة بين العامة والتى تتوهم التحليل نظرية جنسية شاملة ترد كل شئ إلى الجنس وتقتصر على اللاشعور.

نظرية التحليل النفسى فى الغرائز

فى نظريته الأولى:

يميز فرويد بين الغرائز الجنسية التى يطلق اسم الليبيدو على مظاهرها الدينامية وتستهدف المحافظة على النوع وبين غرائز الأنا التى تقف فى وجه الإشباع الجنسى وتضطلع بالدفاع (الكبت) استنادا إلى وجدان القلق أو الإثم أو إلى المثل الخلقية والجمالية للأنا. وغرائز الأنا هذه تستهدف المحافظة على الفرد.

وعادة ما تتعرض الغرائز الجنسية فى سنوات الطفولة للكبت. وتتميز النزعات المكبوتة بالدينامية بمعنى أنها تجاهد من أجل التسلل إلى الشعور مما يتحقق فى الأحلام والأعراض العصابية.

وفى عام ١٩١٤ اكتشف فرويد النرجسية بمعنى أنه اكتشف الطبيعة الجنسية

لبعض النزعات التى كانت تنتمى إلى غرائز الأنا، ومن هنا قام بضم الغرائز الجنسية وغرائز الأنا فى وحدة واحدة هى غرائز الحياة.

فى نظريته الثانية:

يميز فرويد غرائز الحياة هذه من ناحية وغرائز الموت والتدمير من ناحية أخرى. كان فى النظرية الأولى يعتبر العدوان والتدمير تابعا للغرائز الجنسية وينتج عدم إحباطها ولكن الخبرة الكلينيكية نبهته إلى الطابع الأساسى الأولى الحيوى للعدوانية(١) والتدمير وغرائز الحياة تستثمر طاقاتها فى الذات النرجسية وتسقطها على الموضوعات الخارجية (موضوعاتية)، وكذلك غرائز الموت فهى تستثمر طاقاتها فى الذات وتسقطها على الموضوعات الخارجية. وكل سلوك عيانى يمثل ائتلافا من النوعين فهو نرجسى وموضوعاتى. وهو لبيدى وتدميرى. وإذا كانت غرائز الحياة تستهدف البناء وإقامة الوحدات فغرائز الموت تستهدف التدمير وتفكيك الوحدات. ولكن غرائز الحياة ترتد هى وغرائز الموت إلى مبدأ الثبات. فإذا كانت الأولى تستهدف خفض التوترات التى يعيشها الكائن فإن الثانية تستهدف خفض الحياة ذاتها من حيث هى توتر.

نظرية التحليل النفسى

فى مراحل النمو كمراحل نضج للغرائز

تنحصر الفكرة الرئيسة فى وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) فى البدن يتمخض تنبيهها عن إشباعات ليبيدية. وتتغير المنطقة الشبقية المهيمنة تبعا للسن ومحتوى النمو، فتتغير بالتالى علاقات الكائن مع ذاته ومع العالم (مراحل تطور العلاقة مع الموضوع).

١ - (أ) المرحلة الفمية الاستقبالية (المصية):

تحتل الأشهر الستة الأولى من الحياة وفيها يكون المحور الرئيس للتعامل مع

---

(١) يعتبر (مخيمر) العدوانية أكثر أساسية من الجنسية. انظر الفصل الأول من رسالة تاريمان للماجستير جامعة طنطا (دراسة مقارنة لمستوى العدوانية عند العمياوات وعند المبصرات) سنة ١٩٧٩، انظر أيضا فى (التناقض الوجدانى) مخيمر - الأنجلو.

العالم هو الفم، وأسلوب التعامل هو الإدماج بالمص. وفى هذه العملية الاستقبالية يتحقق إشباع ليبيدى يوصف بالفمية. وعندما يعانى الطفل الإحباط فإنه يمنح نفسه إشباع ليبيديا فميا ذاتيا بمصه لأصبعه.

(ب) المرحلة الفمية السادية (العضية) :

تحتل النصف الثانى من السنة الأولى. ويكون فيها المحور الرئيس للتعامل مع العالم هو الفم، وأسلوب التعامل هو الإدماج التدميرى بالأسنان لموضوع الحب (تناقض عاطفى). وفى هذه الفترة يمكن القول بأن جميع عمليات الطفل الحسية والحركية (تعض) على العالم وتنتزع منه لتحتفظ بما تنتزعه، وهذه السادية تجد ما يدعمها فى التوترات الناشئة عن التسنين، وفى الإحباطات الناشئة عن الفطام، وفى الصراعات المتصلة بتحقيق الرضاعة دون عض. وتعمل مشاعر النقمة على الأم، وأحاسيس الغضب الكظيم العاجز على دخول المازوشية إلى المسرح إلى جانب السادية. وتتميز هذه المرحلة إذن بتناقض العاطفة والسادية والمازوشية وكذلك بالنرجسية لاهتمامات الطفل المنصبة على جسمه.

٢ – المرحلة الإستية السادية :

تحتل العامين الثانى والثالث، وفيها يكون المحور الرئيس للتعامل مع العالم هو الإست، وأسلوب التعامل هو القذف «الليبيدى للعمود البرازى» أو الإمساك به. ويتحقق الإشباع الليبيدى بتهيج الأغشية المخاطية للإست وبتفريغ المادة البرازية. وحيث إن المادة تتعرض لاحتجازها أو قذفها فإن الطفل يمارس بذلك تناقض العاطفة، وحيث إن عمليات الإخراج تنطوى على دلالية تدميرية، وحيث إن العضلات العاصرة تتيح للطفل أثناء تعلم النظافة إمكانية معارضة للكبار فإن هذه المرحلة تتميز بالسادية، وكذلك تتميز هذه المرحلة بالجنسية الثنائية حيث لم تتمايز بعد الذكورة والأنوثة (البراز أول عطاء من الطفل للعالم).

مرحلة العضو الذكرى

العقدة الأوديبية (وعقدة الخصاء)

كان الطفل حتى الآن تنحصر علاقته بالعالم فى علاقته بأمه بشكل أساسى. كان فى البداية يتجه إليها بفمه ثم بعد ذلك بإسته ولكن الليبدو انتقل الآن بتركيزه فى الإست إلى العضو الذكرى ونعنى القضيب عند الصبى والبظر عند الصبية ولكن ما من إدراك حتى الآن للفارق بين الجنسين. ولما كان التطور يختلف عند الصبى الصغير عنه عند البنت الصغيرة فسوف نلخص ذلك فى الجدول الآتى :

الصبى الصغير	الصبية الصغيرة
١ – يتجه إلى أمه ولكن بقضيبه يريد أن يخترقها ويريد أن تكون له وحده دون شريك ومن هنا يحدث تناقض وجدانى تجاه الأب فهو يحبه ولكن فى نفس الوقت يكرهه كمنافس له فى الأم (عقدة أوديبية إيجابية موجبة الاتجاه وهى العقدة الحقة عند الصبى)(١). ٢ – يدرك الفارق بين الجنسين، ويبدأ يشعر بالخوف على قضيبه ويخشى أن ينزل به نفس العقاب الذى نزل بأخته أى الخصاء كعقوبة على رغبته فى العدوان على أمه بقضيبه. وعملية للختان تزيد من شعور الصبى بتهديد الخصاء فهو فى هذه المرحلة فقط يدرك ما يحدث فى الختان حتى لو كان ختانه يحدث بعد ميلاده مباشرة. ذلك هو ما يعرف بمخاوف الخصاء عند الصبى.	١ – تتجه إلى أمها ولكن ببظرها التى تعتقد أنه قضيبها، تريد أن تخترقها وتريد أن تكون لها دون غيرها، ومن هنا يحدث تناقض وجدانى تجاه الأب فهى تحبه ولكن فى نفس الوقت تكرهه كمنافس لها فى الأم (عقدة أوديبية إيجابية سالبة الاتجاه وهى ليست العقدة الحقة عند البنت). ٢ – تدرك الفارق بين الجنسية، وحسبما تكون استجابتها لخصائصها يكون نمطها الأنثوى(٢). ولكننا سوف نتابع التطور هنا بالنسبة إلى الأنثوية المهبلية وتعرف هذه المرحلة باكتشاف الخصاء.

(١) تكون العقدة إيجابية عندما يكون الطفل فعالا بمعنى أنه يريد أن يخترق بقضيبه، بينما تكون العقدة سلبية عندما يكون الطفل متلقيا للفعل مما يقابل فى الإنجليزية (Active-Passive)وتكون العقدة موجبة الاتجاه عندما يكون الطفل والشخص الآخر من جنسين مختلفين، بينما تكون العقدة سالبة الاتجاه عندما يكون الطفل والشخص الآخر من نفس الجنس مما يقابل فى الإنجليزية (Pos-sitive-Negative)

(٢) عند بداية هذه المرحلة تكون الأم هى موضع الحب ويكون الليبدو مركزا فى البظر ومن هنا تكون الاحتمالات كما يلى:

(أ) إما أن تتشبث على الرغم من إدراكها لخصائصها بحبها لأمها كما تتشبث ببظرها كقضيب بحيث يظل الليبدو مركزا عليه. وفى هذه الحالة تصبح البنت (جنسية مثلية) لا تشتهى غير النساء.

(ب) وإما أن تنقم البنت على أمها لأنها هى التى ولدتها مخصية وتتحول بالحب إلى أبيها فتكون فى هذه الحالة (جنسية غيرية) لا تشتهى غير الرجال.

ولكن يوجد احتمالان في هذه الحالة :

* فهي أما وقد تحولت من أمها إلى أبيها تظل تشتهي الأب ببظرها أي تتشبث بالبظر كقضيب ويظل الليبدو مركزا عليه وفي هذه الحالة تكون جنسية غيرية من نمط المنافحة وتعني هذه أن التي تشتهي الرجل على أنها رجل وتكون حياتها الزوجية في المستقبل عراكا بين ذكرين أو كما قال الرسول (بين وعليه) أو كما يقال بالعامية (بين ديكين). ومثل هذا النمط المنافح من النساء تبذل كل جهدها للانتصار على الرجل والتفوق عليه حتى في المجال المهني لتثبت أن بظرها الصغير أكثر فعالية من قضيبه.

* أما الاحتمال الثاني فهو أن البنت وقد تحولت بالحب عن أمها إلى أبيها، تتخلى عن البظر ويسقط الليبدو من البظر إلى فتحة المهبل بحيث ترغب في أن تحصل من أبيها عن طريق الحمل على ذكر فيكون في خروج القضيب من أحشائها ما يعوضها عن القضيب الذي لم يكتب لها وفي هذه الحالة تكون الجنسية الغيرية من نمط المهبلية وهي الأنثوية المكتملة.

(جـ) وإما أن تشعر البنت بالظلم بعد اكتشافها لخصائصها فتتوقف عن حبها لأمها ولكن لا تتحول إلى أبيها، وتتخلى عن بظرها ولكن دون أن يسقط الليبدو إلى مهبلها.. إنها باختصار تتنازل عن مجال الجنسية وتصبح كعاملات النحل النشيطة، ومفيدة من الناحية الاجتماعية ولكن بلا جنسية وفي هذه الحالة تكون المتبلدات اللائي عادة ما ندين لهن بالكثير من الخدمات في الصليب الأحمر وما إلى ذلك.

تلك هي الأنماط الممكنة للأنوثة عند فرويد.

ولكن مخيمر في كتابه (في التناقض الوجداني) يرفض نمط المهبلية الخالصة ويقول بنمط جديد هو نمط المهبلية صاحبة القضيب السيكولوجي وهذا النمط يتقبل أنوثته بشكل مكتمل ضمن حدود العملية الجنسية ولكنه فيما عدا ذلك لا يختلف عن أكثر الرجال إيجابية ونجاحا متفوقا.

ويتبقى أن نذكر أن فرويد لا يقتصر على هذه الأنماط، فهو يذكر أن نمط البظرية – المهبلية هو أكثر ما يكون شيوعا وهو نمط يجمع بين الاحتمالين الممكنين من احتمالات الجنسية الغيرية التي شرحناها في البند (ب).

الصبى الصغير	الصبية الصغيرة
٣ – إنقاذا لقضيبه من الخصاء، يتنازل عن أمه متجها فى حب زائف وسلبية مفتعلة إلى أبيه يتوحد معه فيأخذ عنه قيمه واتجاهاته. وينتج عن هذا الاستدخال نشأة الأنا العليا لديه (عقدة أوديبية سلبية سالبة الاتجاه وتسمى بعقدة صبى المعلم.	٣ – تعزف البنت عن أمها ناقمة عليها وتتجه بالحب إلى أبيها ومن هنا تكون مظاهر مسرفة تعبر عن عشقها لأبيها وكراهيتها لأمها تماما كالمرحلة (١) عند الصبى (عقدة أوديبية سلبية موجبة الاتجاه وهى العقدة الحقة عند البنت.
٤ –	٤ – تخاف البنت من فقدان حب أبويها نظرا لأن الأم والأب لا يرضيان عن مظاهر عشقها المسرف لأبيها ولا عن مظاهر كرهها المسرف لأمها ومن هنا تعزف البنت نسبيا عن أبيها متجهة بالحب الزائف وبالسلبية المفتعلة إلى أمها تتوحد معها وتأخذ عنها قيمها واتجاهاتها وينتج عن هذا التوحد نشأة الأنا العليا لديها (عقدة أوديبية سلبية سالبة الاتجاه وتسمى بعقدة صبية المعلمة).
٥ – لا يلبث الصبى الصغير وقد تشرب من أبيه الصنعة عن طريق التوحد، حتى يعزف عن الأب ولكنه لا يستطيع العودة إلى أمه لما ينطوى عليه ذلك من تهديد بالخصاء. ومن هنا يتجه إلى ابنة الجيران وتتم بذلك تصفية العقدة الأوديبية (وفى حالة ما ينتقل الصبى من أمه إلى أخته يكون عليه أن يتابع التطور حتى يعزف تحت ضغط الأنا العليا التى تكونت عن أخته إلى ابنة الجيران أو غيرها كموضوع غير محارمى.	٥ – لا تلبث البنت الصغيرة وقد تشربت الصنعة عن طريق التوحد، حتى تعزف عن الأم ولكنها لا تستطيع العودة إلى الأب خوفا من فقدان الحب، ومن هنا تتجه إلى إبن الجيران وتتم بذلك تصفية العقدة الأوديبية (وفى حالة ما تنتقل البنت من أبيها إلى أخيها يكون عليها أن تتابع التطور حتى تعزف تحت ضغط الأنا العليا التى تكونت عن أخيها إلى ابن الجيران أو غيره كموضوع غير محارمى).

ملاحظات عن الأوديبية

١ – العقدة الأوديبية ليست بمصيبة أو بمرض، فالعقدة لا تعنى التعقيد Com-plication (أى الكلاكيع)، بل تعنى عدم البساطة والثراء، فالكلمة الإنجليزية Com-plix هى عكس Simple ومن هنا توصف الأوديبية بأنها عقدة إنما يعنى عدم بساطة العلاقات التى أصبحت الآن غير قاصرة على الأم بل تشمل الأب، وغير قاصرة على الحب أو الكراهية بل تشمل التناقض الوجدانى الذى هو حب وكراهية معا لنفس الشخص.

وعليه فالعقدة الأوديبية ليست بكارثة تنزل على الطفل، بل هى موقف حيوى يتحتم على كل طفل أن يعيشه ومتى تمكن الطفل من تصفيته يكون قد أرسى بذلك دعائم سويته إلى آخر العمر. بينما إذا عجز عن هذه التصفية يكون قد أرسى بذلك دعائم مرضه المقبل. ذلك أن الصبى الصغير مثلا عندما يتنازل عن أمه يكون بذلك قد تعلم أن يتنازل عن مبدأ اللذة احتراما لمبدأ الواقع، وذلك لأنه يكون قد تعلم التنازل عن أول موضوع حبيب وعن أعظم موضوع حبيب لديه، وبالتالى يسهل عليه بقية عمره أن يتنازل عن أى شئ احتراما لمبدأ الواقع. إنه يكون بذلك قد تعلم التسامح تجاه أعظم التوترات والإحباطات وليست السوية غير قدرة المرء على تحمل غدر الأيام والليالى، وأكثر من ذلك أن التفكير يكون مستحيلا بغير قدرة الفرد على تأجيل الاستجابة مما يعنى القدرة على التسامح تجاه التوترات، مما يمكنه بنوع من التجريب من توقع النتائج المقبلة. وعلى العكس من ذلك فى حالة الطفل الذى يعجز عن تصفية الموقف الأوديبى ، ففى هذه الحالة يكون من المستحيل عليه بعد نشأة الأنا العليا لديه أن يستمر فى الشعور بحفزاته ورغباته المستهجنة ومن هنا تقوم الدفاعات بكبتها أى باستبعادها من الشعور وإعادتها من حيث أتت إلى جهاز الهى بل وتسد عليها الدفاعات طريق العودة من جديد إلى الشعور، بذلك تكون العقدة الأوديبية قد انكبت أى أصبحت لا شعورية، فبذلك يتكون العصاب الطفلى الذى هو بمثابة البذرة التى لابد منها لتزهر فى المستقبل شجرة المرض النفسى أو العقلى.

ومن هنا يعتبر التحليل النفسى العقدة الأوديبية بمثابة المرحلة الحاسمة التى

يتقرر فيها مصير الشخصية، ليس فقط من حيث السوية أو اللاسوية بل وأيضا من حيث نمط الذكورة أو الأنوثة. فهي موقف حيوى يتحتم على كل طفل أن يعيشه، وحسبما تكون استجابته يكون مصيره.

٢ - يتضح من جدول العقدة الأوديبية أن الصبى ينخلع من أمه بأكثر مما تستطيع البنت أن تنخلع من أبيها فالأب يظل فى رأى فرويد الحبيب الأول فى قلب كل فتاة بحيث يكون العشيق والزوج فى أحسن حالاته رقم (٢) ويرجع ذلك إلى أن الصبى يعانى التهديد بالخصاء مما يرغمه على أن ينخلع من أمه بينما لا تتعرض البنت إلا للخوف من فقدان الحب الذى لا يقاس فى تأثيره بالتعرض للخصاء وما ينطوى عليه ذلك من فقدان للقضيب الذى يمثل فى ذاته قيمة نرجسية للصبى الصغير. وربما يتفق مع هذا الأمر ما نجده من قدرة الرجل على حب المرأة بشكل مكتمل. بينما يظل الرجل بالنسبة إلى المرأة نوعا من المرآة (يعكس لها بتلهفه عليها مدى قيمتها النرجسية) وربما يعبر المثل الشعبى عن ذلك فى قوله (إنه عنيف ولكنه معى مجرد خاتم فى إصبعى) ولا يخفى ما ينطوى عليه المثل من إشارة إلى الجنبات السادية عند المرأة (انظر الفصل الرابع من: رسالة فى سيكولوجية الحب، انظر أيضا: فى التناقض الوجدانى).

٣ - ينبغى التنبيه إلى أن جدول العقدة الأوديبية السابق لا يمثل إلا صورة مثلى لما يمكن أن يكون عليه الأمر وذلك عندما يتوحد الابن مع أبيه وتتوحد البنت مع أمها مما يلخصه المثل الشائع فى قوله (اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها)، فهناك كثرة من الصور الأخرى التى يمكن أن يتخذها التوحد. ففى حالة ما يكون الصراع قويا بين الطفل ووالده من نفس جنسه ويعجز الطفل عن فض الصراع فإنه غالبا ما يتوحد مع نقيض قيم والده الذى من نفس جنسه ومع نقيض اتجاهاته؛ بحيث يكون فى مستقبله نقيضا له ومخيبا لأمله. ذلك ما يعبر عنه المثل الشعبى القائل (يخلق من ظهر العالم فاسد ومن الفسيخ شربات) ومن الممكن أيضا أن يكون التوحد متقاطعا بحيث يتم لا مع الوالد من نفس الجنس بل مع الوالد من الجنس الآخر فتتوحد البنت مع أبيها (وتصبح ذكرية)، ويتوحد الابن مع أمه (ويصبح أنثويا على النحو الذى نشهده عند الخنافس والهيبز).

فحرمان الطفل من حب الوالد الذى غير جنسه يجعله يتوحد معه، وكذلك فإن الطفل يميل إلى التوحد مع الوالد الأقوى من والديه والذى يملك القرارات والتنفيذ. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة . وفى حالات أخرى يكون التوحد غير مباشر فلا يتوحد الابن مثلا مع واقع أبيه بل يتوحد مع الصورة التى يريدها الأب له ويعمل على تحقيقها. وهكذا يتحتم فى كل حالة فردية أن نتبين الصورة الفريدة التى تتخذها العقدة الأوديبية فى هذه الحالة بالذات، وبغير ذلك يكون مفهوم العقدة الأوديبية عقيما عديم الجدوى.

٤ – ينبغى التنبه إلى الجنسية الثنائية وأثرها على الصور الممكنة للعقدة الأوديبية. فكل فرد ينطوى على عنصر الذكورة (السادية) وعلى عنصر الأنوثة (المازوشية) ومن هنا تغلبت السادية وكانت الذكورة بالتالى قوية يظل هناك قدر من المازوشية. فمعنى هذا أن كل فرد لديه عقدة أوديبية ذكرية أو عقدة أوديبية أنثوية. فالصبى الذى تغلب عنده السادية تكون لديه عقدة أوديبية معدولة أى ذكرية غلابة. ولكن تكون لديه فى نفس الوقت عقدة أوديبية مقلوبة أى أنثوية باهتة. ويترتب على ذلك أن يكون لدى الفرد الواحد – وإن يكن بدرجات مختلفة– ليس فقط حسد القضيب بل وأيضا حسد المهبل مما يتيح المصالحة بين فرويد وبين ميلانى كلاين.

٥ – هذا التعدد فى الانتظامات والتجسدات التى يمكن أن تتخذها العقدة الأوديبية يزداد بما يفوق كل تصور عندما نضع فى اعتبارنا ذلك التعميم الذى أدخلته مرجريت ميد على التصور الفرويدى للعقدة الأوديبية. فقد قامت بحق بتطبيق المنهج الجاليلى فى تناول الوقائع وتمكنت من البلوغ إلى نمط العلاقة المثالية هذا الذى ينحصر لديها فى أمرين:

(أ) فترة التباعدية الطويلة التى يعيشها الطفل البشرى تجاه أبويه بالقياس إلى عالم الحيوان.

(ب) النضج الجنسى الباكر الذى يتيح للأطفال أن يعيشوا خبرات جنسية مليئة قبل أن يكون لهم أى نضج فسيولوجى فى أجهزتهم التناسلية، وهذه الظاهرة وحدها تكفى عند ميرلو بونتى لتقييم علم النفس كعلم مستقل عن

الفسيولوجيا. هذا العنصران هما اللذان يشكلان نمط العلاقة المثالية وهما اللذان يتجسدان فى تشكيلة من التجسدات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية. ومن هنا فإن الصورة التى قدمها فرويد عن العقدة الأوديبية ليست غير التجسيد الذى يتخذه هذان العاملان فى الحضارة الغربية بل وفى نهاية القرن التاسع عشر، ومن هنا فإن مرحلة الكمون التى يتحدث عنها فرويد ليست غير نتاج للثقافة العربية بحيث لم يعدلها اليوم وجود حقيقى فى الثقافات الغربية.

٦ - إن افتراض اللاشعور الجمعى الذى قال به يونج يبدو بالنسبة إلينا عنصرا ضروريا لتصورنا عن العقدة الأوديبية، وذلك فى الحالات التى ينشأ فيها الطفل بغير أبوين فى إحدى المؤسسات.. فى مثل هذه الحالة تكون العلاقة مع المشرفة كبديل أموى أو مع المشرف كبديل أبوى من الضعف بحيث لا تكفى لتفسير قيام العقدة الأوديبية عند مثل هؤلاء الأطفال ولما كان اللاشعور الجمعى بما ينطوى عليه من (أرشيتيات) يختزن خبرة السلالة يكون بوسعه أن يسد الثغرات فى الخبرة الفردية. وقد أثبت علم النفس التجريبى فى تجاربه على الحيوان انتقال التعلم عبر الأجيال، مما يؤيد إلى حد كبير اللاشعور الجمعى.

٧ - لا ينبغى أن ننظر إلى العقد الأوديبية على أنها شئ مستمر على الرغم من انتمائها إلى الأساطير اليونانية. فكل ما تنطوى عليه هذه التسمية من مضمون ينحصر فى أن النماذج الأصلية الأولى Prototypes لعلاقات الطفل بأبويه أى بالكبار من الجنسين وبإخوته أى بأقرانه من الجنسين تكون حاسمة الأثر فى تشكيل الشخصية. فهذه النماذج الأولى لعلاقاته مع الكبار والأقران ينقلها بمعنى أنها تلقى التعميم بلغة السلوكية أو تلقى الطرح بلغة التحليل النفسى، فيعامل الطفل كل رجل كبير كما يعامل أباه وكل امرأة كبيرة كما يعامل أمه، ويعامل أقرانه فى المدرسة أو الشارع كما يعامل إخوته تبعا للجنس فى كل حالة. وهذا ما تسميه السلوكية بانتقال أثر التدريب.

ويفسر فرويد هذه الظاهرة بتشبيهها بما يحدث للنبتة الصغيرة عند وخزها بدبوس وما قد ينجم عن ذلك من ذبولها أو موتها، بينما نفس هذه الوخزة لا تترك أثرا

يذكر لو أن النبتة كبرت وأصبحت شجرة فالسنوات الأولى من الحياة حاسمة فى تحديدها للشخصية واختلالها. ونفس هذا الأمر تسلم به السلوكية بل يسلم به الفهم الشعبى عندما يقرر أن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ولكن السلوكية تتحدث عن ذلك بلغة المنعكسات التشريطية والعادات سيان فى ذلك أن تكون الشرطيات كلاسيكية على طريقة بافلوف أو تشريطات إجرائية وسيلية أدواتية على طريقة بافلوف أو تشريطات إجرائية وسيلية أدواتية على طريقة ثورنديك وسكينر. وفى رأينا أن مفهوم العقدة الأوديبية لا ينبغى أن يقتصر على السنوات التى حددها فرويد بين الثالثة والخامسة، كما لا ينبغى أن يقتصر على السنتين الأوليين من العمر على النحو الذى تقول به ميلانى كلاين والمدرسة الإنجليزية فكلاهما يبدو على حق. ذلك أن الأوديبية فى رأينا تبدأ منذ بداية الحياة بل وتمضى بعد الخامسة والسادسة إلى البلوغ والمراهقة وكل ما فى الأمر أن محور الأوديبية يكون فى البداية هو الفم ثم يصبح فى بعض الثقافات هو الإست ثم ينتهى الأمر إلى أن يكون المحور هو العضو الذكرى.. بذلك تكون العقدة الأوديبية مجرد مفهوم – مفتاح – يعيننا على فهم الوقائع، ولا ينطوى فى رأينا على أكثر من النماذج الأصلية الأولى للعلاقات مع الآخرين بل العلاقات مع الحياة بأحيائها وأشيائها. وغالبا ما تميل هذه النماذج الأصلية الأولى إلى المثابرة والاستمرار مع الزمن ولكن أحيانا ما تتعدل نتيجة لخبرات الفرد أو نتيجة للعلاج النفسى الذى يكاد يقتصر على تصحيح هذه النماذج الأصلية الأولى التى كانت دعامة للمرض، ومن ثم يفتح الباب فسيحا أمام الحياة السوية.

ملحوظة:

السادية هى أن يشعر الفرد باللذة عند إيلامه للآخرين مما يسميه يونج (أنيموس)، أما المازوشية فهى أن يشعر الفرد باللذة عندما يعانى الألم مما يسميه يونج (أنيما). وفى علم النفس لا تتحدد الذكورة أو الأنوثة بالرجوع إلى الأساس التشريحى (وجود قضيب أو مهبل) بل تتحدد بتغلب السادية فتكون الذكورة أو تغلب المازوشية فتكون الأنوثة، ولكن مهما كانت غلبة أحد العنصرين يظل العنصر الآخر قائما.

٤ – مرحلة الكمون: تحتل الفترة ما بين السادسة والبلوغ. وفيها تضعف

الحفزات الغريزية بفضل الأوضاع الثقافية ويسقط حجاب من النسيان (امنيزيا الطفولة). ينسى الطفل الانحراف المتعدد الأشكال ويستدخل المبادئ الأخلاقية جاعلا منها سدودا حاجزة فى وجه الغرائز.

ومن هنا فعندما تعود الغرائز الجنسية إلى الظهور مع البلوغ تفاجئها هذه السدود الأخلاقية التى لم تعرفها فى الماضى. وخلال مرحلة الكمون لا تتلاشى الغرائز الجزئية (النزعات الفمية والإستية والسادية والمازوشية والإسكوبتوفيليه والاستعراضية) بل تتكامل فى الحالات السوية تحت راية الجنسية التناسلية التى يعد الجماع إدارتها التنفيذية إلى الإفراغ.

ومراحل النمو هذه عند فرويد ترتبط ارتباطا وثيقا بنشأة الأمراض العصابية فعندما يعانى الطفل إفراطا أو تفريطا فى إشباع فى مرحلة من المراحل فإنه يعانى التثبيت عندها ، وهذا التثبيت الغريزى هو الذى يتيح عودة النزعات المكبوتة وهى النزعات المميزة لهذه المرحلة التى يتم عندها التثبيت.ويحدث ذلك عندما يواجه الفرد موقفا يناله بالإحباط الشديد، فيكون بالتالى نكوصه إلى نقطة التثبيت ليجيب عن الموقف الذى عجز عن مواجهته كراشد، باستجابة طفلية يكرر فيها الماضى. ذلك هو صميم الأمراض العصابية والانحرافات الجنسية.

هذه النظرية التى قدمها فرويد عام ١٩٠٥ ولحقت بها التعديلات بعد ذلك إنما تقدم خطوطا عريضة لبعض المحطات الرئيسة التى يمر بها النمو. وليست هذه المراحل نتاجا حتميا لعملية بيولوجية داخلية بل إنها تتوقف إلى حد كبير على نوعية التأثرات البيئية عامة والثقافية خاصة على نحو ما تتجسد هذه وتلك فى الإطار الأسرى من حيث هو مسطح ثقافى محلى يتحدد بدرجة كبيرة بالرجوع إلى الوالدين ممثلين للمجتمع كعميلين للثقافة لهما فهمهما الخاص وشخصياتهما المتميزتان.

«تربية الغرائز»

إن التطور الذاتى للغرائز بصورة داخلية ومن تلقاء نفسها مسألة يستحيل التسليم بها فى حالة الإنسان، فلابد من تعديل التطور الغريزى على نحو يسمح للأفراد بالكيف مع الأهداف النوعية لمجتمعهم. ذلك هو ما يمكن التعبير عنه بالانتقال من مبدأ اللذة

إلى مبدأ الواقع أو بعملية التطبيع الاجتماعى، وما يلحق بها من تطابقات أو ما يعرف بالعمليات الثانوية أو ما يسميه البعض بالتعلم والبعض بالتربية.

صحيح أن مصدر الغرائز ثابت ولكن موضوعها وهدفها ينفتحان فى مرونة للتأثيرات البيئية. فالفطام إزاحة من الثدى إلى «البزازة» فإلى الطعام، والعقوبة البدنية يمكن أن تقلب السادية إلى المازوشية.

والتصعيد إعلاء لموضوع الغريزة وهدفها إلى ما يعد أكثر سموا من الناحية الاجتماعية فلا يكون الهدف غريزيا.

وعليه فالغرائز وإن قامت بدور تكيفى عند الحيوان فإنها تعجز عن ذلك عند الإنسان فلابد إذن من التطبيع الاجتماعى والتعلم. وفى هذا ما يجعل مسئولية التكيف وظيفة للأنا، ومن هنا فإن فرويد يرجع الحضارة وتطورها إلى هذا التطبيع الاجتماعى الذى ينال الغرائز، فينقلها من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع. فالعلم ترجمة نموذجية لمبدأ الواقع وليست التربية غير تراجع مطرد لمبدأ اللذة أمام مبدأ الواقع. وأما الفن فنمط فريد يصالح ما بين المبدأين. فالفن بعد عن الموضوعية إلى الذاتية التى تتحول بمشاركة الناس إلى موضوعية جديدة.

نظرية التحليل النفسى فى الشخصية

فى نظريته الأولى :

يقتصر فرويد على تقديم الكيفيات الثلاث التى تتخذها العمليات النفسية، فهناك العمليات الشعورية وقبل الشعورية واللاشعورية. وإذا كانت العمليات قبل الشعورية كامنة إلا أنا صاحبها يستطيع بشئ من الجهد أن يستحضرها إلى الشعور ولكن هذا يستحيل بالنسبة إلى العمليان اللاشعورية.

كان فرويد يتصور الصراع على أنه صراع ما بين العمليات الشعورية والعمليات اللاشعورية حتى تبين عن طريق الخبرة الكلينيكية، أن ما هو لا شعورى ليس بالضرورى مكبوتا مما يتضح بشكل بارز فى حالة القوى الكابتة (ميكانيزمات الدفاع) التى تعمل على نحو لا شعورى، وقد مهد ذلك لنظريته الثانية فى تركيب الجهاز

النفسى وفى نظريته الثانية:

يقرر فرويد أن الجهاز النفسى يشتمل على ثلاث منظمات فرعية: **الهى – الأنا – الأنا العليا.**

أولا، جهاز الهى:

يمثل الصورة الأولى للجهاز النفسى فهو المادة الأولية التى يتمايز منها الجهازان الآخران.

ويشتمل جهاز الهى على القوى الغريزية وعلى المكبوتات من خبرات وحفزات ووجدانات وأفكار أعيدت ثانيا إلى الهى دون أن تدخل الشعور (كبت أولى) أو بعد أن بلغت الشعور (كبت ثانوى) وكذلك يشتمل جهاز الهى على أخاييل مثل تراث السلالة البشرية وتقوم على سد الثغرات فى الخبرة الفردية، وهذا هو اللاشعور الجمعى فى مقابل اللاشعور الفردى السابق ذكره، وحفزات الهى دينامية تجاهد من أجل الإشباع أى البلوغ إلى الشعور وذلك بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى. فجهاز الهى هو مملكة مبدأ اللذة فلا تناقض ولا علاقات منطقية أو زمانية. ومن هنا تكون إمكانية تكثيف المتناقضات وإمكانية الإزاحة وما إلى ذلك من عمليات أولية (النمط الأولى) تظهر فى عمل الحلم وتخصص منطق الهى فاللاشعور لا يعرف النفى أو الشك أو التناقض، والحفزات الغريزية حين تكون مقبولة من الأنا لا تلقى معارضة، وبالتالى لا يكون الشعور بها فى صورة صراع، أما حين تلقى معارضة من الأنا فيكون الدفاع ومن ثم يكون الصراع. هذه الدفاعات هى التى تحول دون الدوافع اللاشعورية المكبوتة وتمنعها من البلوغ إلى الشعور. ومن هنا تكون:

١ – أهمية الأحلام إذ تضعف رقابة الشعور أثناء النوم.

٢ –أهمية الهفوات والأفعال الإعراضية إذ تضعف رقابة الشعور بفعل التعب أو الشرود.

٣ – وأخيرا أهمية الاختبارات الإسقاطية إذ تتيح المثيرات بعدم تحددها من فرص التأويل ما يسمح للدوافع اللاشعورية بأن تفلت فتندس فى الإجابات، فدلالة الموقف تستغلق على الشعور ومن ثم لا تتحرك الدفاعات.

ثانيا : جهاز الأنا :

ينشأ اشتقاقا من جهاز الهى نتيجة احتكاكه بالواقع، ويشتمل جهاز الأنا فى جانبه الشعورى على كل ما نشعر به من إدراكات وعواطف وانفعالات وتفكير منطقى .. الخ. بينما يشتمل فى جانبه قبل الشعورى على الذكريات والمعارف الكامنة، فقبل الشعور هو أشبه ما يكون بمخزن يزود الشعور بالذكريات التى تلزمه. ولكن فى رقابة منه بحيث لا تفلت من الذكريات أو الحفزات ما يثير عند الفرد مشاعر الاستهجان أو أحاسيس الخطر. ويخضع ما قبل الشعور لمبدأ الواقع، أما الجانب اللاشعورى(١) من جهاز الأنا فيضم ميكانيزمات الدفاع التى هى القوى الكابتة. وجهاز الأنا هو مملكة مبدأ الواقع فهو يضطلع بتحقيق التكيف بين الشخصية والعالم الخارجى، وداخل الشخصية بين حاجاتها المتصارعة.

كذلك تضطلع الأنا بتنظيم الوصول إلى الشعور والسماح بالتعبير الحركى فهى تتحكم فيما ينبغى إدراكه أو فعله. كما تضطلع الأنا بالتوجيه وجدولة الدوافع والأنشطة وتعديل مستوى التطلع وفى هذا كله تسعى ليس فقط إلى خفض التوترات بل أيضا وما أمكن إلى تحقيق الإمكانات. ولكنها فى وظائفها هذه تتعرض لضغوط الهى والأنا العليا مما قد يرغمها على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يكفها عن العمل.

ثالثا : جهاز الأنا العليا :

ينشأ اشتقاقا من الأنا، بمعنى أنه تعديل للأنا يتم عن طريق استدخال دوافع الكبت واستدخال الصورة المثالية للوالد من نفس الجنس إبان التوحدات التى تحدث عند تصفية الصراع الأوديبى، مما يتمخض عن نشأة الضمير الخلقى. وأما المثل الأعلى للأنا فصورة معدلة للوهم الطفلى فى تملك القدرة المطلقة وقد تشكلت بفعل التوحدات اللاحقة. وإذا كان الضمير الخلقى هو المرجع فى تقدير الذات من حيث

---

(١) فيما يتصل باللاشعور، ينبغى التنبه إلى أنه افتراض لابد منه لفهم الظواهر الشعورية هذا إلى كثرة من الوقائع تحتم القول بدوافع لا شعورية، فالأوامر التى تعطى أثناء التنويم ينفذها الشخص بعد أن يصحو وكأنها نابعة من محض رغبته واختياره الحر. وفهم الأحلام والهفوات والأفعال الإعراضية يستحيل بغير افتراض الدوافع اللاشعورية وكذلك بالنسبة للأعراض المرضية.

البراءة أو مشاعر الإثم والاشمئزاز والخزى فإن المثل الأعلى للأنا هو المرجع فى تقدير الذات من حيث الشعور بالكفاية والرضى عن الذات. وتضطلع الأنا العليا بوظيفة مهمة إذ إن تحالفها مع الأنا هو الذى يضمن الدفاع ضد الغرائز. ولكن يتبدى نشاط الأنا العليا بشكل بارز فى حالة ماتكون فى صراع مع الأنا فتعمل على إنماء مشاعر الإثم والاشمئزاز ... الخ، بحيث تجعل الحياة فى بعض الحالات جحيما لا يطاق (كما فى السوداوية) . ذلك أن الأنا العليا حين لا تكتمل نشأتها على نحو صحيح يغلب عليها المنطق الفج وتتسم بالسادية فى تعاملها مع الأنا.

المفاهيم - المفاتيح للتحليل النفسى (ميتاسيكولوجيا)

١ - الدينامية :

يعنى هذا المفهوم الكل العضوى أى الجشطلت فى مقابل الكل الذراتى أى الإضافى. فالظاهرة النفسية من حيث هى كل كانت تعتبر قديما بمثابة تجميع لعدد من الأجزاء. لم يكن الكل أكثر من حاصل جمع لهذه الأجزاء التى لم تكن فى واقع الأمر تزيد على «كسر» لا علاقة فيما بينها. ولكن تطور علم النفس وخاصة مع نظرية الجشطلت قد انتهى به إلى أن يتبين أن الظاهرة النفسية هى كل عضوى، كل دينامى جشطلت، فالكل النفسى ليس حاصل جمع الأجزاء «كسر» بل هو هذا الانتظام الذى ينتج كمحصلة للصراع بين جميع الأجزاء الحقيقية العضوية فالحلم من حيث هو سلوك ليس غير محصلة للصراع بين قوتين: مكبوتات تريد أن تخرج ودفاعات تعترض طريقها فى صورة رقابة وبذلك يكون الحلم إشباعا للمكبوتات ولكن على نحو من التنكر احتراما للدفاعات. تلك كانت البداية التى كشفت لفرويد الطريق إلى فهم الأعراض المرضية، فهى ليست غير محصلة للصراع بين المكبوتات والدفاعات وكذلك الحال فى السلوك السوى بل وبالنسبة إلى الشخصية برمتها. ذلك هو المعنى الدقيق والكامل للدينامية.

٢ - الوظيفية :

يعنى هذا المفهوم الكل الوظيفى فى مقابل الكل الميكانيكى، فالظاهرة النفسية كانت تعتبر قديما بمثابة كل ميكانيكى تتابع فيه الأجزاء (المنعكسات) فى آلية تجهل

كل هدف أو قصد أو دلالة. تلك كانت السلوكية الواطسونية ولكن تطور علم النفس انتهى به مع كل المدارس إلى أن يتبين أن الظاهرة النفسية هى فى صميمها وظيفة وهدف.

فالظاهرة النفسية هى كل وظيفى، هى وحدة وظيفية.

والسلوك هو فى صميمه تلك الوظيفة(١) التى يسعى إلى تحقيقها. ذلك ما انتهت إليه السلوكية بعد واطسن.

ولكن التحليل النفسي لم يقف عند ذلك. فقد تبين أن السلوك المختل ينطوى هو أيضا على وظيفة بل وعلى أكثر من وظيفة لأن السلوك غالبا ما يرجع إلى أكثر من سبب (التحتيم بأكثر من سبب). وقد أمعن التحليل النفسي فى ذلك الى الحد الذى جعل منه النظرية الوظيفية لاختلالات السلوك.

الى هنا تجمع مدارس علم النفس كلها. فالدينامية والوظيفية مفهومان أساسيان فى جميع مدارس علم النفس وذلك الى الحد الذى نجد معه أن تعريف الشخصية لا يزيد عن أن يكون ترجمة لهذين المفهومين. فالشخصية هى هذه الجشطلت أو هذا الانتظام الدينامى الذى تنحصر وظيفته فى تحديد توافقات الفرد مع البيئة والسلوك ليس غير هذه الجشطلت أو هذا الانتظام من التجارب الشعورية والعمليات الفسيولوجية والمسالك الخارجية والذى تنحصر وظيفته فى أنه وسيلة الكائن فى الموقف الى تحقيق إمكاناته وخفض توتراته التى تدفعه الى الحركة بتهديدها لاتزانه (تكامله). وثمة مفاهيم أساسية أخرى ينفرد بها التحليل النفسي، عادة ما تسمى بالميتاسيكولوجية.

٣ – النشوئية:

ويعنى هذا المفهوم أن نفهم السوية واللاسوية بلغة الارتقاء والنكوص. فالكائن البشرى يجتاز مراحل متتابعة من النمو حتى يبلغ الرشد. يبدأ من المرحلة الفمية ثم ينتقل الى الإستية السادية، ثم تأتى مرحلة العضو الذكرى بعقدتها الأوديبية ثم مرحلة

---

(١) فى كتابه تفسير الأحلام عام ١٩٠٠ لم يقتصر على الدينامية (الحلم محصلة صراع بين حفزات مكبوتة ودفاعات)، بل قال بالوظيفية، فالحلم وظيفته حراسة النوم بأن يتيح إشباعا هلوسيا للرغبات التى تهدد بإيقاظ النائم.

الكمون ثم البلوغ(١) فمرحلة من المحاولات والخطأ يكون فى ختامها الرشد. والكائن الذى يجتاز كل هذه المراحل هو كائن سوى ولكنه إذا تخلف عند مرحلة من المراحل السابقة أو نكص من جديد إلى واحدة من هذه المراحل تكون اللاسوية.

فالنكوص الى مرحلة العضو الذكرى يكون فى حالة الفوبيات والهيستيريا والنكوص الى الإستية السادية يكون فى العصاب القهرى، أما النكوص الى المرحلة الفمية فيكون فى حالة الأمراض العقلية.

٤ – الطبوغرافية :

ويعنى هذا المفهوم أن كل صراع لابد وأن يتم بين منظمتين، فلا صراع داخل الهى ولا صراع داخل الأنا بل يكون بين هاتين المنظمتين.. بين الهى بحفزاتها الغريزية والأنا بدفاعاتها المختلفة.

أما منظمة الأنا العليا فعادة ما تساند الأنا فى وقفتها ضد الهى ومع ذلك فإنها فى بعض الحالات كالعصاب القهرى (الوسواس) تقف فى وجه الأنا بحيث يتحتم على هذه الأنا أن تحارب فى جبهتين: ضد الهى من ناحية وضد الأنا العليا من الناحية الأخرى.

٥ – الاقتصاديات النفسية :

ويعنى هذا المفهوم كمية الطاقة النفسية التى تعتبر ثابتة عند الفرد والتى تختلف باختلاف الحيلة.. هذه الطاقة يضيع بعضها عند الفرد فى صورة مكبوتات ويضيع بعضها الآخر فى صورة دفاعات وتكون الطاقة المتبقية تحت تصرف الجانب الشعورى وقبل الشعورى من الأنا معيارا لقوة هذه الأنا.

فبقدر ما تكون الطاقة المتبقية كبيرة فى كميتها تكون الأنا قوية فى وجه المنظمتين الأخريين وبالتالى تكون الشخصية قوية.

وبدهى أن الصراع بين قوتين تتحد نتيجته تبعا لكمية الطاقة المستثمرة فى كل قوة من هاتين القوتين المتصارعتين بحيث يمكن التنبؤ نسبيا بما ستكون عليه نهاية

---

(١) انظر تناول جديد فى المراهقة – مخيمر – الأنجلو.

الصراع من تغلب الحفزات الغريزية أو تغلب دفاعات الأنا. والتحليل النفسى إذ يخرج المكبوتات ويلغى الدفاعات المرضية يعيد الى الأنا ما كان مضيعا من الطاقة فتصبح الأنا قوية وبالتالى تصبح الشخصية قوية.

فى المبادئ التفسيرية

كان فرويد حتى عام ١٩٢٠ يفسر كل شئ عن طريق مبدأ اللذة والألم، ولكنه أدخل بعد ذلك مبدأ قهر التكرار الذى يعمل فيما وراء مبدأ اللذة والألم. وهذا التطور يناظر إدخاله لغريزة الموت (العدوانية أو التدمير) الى جانب الحياة التى أصبحت تضم ما كان يقول به من غرائز جنسية وغرائز الأنا.

١ – مبدأ الثبات :

ويعنى ميل الكائن الحى الى إزالة التوترات أو على الأقل خفضها الى مستوى ممكن. وهذا المبدأ نجده تحت أسماء كثيرة. ففى الفسيولوجيا والسلوكية يسمى الهوميوستازس بينما فى العلوم الطبيعية يسمى مبدأ لوشاتلييه أما فى علم النفس العام فيسمى مبدأ الانضباط الذاتى أو الاتزان التلقائى. وفى نظرية الجشطلت يسمى قانون الامتلاء أو أحسن جشطلت ممكن.

استعار فرويد مبدأ الثبات هذا من فخنر ليفسر به على السواء عمليات الإفراغ الكامل فى الإشباع والإعلاء وعمليات الإفراغ الجزئى فى حالات الدفاع الفاشل.

٢ – مبدأ اللذة والألم :

يعتبر اشتقاقا من مبدأ الثبات فمؤداه أن كل سلوك يرجع إلى توتر أليم ويستهدف التخلص من هذا الألم تحقيقا للذة ما أمكن. ويهيمن مبدأ اللذة على منظمة الهى حيث يتخذ صورة العمليات الأولية التى تعرف بالنمط الأولى (تكثيف – وإزاحة – ورمزية .. الخ).

معنى ذلك أن مبدأ اللذة يهيمن فى الطفولة أما فى الرشد فإنه يتضح فى أحلام اليقظة وأحلام النوم وفى محاولات الراشد المختلفة لتجنب الألم (إنكار وكبت .. الخ).

٣ – مبدأ الواقع :

يمثل الصورة المعبرة لمبدأ اللذة أو قل هو مبدأ اللذة وقد تلاءم مع مقتضيات

العالم الخارجى. فمبدأ الواقع يستهدف نفس الشئ كمبدأ اللذة العاجلة التى تتعارض مع الأمن من أجل لذة آجلة تتفق مع ما يتطلبه الفرد من أحاسيس الأمن والرضا عن الذات. وعملية النمو ليست غير انسحاب مطرد لمبدأ اللذة أمام مبدأ الواقع. ويتبدى مبدأ الواقع فى ارتقاء الوظائف الشعورية توافقا مع العالم الخارجى (فالحكم العقلى يأخذ مكان الكبت، والفعل الملائم يأخذ مكان مجرد الإفراغ).

معنى ذلك أن يصبح الفرد قادرا على التسامح تجاه التوترات أى قادرا على تحمل زيادة التوتر أثناء تأجيل الإفراغ وقيامه بالحكم العقلى (انظر فى ذلك أهمية العقدة الأوديبية) فالتفكير نوع من التجريب العقلى يقوم على تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج البعيدة للسلوك. وبدهى أنه بقدر ما يستقر مبدأ الواقع تنفصل قطاعات بأسرها من النشاط عن مبدأ اللذة، ولكن الغرائز الجنسية التى يتأخر نضجها تظل خلال فترة طويلة تحت هيمنة مبدأ اللذة. ومن هنا يكون ارتباط الغريزة الجنسية قويا بالخيال والأخاييل التى تنطوى على إشباع هلوسى، وكذلك أيضا يكون الكبت هو الاستجابة الخيالية إن جاز القول تجاه كل ما يبدو أليما. وهذا الكبت هو بمثابة توقف فى التطور، وحسبما تكون نقطة التوقف هذه (التثبيت) تكون فى المستقبل نوعية العصاب.

٤ – مبدأ قهر التكرار للخبرات القوية سيان كانت مفيدة أو ضارة أو أليمة.

بمعنى آلية تكرار للخبرات القوية سواء كانت مفيدة أو ضارة أو أليمة.

وهنا ينبغى التفرقة بين «تكرار الحاجة» الذى يستند إلى دورية الغرائز وبين «الحاجة إلى التكرار».

تنبه فرويد إلى التكرار فى عملية الطرح وفى الأعصبة الصدمية وأعصبة القدر (حيث تتكرر نفس الأحداث الأليمة). بعض ظواهر التكرار هذه يمكن فى الواقع إرجاعها إلى مبدأ اللذة. فالتوتر الذى لم تتحقق السيطرة عليه فى حالة الصدمة يتطلب تكرار المحاولات للتخلص بعد الأوان وعلى مرات من فائض التوتر. ولكن تبقى بعد ذلك ظواهر أخرى من تكرار المسالك غير المتكيفة والخبرات الأليمة.

ذلك هو ما دعى فرويد منذ عام ١٩٢٠ إلى تنصيب قهر التكرار مبدأ يعمل فيما وراء مبدأ اللذة ويرتبط بغريزة الموت، فليس الأمر هنا بتكرار الحاجة أو بفائض توتر

تخلف عن صدمة بل هو حاجة مستقلة إلى التكرار تتخطى مبدأ اللذة. ومما يدعم هذا الافتراض، أن كل حياة تنتهى إلى الحالة اللاعضوية التى كانت عليها قبل الحياة وأن كل جنسية تستهدف التناسل الذى لا يعدو أن يكون نوعا من التكرار.

يعترض البعض على هذا المبدأ محاولين إرجاع هذا النوع من الظواهر التكرارية إلى مبدأ اللذة. فالمسالك غير المتكيفة والخبرات الأليمة هى نتاج دفاعات فاشلة تتحرك كلما تحركت الرغبة الغريزية بشكل دورى ودورية الغرائز مغروسة فى مصادرها البدنية. ولكن يظل من الغريب مع ذلك أن يكون مبدأ الواقع عاجزا عن تصحيح هذه المسالك غير المتكيفة وهذه الخبرات الأليمة أو الضارة وربما يكون الحل فى اعتبار قهر التكرار تعبيرا عن القصور الذاتى للمادة. فالخبرات القوية تنزع إلى التكرار سيان كانت لاذة أو أليمة، مفيدة أو ضارة، تلك آلية غريزية تقع فيما وراء مبدأ اللذة، فإذا كانت الأنا قوية أو أتيح لها ذلك عن طريق التحليل استطاعت أن تقف فى وجه قهر التكرار. أما فى غير ذلك من الحالات فإنها تعانى فى سلبية هذا التكرار القهرى.. فى الحالة الأولى توقف الأنا آلية التكرار. وفى الحالة الثانية تعانى الأنا آلية التكرار. هذا إلى الحالات الصدمية التى تكون آلية التكرار فى خدمة دفاعات الأنا وإلى الحالات العادية التى يكون فيها التكرار مجرد تكرار للحاجة يستند إلى دورية الغريزة، هذا الصراع بين مبدأ اللذة وقهر التكرار شبيه بالصراع فى السلوكية بين قانون الأثر وقانون التواتر أى الدربة (مرات التكرار).

وإذا كان مبدأ الثبات شبيها بمبدأ الهيموستازس فإن مبدأ الواقع من حيث هو عمليات ثانوية وتعلم شبيه بقانون الأثر.

وهكذا تتضح الموازاة بين مدارس علم النفس فالمسالك غير المكتفية والخبرات الأليمة فى تشبثها بالبقاء والاستمرار تشكل مشكلة رئيسة بما تكون أعوص مشكلات علم النفس على الإطلاق.

من مبدأ خفض التوتر إلى مبدأ اشتهاء التوتر المثير

كل المبادئ التفسيرية السابقة، والخاصة بالمسالك السوية تقوم على أساس واحد، هو خفض التوتر. والواقع أن هذا المبدأ لا يقتصر على التحليل النفسى، بل يتخطاه إلى

المدارس الأخرى. فإذا كانت الحياة سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها، من ضياع الاتزان ومحاولة إقامته من جديد، مما يعرف عادة تحت اسم التكامل، تكون الفكرة الأساسية، هى اتزان يتهدد الاحتياج أو الانحطام فى صورة التوترات والصراعات، ومحاولات لاستعادة الاتزان نفسه إن أمكن، وإلا تحقيق أفضل توازن ممكن تسمح به الظروف القائمة.

ومن هنا، فإذا كان التحليل النفسي يستخدم لافتات مبدأ الثبات، ومبدأ اللذة والألم، ومبدأ الواقع، فإن نظرية الجشطلت تتحدث عن نفس الشئ تحت اسم قانون الامتلاء أو أحسن جشطلت ممكنة.

أما النظرية السلوكية فنفس الظاهرة هذه، تحمل لافتة الهوميوستازس أى مبدأ اتزان الوظائف البدنية، وهو مبدأ يستخدم أيضا فى الفسيولوجيا.

وفى علم النفس العام يكون الحديث عادة عن الانضباط الذاتى، أو الاتزان التلقائى، إشارة إلى نفس الشئ، وأكثر من ذلك أن هذا المبدأ ينطبق على جانب كبير من ظواهر الطبيعة ويتحدث عنه علم الطبيعة تحت اسم مبدأ لوشاتلييه Le Chatllier وبيان ذلك من الزاوية التى تعنينا هنا أن الفرد طالما ينجح فى فض صراعاته على مستوى عمره، أى على مستوى الرشد إن كان راشدا، فهو ينتمى إلى السوية وهو فى هذه الحالة يعيد الاتزان إلى ما كان عليه، أما عندما يفشل الفرد فى ذلك فإنه يحاول فض صراعاته على مستوى نكوصى وعلى نحو تفكيكى، فيحقق بذلك أفضل اتزان تسمح به الظروف القائمة.

وعندما يكون النكوص معتدلا غير ممعن تكون الأعراض النفسية، أما عندما يمعن النكوص إلى المرحلة الأولى من النمو، أى إلى النرجسية فعندئذ تكون الأمراض العقلية.

وفى هذا ما يرينا أن الأعصبة والأذهنة، هى حلول للصراعات، ولكنها حلول نكوصية ومن ثم غير تكيفية وإن كانت توافقية أى تنطوى على خفض التوتر بشكل جزئى. وفى هذا كله ما يرينا استحالة عزل السوية عن اللاسوية، بحسبانهما عالمين مستقلين، فإن الاختلاف بينهما هو اختلاف فى الدرجة والشدة، لا فى الطبيعة والنوع.

ولكننا رأينا مع التحليل النفسى حرجه أمام المسالك عديمة التكيف والتى يستحيل تفسيرها بشكل مكتمل استنادا الى مبدأ خفض التوتر تحت أى اسم من أسمائه. ومن هنا التجأ فرويد إلى ابتداع مبدأ قهر التكرار ليفسر به المسالك غير التكيفية. ولكن عندما يفعل ذلك، يغيب عنه أنه عاد من جديد الى فصل السوية عن اللاسوية، بحيث يكون لكل عالم مبدأ تفسيرى خاص هذا إلى ما ينفتح له مبدأ قهر التكرار من انتقادات كثيرة.

ويرى مخيمر أن مبدأ قهر التكرار لا يفسر شيئا، بل يذكرنا بسيكولوجية الملكات التى كانت تستقرئ الوقائع وتطلق عليها اسما، ثم تتخذ من هذا الاسم مبدأ التفسير.

فكل ما يقوله مبدأ قهر التكرار، هو أن الظواهر المرضية لا تنزع الى خفض التوتر بشكل مكتمل ومساير لقيمة الذات بل تتابع تكرار التوتر بشكل قهرى. وواضح أن القول بهذا المبدأ للمسالك غير التكيفية ومبدأ خفض التوتر للمسالك التكيفية(١)، هو أمر يتعارض تماما مع مبدأ الاقتصاد فى العلم، والذى يقضى على التأويل أن يستعين بأقل عدد ممكن من المبادئ.

ومن هنا كانت محاولة مخيمر لرد الأمرين جميعا إلى مبدأ واحد تفسيرى هو مبدأ اشتهاء المثير ADIENT MOTIVATION مما لا يختلف كثيرا عن لذة التوتر أو لذة الاستثارة فى التحليل النفسى.

ولقد حاول مخيمر ذلك فى كتابه «مفهوم جديد للتوافق» عندما قدم تعريفا للعملية التوافقية لا يقوم على غرائز المحافظة على الحياة وخفض التوتر، والمواقف المألوفة، بل يقوم أساسا على نقيض ذلك تماما، بمعنى أنه يقوم على المخاطرة بالحياة،

---

(١) يتعارض هذا فى الواقع مع ما قال به فرويد من أن المسالك التكيفية (وغير التكيفية) تحقق كلها خفض التوتر وإن كانت الأولى تحقق ذلك بشكل مكتمل وعلى مستوى عمر الفرد وبشكل يساير قيمة الذات، بينما المسالك عديمة التكيف تحقق بشكل جزئى خفض التوتر ولكن على مستوى نكوصى وعلى حساب قيمة الذات وتفكيكها. ومن هنا يقول عن الأعصبة والأذهنة إنها حلول توافقية تخفض التوتر بشكل جزئى ولكنها غير تكيفية (لأنها تتم على حساب قيمة الذات وتفكيكها وعلى مستوى نكوصى).

(واشتهاء المثير والمواقف الجديدة لإثراء الحياة)، حيث يقرر أن التوافق هو الرضى بالواقع الذى يبدو هنا والآن مستحيلا على التغير، ولكن فى سعى دائب لا يتوقف لتخطى الواقع الذى ينفتح للتغير مضيا به قدما على طريق التقدم والصيرورة، فالتوافق ديالكتيكية تزاوج النقيضين، وائتلاف بين المألوف والجديد.

كل شئ يبدو وكأن الفرد لا تكاد ترتفع به استثارة حتى يعمل على خفضها ولا تكاد تنخفض به استثارة حتى يعمل على توليدها من جديد وعلى رفعها، مما يذكرنا بتلك العبارة التى كانت مأثورة عن إحدى الغانيات التى لم تكن تطيق أن ترى الكأس فارغة ولا أن تراها ملآنة. فإن كل مبدأ الثبات حتى فى صوره المتطورة (مبدأ اللذة ومبدأ الواقع) يجيب على المحافظة على الحياة خفضا للتوتر وإزالة للاستثارة تلبية لغرائز الموت فإن مبدأ اشتهاء المثير مخاطرة بالحياة فى خدمة غرائز الحياة(١) ولابد أن يحتل أيضا المكان المقابل والذى يحتله اليوم بدون معقولية حقيقية، مبدأ قهر التكرار.

وفى هامش ص ٤ يقرر مخيمر أن تعريف السلوك كان يقتصر على خفض التوتر، فأضاف إليه جولدشتين تحقيق الذات والإمكانات، بحيث أصبح السلوك هو جملة العمليات المادية والرمزية التي يحاول بها الكائن العضوى فى موقف، تحقيق إمكاناته وخفض توتراته هذه التى تدفعه إلى الحركة بتهديدها لتكامله (اتزانه). فليس من المعقول تصور الإنسان وكأنه مجرد شئ يتعبأ بالتوترات فيعمل على خفضها. لابد من الإيجابية تحقيقا للذات والإمكانات فذلك صميم الإنسان بما هو إنسان. ومن هنا تظهر أهمية المخاطرة بالحياة واشتهاء الاستثارة والمواقف الجديدة كوسائل خدمة غرائز الحياة، إن ديالكتيكية الحياة تبدو هنا بكل قوتها بحيث يخاطر الإنسان بالحياة رغبة فى إثراء الحياة. بينما لا تبدو الديالكتيكية فى خدمة الحياة فى مبدأ خفض التوتر (مبدأ الثبات واللذة والواقع) كل شئ يبدو وكأن الحياة اشتهاء للاستثارة بأكثر منها خفض التوتر: فالسلوك الجنسى سيان كان عشقيا أو إنسانيا ليس غير سلسلة من تصاعد

---

(١) فى الحالة الأولى تسخر غرائز الموت لصالحها غرائز الحياة، وفى الحالة الثانية تسخر غرائز الحياة لصالحها غرائز الموت. ولا ينبغى الخلط بين الوسائل والهدف.

لذة التوتر أو التوتر اللاذ. بينما تقتصر اللذة الخالصة على اللحظة الختامية، والتى يلبث أن يظهر فى أثرها سلوك جديد يمضى صاعدا بتوتره اللاذ حتى يبلغ لحظة الختامية التى تشكل قمته وعدمه معا. وهذا كله يميل بنا إلى الاعتماد فى أساسية مبدأ اشتهاء المثير وتبعية مبدأ خفض التوتر مما يقلب المنظور الفرويدى والشائع رأسا على عقب. فالأساس هو اشتهاء المثير الذى يتيح للحياة أن تتحرك إلى مواقف جديدة تنطوى على مخاضات مريرة ولا شك ولكنها تظل دائما الرحم الأبدى لميلاد كل جديد ولكل ابتكارى ممكن، ومن ثم لكل تقدم وصيرورة. هذا إلى أن مبدا اشتهاء المثير يمكننا من تفسير الحالات السوية والمرضية جميعا بينما يقتصر قهر التكرار على الحالات المرضية ولا يقدم إلينا معقولية تبعث على الاقتناع سيان استند إلى القصور الذاتى للخبرات القوية أو إلى دورية الغرائز أو غير ذلك.

يقول مخيمر فى «مفهوم جديد للتوافق»، وفى نهاية مقدمته لكتابه «عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس» ما يمكن عرضه على النحو التالى :

من كل ما سبق يمكن القول بأن فنيات العلاج السلوكى عامة وتعديل السلوك خاصة إنما هى فنيات تستهدف الشفاء من حيث هو تواؤم ليس غير بينما يختلف الأمر بالنسبة إلى فنيات العلاج فى التحليل النفسى وفى المدارس المختلفة لتيار العلاج الفيتومينولوجى. فليست السوية – التى يحققها الشفاء – هى وصول بالفرد إلى نقطة إستاتية تكون بمثابة ذروة يقف عندها ويستقر فيها، بل السوية بالحرى تتيح لصاحبها (بالشفاء فى نهاية العملية العلاجية) أن يمضى واثق الخطى فى بداية تلك الطريق اللامتناهية من التقدم والصيرورة. فصميم السوية تلقائية ومرونة تتيح للإيجابية أن تمضى وتمضى أبدا بالواقع الذى ينفتح للتغير، قدما فقدما على طريق التقدم.. وبغير هذا المضى المطرد، وبغير هذه الإيجابية التى تدفع الحياة إلى الصيرورة لا تكون هناك سوية ولا توافق لأن الأمر كله يخرج عندئذ من نطاق الإنسان بما هو إنسان وموجود من أجل ذاته إلى إستاتية الأشياء والموجودات فى ذاتها. وإذا كان تعريفنا

للتوافق يشتمل على الجانبين بحيث يكون الرضى(١) بالواقع الذى ينغلق على التغير جنبا إلى جنب مع السعى الدائم لتخطى الواقع الذى ينفتح للتغير، فما ذلك إلا لما تقتضيه ديالكتيكية الحياة من خروج الجديد من بين أحضان المألوف، ومن انطلاق للتغير من ثنايا رحم السكون الناعس، ومن انبثاق للحياة من بين براثن العدم.

وهكذا استطاع مخيمر فى مفهوم جديد للتوافق أن يصحح الكثير بالنسبة إلى

---

(١) بالرجوع إلى تعريف مخيمر للتوافق، يتحتم التمييز بين الأنواع المختلفة من الرضى إن كان لنا أن نفهم الطبيعة الديالكتيكية للحياة البشرية. فالرضى عن جنبات الواقع تستحيل على التغيير هو رضى قناعة Contentment لا ينطوى على خفض للتوترات فضلا عن تحقيق الذات والإمكانات بل ينحصر فى سلبية الاستسلام تقبلا للواقع الذى ينغلق على التغير. مثل هذا الرضى ليس من الرضى فى شئ. فالرضى الحقيقى إنما يكون عبر السعى الدائب الذى لا يتوقف لتخطى جنبات الواقع التى تنفتح للتغير. وهنا ينبغى أن نبادر إلى تقرير حقيقة أساسية تنحصر فى أن لحظات الرضى تكون دائما حبلى بأجنة اللارضى، فالإنسان عندما يبلغ إلى الهدف الذى ينشده يستشعر الرضى (سيان كان رضى الإشباع Satisfaction عندما يكون الهدف جزئيا أو كان رضى المسرة Gratification الذى يتحقق بالبلوغ إلى الهدف الكلى تحقيقا لقيمة الذات والإمكانات) ولكن حالة الرضى الذى يستشعره الفرد بالبلوغ إلى هدفه لا يمكن أن تدوم، فهى لا تلبث حتى تلد نقيضها حالة من اللا رضى تشبك الفرد فى سلوك جديد سعيا إلى هدف جديد. وهكذا تمضى الحياة السوية تتابعا من اللا رضى بتوتراته إلى لحظات الرضى بخفضها الوقتى للتوترات قبل أن تتمخض عن نقيضها حالة من اللا رضى تدفع الفرد بتوترها إلى سلوك جديد يتصاعد فيه التوتر اللاذ ويتصاعد حتى يبلغ الهدف فتكون الذروة حالة عابرة من الرضى، من اللذة الخالصة التى تتوهج فى لحظات ليس غير، ثم تنطفئ فتفسح المسرح لحالة من اللا رضى، لحالة من التوتر تحمل الحياة فى سلوك جديد وإلى هدف جديد، وهكذا دون توقف عن طريق التقدم والصيرورة فى محاولات متصلة لإثراء الماهية وتحديد المصير، فالرضى هو الحالة من الدافعية التى يعيشها الكائن توترا لاذ فى طريقه الذى يكون بتحققه لحظات من الرضى من اللذة الخالصة من الضياع العابر للتوتر والتى لا تلبث حتى تلد نقيضها استهلالا لحالة جديدة من اللا رضى، من التوتر، من الدافعية الجديدة لتمضى بالكائن فى سلوك جديد وتوتر لاذ جديد إلى هدف جديد. فالرضى توتر لاذ يبلغ ذروته وعدمه فى اللحظة الختامية، لحظة الرضى العابر بلذته الخالصة وخفضه العابر للتوتر. ذلك هو الرضى الذى ينتمى إلى غرائز الحياة، إلى اشتهاء الاستثارة بينما ينتمى رضى اللحظة الختامية بلذته الخالصة عديمة التوتر إلى غرائز الموت.

ديالكتيكية الحياة والموت وذلك فى مسايرة منه لمبدأ الاقتصاد فى العلم وللتغير الذى يشكل اللب الصميمى للحياة. ولكن مخيمر لم يكمل تصحيحه هذا إلا فى نهاية مقدمته لكتابه عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس سنة ١٩٨٠ الناشر - سعيد رأفت - فلنستمع إلى ما جاء به تكملة لمفهومه الجديد عن التوافق.

فإيقاع التغير المتزايد أبدا(١) شرع يفرض على الحياة الواحدة للفرد الواحد كثرة من التغيرات المتلاحقة ترغمنا على الانتقال من المفهوم الإستاتى للتوافق Adjustment إلى المفهوم الدينامى حقا (والذى يتناسب وحده مع ما بلغ إليه إيقاع التغير اليوم) ونعنى القابلية للتوافق. Adaptability

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن علماء النفس كانوا وما يزالون يجمعون على النظر إلى خفض التوتر بحسبانه المبدأ التفسيرى للسلوك. وقد صححنا ذلك الوضع عندما أوضحنا انتماء خفض التوتر إلى غرائز الموت طالما أن الحالة القصوية لخفض التوتر هى خفض توتر الحياة ذاتها أى الموت. فصميم الحياة توتر وصراع ومن ثم فإذا كنا قد نسبنا خفض التوتر إلى غرائز الموت يكون علينا فى مسايرة للمعقولية أن ننسب اشتهاء المثير Adient Motivation إلى غرائز الحياة. صحيح أن ديالكتيكية الوجود البشرى تفترض وجود النقيضين معا ومن ثم تستتبع أن تكون غرائز الحياة وغرائز الموت فعالتين معا وفى نفس الوقت. ولكن بمقدار ما يتوهج التوتر تكون غرائز الحياة من حيث المبدأ هى الفعالة. وبقدر ما ينطفئ التوتر تكون الغرائز من حيث المبدأ هى الفعالة. ومن هنا كانت منافحتنا عن اشتهاء المثير(٢) على أنه المبدأ الأساسى لغرائز الحياة.

بذلك نكون قد قلبنا المنظور الفرويدى وغير الفرويدى رأسا على عقب، فلم تعد غرائز الحياة تستهدف خفض التوتر والمحافظة على الحياة والمواقف المألوفة بل على

---

(١) صدمة المستقبل ترجمة محمد على ناصف - النهضة بالفجالة - انظر أيضا الطبعة الثانية فى سيكولوجية الحب - الأنجلو.

(٢) فى رسالة سيكولوجية الحب الفصل الثانى كشفنا عن الطبيعة الصميمة لظاهرة الحب ليست غير هذا التوتر اللاذ وهذا التطلع إلى ، وربما يكون الحب هو أقصى مظاهر الكائن البشرى إقبالا على وإمعانا فى وارتباطا بالحياة.

النقيض من ذلك تماما فإن المحافظة على الحياة بالمعنى الحرفى الدقيق للكلمة إنما هى وقوف بالحياة، ومتى توقفت الحياة عن المضى فلن تكون حياة بل يكون الموت. صميم الحياة إذن هو التوتر هو الصراع هو التحرك ابدأ إلى الجديد، هو المخاطرة بالحياة للمحافظة حقا على الحياة بإثرائها سعيا إلى الجديد لا الاحتماء فى المألوف.

خلاصة ما سبق أن مفهوم التوافق ينطوى بالضرورة على مخاطرة بالحياة(١) وذلك إلى الحد الذى يتحتم على الشخص المتوافق أن يكون دائما على استعداد من حيث المبدأ وعندما ترغمه الظروف، على أن يضحى بحياته (حتى وإن يكن ذلك ممارسة للجريمة أو تخلصا من الحياة بالانتحار(٢)) فعندما تصل الظروف البيئية فى قسوتها إلى الحد الذى يهدد قيمة الذات بشكل خطير ينبغى على المتوافق أن يكون على استعداد للمخاطرة بالحياة ذاتها دون تردد على النحو الذى يظهر فى سير العظماء من القادة والمفكرين. ذلك أيضا ما يحدث طواعية من أفراد الشعب عندما يكون الوطن مهددا بعدوان واحتلال يطيح بقيمة ذواتهم وبأرضهم وعرضهم، ومن هنا فإن الشعوب التى يغلب عليها التوافق لا تستسلم فى سلبية إلى كل ألوان الظلم أو الإجحاف من حكامهم بل تتحرك ثائرة فى مخاطرة بالحياة لتعيد للحياة قيمتها ومعناها ومن يصدق القول الشائع (اطلب الموت توهب لك الحياة) فلا حياة بمعنى الكلمة ولا توافق دون ما

---

(١) تبدو الأهمية القصوى للمخاطرة منذ الطفولة الباكرة. وقد أشرنا من قبل إلى ولع الأطفال جميعا فى سن باكرة بتلك اللعبة الخطرة حيث يقذفهم الآباء إلى أعلى فى الهواء ليتلقفوهم قبل الوقوع على الأرض. ونضيف هنا قيام قصص الأطفال الناجمة عن عنصر المخاطرة (الغولة فى حواديت الشاطر حسن وقصص الجنيات ومغامرات السندباد ومخاطر الكشوف الجديدة والبحث عن الكنز) وكذلك قصص أرسين لوبين، هولمز والأفلام التى تقوم على الإثارة والأنفاس اللاهثة المقطوعة.

هذا إلى قيام الصحافة على الإثارة ومباريات الأهلى والزمالك .. الخ. وإذا كان كل ممنوع مرغوب كان على المخاطرة أن تكون المعبر بين الرغبة وتحقيقها. فهدف السلوك لا يمكن أن يكون بحال مجرد خفض للتوتر بل هو أساس هذا التوتر الذى يدفع بالحياة قدما إلى الأمام عبر المخاطرة. فهدف الحياة هو تحقيق الذات والإمكانات ويترتب على ذلك بصفة ثانوية إشباع الحاجات والخفض العابر الوقتى للتوترات.

(٢) انظر الأخبار العدد ٨٥٤٣ الموافق ٣١/١٠/١٩٧٩ ص ٩ – حديث عن انتحار الأدباء.

استهانة بالموت. وهكذا فإن المحافظة على الحياة لا يمكن أن تكون إلا عبر المخاطرة بالحياة اشتهاء للمثير وسعيا وراء التوترات التى لا يكاد يبلغ بها الكائن البشرى إلى الانطفاء حتى ينبعث غيرها فغيرها سعيا وراء الجديد على طريق التقدم والصيرورة، وهكذا تنطفئ الحياة ذاتها فيبلغ خفض التوتر ذروته عدما، تنقص معه كل محافظة على الحياة وكل مخاطرة بالحياة جميعا.

ولكن إذا كانت الحياة فى صميمها مخاطرة بالحياة وسعيا وراء التوترات نبتعثها لنصارعها صراع الموت بالحياة، أو قل نقوم بتوليدها حتى يمتلئ الكأس ثم نناضل لنجهز عليها مما يتيح لنا المزيد والمزيد من الازدهار، أفلا يكون فى ما ينطوى على نتائج جد خطرة بالنسبة إلى المجتمعات الرأسمالية فى مواجهة المجتمعات الاشتراكية، بلى فالإنسان وإن كان يحتاج إلى أحاسيس الأمن إلا أنه عندما تزيد هذه الأحاسيس على حد أمثل Optimal بعينه فإنها تذهب بغرض المخاطرة التى تلد كل جديد وكل تقدم؛ وعندئذ يستحيل أن يكون الإنسان من حيث هو إنسان ذلك الخالق الصغير Deminrge الذى خلقه الله على شاكلته. ومن هنا تبدو أهمية الحل الثالث الذى نادى به ديجول والذى يتيح توازنا ما بين الطمأنينة والمخاطرة. ولكننا هاهنا نخطو خطوة أخرى إلى الأمام. كان فرويد فى تفسيره للمسالك السوية يستعين بمبدأ الثبات، بمبدأ اللذة – الألم وأخيرا بمبدأ الواقع. أما بالنسبة إلى المسالك غير التكيفية ونعنى الباثولوجية فقد خرج علينا(١) بمبدأ آخر هو قهر التكرار، معنى هذا أن المبدأ التفسيرى

---

(١) كان فرويد فى البداية يفسر المسالك غير التكيفية بنفس المبدأ التفسيرى للمسالك السوية ونعنى خفض التوتر. ففى حالة المسالك السوية يتحقق خفض التوتر بشكل يبقى على قيمة الذات ووحداتها. بينما لا يتحقق خفض التوتر فى حالة المسالك غير التكيفية إلا بشكل جزئى وعلى حساب قيمة الذات ووحدتها. ولكن هذه المسالك عديمة التكيف لا تنزع مع الوقت إلى خفض التوتر بشكل مكتمل بل تتابع تكراراً لهذا التوتر ومن هنا خرج فرويد علينا بمبدأ قهر التكرار الذى هو مجرد وصف لما يحدث تماما كما كان عليه الحال فى سيكولوجية الملكات فى القرن التاسع عشر. ويرى مخيمر أن فرويد بذلك نكص على عقبيه متراجعا عن مبدأ المجانسة ومبدأ الاقتصاد فى العلم، مما كان متحققا وإن يكن بشكل خاطئ عندما كان يرد المسالك السوية وغير السوية جميعا إلى مبدأ تفسيرى واحد هو خفض التوتر.

للمسالك السوية غير المبدأ التفسيرى للمسالك غير السوية، مما يتناقض مع مبدأ المجانسة للمنهج الجاليلى فى تناول الوقائع. صحيح أن فرويد قد أخذ جزئيا بمفهوم السلسلية عندما رفض اعتبار السوية واللاسوية عالمين منفصلين ومتغايرين تماما منافحا عن أن الاختلاف بينهما ليس غير اختلاف في الدرجة والشدة، ولكنه لم يستطع أن يمضى إلى نهاية الشوط، ومن هنا أقام للمسالك السوية مبدأ تفسيريا غير المسالك اللاسوية. بذلك يكون فرويد قد نكص على عقبيه إلى مفاهيم الفئات والأصناف الأرسططالية.

وما نتقدم به نحن ها هنا يحقق مبدأ الاقتصاد فى العلم ومن ثم يضع فى اعتباره مبدأ المجانسة فى المنهج الجاليلى. اشتهاء المثير هو المبدأ التفسيرى لكل مسالك الحياة السوية منها واللاسوية وكل ما هنالك من اختلاف هو تباين الانتظام الذى يتخذه المبدأ فى الحالتين. ففى الحالة السوية يمضى اشتهاء المثير فى المسار الصحيح لديالكتيكية الوجود البشرى بحيث يرتفع التوتر ويرتفع حتى يبلغ ذروته فى إشباع يحقق عدمه عبر خفض وقتى للتوتر، ثم لا تلبث الحياة حتى تتوهج من جديد بالتوتر الذى يصاعد ويصاعد حتى يبلغ ذروته وعندها يفسح المسرح لتوهج توتر جدد وهكذا فى غير توقف على طريق التقدم والصيرورة. أما فى حالة اللاسوية فإن ديالكتيكية الوجود البشرى تتعطل إن جاز القول بحيث يتصاعد التوتر ويتصاعد دون أن يكون بلوغه إلى الذروة، إلى عدمه فيتواصل التوتر احتراقا إن جاز القول إلى غير نهاية. كل شئ يبدو هنا وكأن غرائز الموت قد استبدت بالمسرح وسخرت لحسابها توترات الحياة ومن ثم تكون الصبغة الأليمة لهذه التوترات التى لا تمضى فى دورات تنغلق بين الحين والحين فى وقفات وقتية من الخفض العارض للتوتر، بل تدور فى حلقة مفرغة تحبس الكائن البشرى داخل نفسه فتشده يوما بعد يوم إلى سكون العدم. وبلغة أخرى يمكن القول بأنه فى الحالة الأولى يرتفع توتر الرغبة ويرتفع حتى يبلغ الذروة فى اللحظة الختامية بالإشباع الذى يخفضه فيفسح المسرح لتوتر رغبة جديدة. كل ذلك دون أن يكون هناك ما يعترض مضى التوتر إلى ذروته وعدمه، أما فى الحالة الثانية فإن توتر الرغبة لا يكاد يرتفع حتى تعترضه معوقات من أحاسيس القلق

أو الذنب وما يلحق بذلك من عقوبة الذات وما إلى ذلك مما يسد على التوتر مساره ويرغم الكائن على أن يدور فى حلقة مفرغة بين رغباته ومعوقاته على النحو الذى أوضحناه فى الفصل السادس من : المدخل إلى الصحة النفسية (الطبعة الثالثة – ص ١٥٧ – ١٦١).

من الشخصية إلى صياغة السلوك

سبق أن رأينا أن تعريف الشخصية شأنه شأن تعريف السلوك ليس غير ترجمة للمفهومين الأساسيين فى علم النفس ونعنى الدينامية والوظيفية – فالشخصية هى هذه الجشطلت، هى هذا الانتظام الدينامى الكلى داخل الفرد لانتظاماته الفرعية (النفسية الفسيولوجية معا) بينما السلوك هو هذه الجشطلت، هذا الانتظام الدينامى الكلى لكل عمليات الفرد الرمزية منها والمادية على السواء. وإذا كانت الشخصية من حيث هى انتظام دينامى كلى لكل أجهزة الفرد النفسية والفسيولوجية تقوم بتحديد توافقاته الأصلية مع بيئته، فإن السلوك من حيث هو انتظام دينامى كلى لعمليات الفرد الرمزية والمادية هو الذى يتيح للفرد فى الموقف تحقيق إمكاناته وخفض توتراته، هذه التى تدفعه إلى الحركة بتهديدها لتكامله إلى اتزانه. فوظيفة الشخصية هى تحقيق توافقات الفرد الأصيلة مع بيئته. وإذا كانت الأصالة تعنى الطابع الفريد المتميز لتوافق كل فرد فإنها لا تنطوى بالضرورة على الإيجابية والخبرة واللذين يخصصان وحدهما الإنسان بما هو إنسان، ولكن هاتين الخاصيتين تظهران بصراحة فى تعريف السلوك البشرى وذلك بفضل ما كان من إضافة جولدشتين لوظيفة تحقيق الإمكانات سابقة على وظيفة خفض التوترات ففى تحقيق الإمكانات ما ينطوى بالضرورة على الإيجابية، هذه التى تستطيع وحدها أن تتمخض عن الجديد.

وإذا كان علم النفس الاجتماعى فى حديثه عن معنويات الجماعة يطمنا ضرورة الأهداف الإيجابية للمعنوية العالية. فإن هذه الحقيقة تصدق وبدرجة أعظم على الفرد. هذا الذى يعتبره لاجاش نوعا من الجماعة بالفعل. ففى «المدخل إلى علم النفس الاجتماعى» الطبعة الثانية نقرأ ص ٨١ وتحت عنوان «العوامل المحددة للروح المعنوية» ما يلى:

١ – ضرورة الدافع الإيجابى للروح المعنوية العالية:

ونعنى بذلك الهدف الإيجابى الإنشائى فى معارضة للهدف السلبى الذى يقتصر على دفعات الهجمات الخارجية وإزالة التوترات الداخلية. فلئن كان للدافع السلبى أهميته فهو لا يكفى مع ذلك لدعم الروح المعنوية، إذ لابد لذلك من دافع إيجابى. وفى هذا ما يرينا الشبه القائم بين الجماعة كوحدة والشخصية الفردية كوحدة. فالفرد لا يقف فى سلوكه عند خفض التوتر اللهم إلا أن يكون غير مكتمل النضج أو مريضا أو متعبا أو خاضعا لظروف مقيدة. أما فيما عدا ذلك فقد أبان جولدشتين أن أهم ما يخص السلوك الإنسانى ينحصر فى قدرته على الخلق والإبداع لتحقيق الذات والإمكانات.

٢ – ضرورة إرضاء الحاجات الثانوية عند الأفراد للروح المعنوية العالية:

ونعنى بذلك حاجة الفرد إلى التعبير عن تلقائياته واعتراف الغير به وتقديرهم له. فإن عدم إرضاء هذه الحاجات يكون بمثابة عامل سلبى لمعنوية الجماعة. أما إرضاء الحاجات الأساسية فأمر بدهى.

٣ – ضرورة الشعور باطراد التقدم.

٤ – ضرورة تناسب مستوى التطلع مع الإمكانات ومستوى النجاح السابق.

٥ – ضرورة اتضاح المنظور الزمنى.

ويتضح من هذا كله أن الإيجابية بما يمكن أن تتمخض عنه من جديد هى التى تشكل صميم كيان الإنسان الفرد على مستوى الحياة الفردية أو فى الصور المختلفة للجماعات البشرية، فبغير هذه الإيجابية يستحيل على الحياة أن تواصل تقدمها وصيرورتها ومن ثم يستحيل عليها أن تكون.

وهذه الإيجابية(١) فى كل صورها تدخل ضمن الوظائف الأساسية لجهاز

---

(١) يذهب مخيمر الى أن العدوانية مرادفة لطاقات الحياة عند الفرد ومن ثم تخدم غرائز الموت والحياة جميعا. وليست الإيجابية فى كل صورها شأنها شأن الجنسية غير تعبير عن المظاهر السوية التى تتخذها العدوانية عندما تكون فى خدمة غرائز الحياة، ومن هنا يعرف مخيمر العدوانية كما يلى: =

الأنا .ونحن نعلم أن جهاز الأنا هو مملكة مبدأ الواقع .

فالأنا هي التي تضطلع بتحقيق التوافق بين الفرد والعالم الخارجي ، وداخل الفرد بين حاجاته المتصارعة . وكيما تبلغ إلى ذلك تضطلع الأنا بتنظيم الوصول إلى الشعور والسماع بالتعبير الحركي فهي تحكم فيما ينبغي إدراكه أو فعله . وكذلك تضطلع الأنا بتوجيه الأنشطة وجدولتها تبعا لأهميتها . وتعديل مستوى التطلع بما يتفق مع الإمكانات الفعلية .

والأنا في هذا كله تسعى أساسا إلى تحقيق الذات والإمكانات، فليس خفض التوترات في رأي مخيمر بهدف أساسي بل هو مجرد نتيجة ثانوية تترتب على إسباغ الحاجات تحقيقا للذات والإمكانات. ولعل أعظم ما تملكه الأنا من وسائل القدرة على التفكير مما يفترض القدرة على تأجيل الاستجابات (أي التسامح تجاه التوترات بعيدا عن الاندفاعية) وتوقع النتائج المقبلة للسلوك.

فالتفكير نوع من التجريب العقلي يبلغ إليه الكائن البشري للنضج الذي يتيح تربية الغرائز بانتقالها من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع . وبعدما كان الكبت هو الأسلوب الوحيد الممكن للأنا الضعيفة الطفلية تكون مع النضج إمكانية الأنا على المواجهة واتخاذ القرار الملائم والقيام بالفعل الموجه .

ولكن الأنا في اضطلاعها بوظائفها المختلفة تتعرض لضغوط الهي والأنا العليا

- (عندما ننظر إلى الوجود البشري على أنه ذلك النسيج الفريد من ديالكتيكية غرائز الحياة والموت سيان كانت طاقتها(*) موضوعية أو نرجسية ، سادية أو مازوشية ، تكون العدوانية هي هذه الطاقة التي تخدم في الحالات السوية غرائز الموت بشكل غير مباشر بمعنى أن تكون في خدمة غرائز الحياة إيجابية أو توكيدا للذات تدميرا مشروعا للمعوقات من الآخرين والأشياء أو / عدوانية شبقية وإنجابا أو / وبناء يبلغ حد الابتكار على المستوى الفردي ويتخذ صورة القيادة في المواقف الاجتماعية ، لتتأدى بها تدريجيا إلى التدمير والعدم، بينما تخدم في الحالات غيرالسوية غرائز الموت بشكل أكثر مباشرة تدميرا عاجلا ومباشرا للذات أو عبر التدمير غير المشروع للآخرين والأشياء) .

(*) ينبغي فهم ذلك ضمن إطار النهج الجاليلي في تناول الوقائع هذا الذي يقوم على مفاهيم السلسلية والمتصل الواحد الذي يعتبر السلوك محصلة للصراع بين المتجه الصادر عن فطرية الفرد والمتجهات البيئية القائمة في الحقل.

مما قد يرغمها على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يكفها عن العمل، هنا تظهر الضرورة الحيوية للتمييز بين ما تكون عليه الأنا من حيث الاقتصاديات النفسية فى حالة السوية، وما تكون عليه فى حالة اللاسوية.

فالأنا السوية ثرية من حيث الاقتصاديات النفسية تملك تحت تصرفها كميات كبيرة من الطاقة (نظرا لضآلة الكميات المضيعة من الطاقة فى التثبيتات على أهداف وموضوعات طفلية).

ومن هنا تستمتع الأنا السوية بهامش فسيح من الحرية فى مواجهة الهى والأنا العليا على أرضية من إمكانات الواقع ومحدداته، ويكون بوسعها أن تتخذ من القرارات أو الأفعال ما تراه مناسبا تلزم به فى سير الجهازين الآخرين. أما فى حالة اللاسوية فإن الأنا تكون نتيجة للكميات الهائلة من الطاقة المضيعة فى التثبيتات، على الأهداف والموضوعات الطفلية، مسرفة فى فقرها ومن ثم فى ضعفها فلا تنعم بهامش من الحرية فى مواجهة الأنا العليا والهى، فالنضج لم يكتب لها أن تتحرر من الضغوط البيولوجية للهى والضغوط الأخلاقية الاجتماعية للأنا العليا ومن ثم تظل كما كانت فى طفولتها عاجزة عن المواجهة والتفكير عن روية.

وتلخيصا لكل ما سبق نقرر بأن الهدف الأساسى للشخصية إنما ينحصر فى تحقيق الذات والإمكانات بكل ما ينطوى عليه ذلك من إيجابية يمكن أن تتمخض عن الجديد بينما يكون خفض التوتر مجرد نتيجة ثانوية تترتب على ذلك ووقفة راحة تتيح للشخصية أن تتابع مسالكها مسارا يمضى بها قدما فقدما على طريق التقدم والصيرورة. والأنا السوية وحدها هى التى تقتدر على ذلك بينما تظل الأنا غير السوية طفلية بضعفها وعجزها عن المواجهة، تدور حول نفسها إن جاز القول توصل بحاضرها بماضيها، إنها تدرك الحاضر من خلال الماضى ومن ثم تبدو لها حاجتها الحالية ضمن منطق ماضيها شيئا خطرا، فتنطلق دفاعات الأنا تسد عليها بالقلق أو أحاسيس الذنب كل سبيل إلى الإشباع وبذلك ينحبس الفرد بين حاجاته ومعوقاته لا يستطيع مضيا إلى الأمام لا تحقيقا لذاته وإمكاناته ولا للراحة الوقتية العابرة عبر الخفض العابر لتوتراته مع كل إشباع، وسوف نقوم بتفصيل الأمر كله على النحو التالى:

١ – بداية السلوك :

المصدر الأخير للحفز فى نظرية التحليل النفسى هو الغرائز التى يعيشها الإنسان فى صورة حوافز أو حفزات غريزية وقد شكلتها عملية التطبيع الاجتماعى وفقا لثقافة المجتمع وشكلتها الخبرة الفردية الخاصة بكل فرد. فالغرائز وإن كانت هى هى عند كل الناس، وهى هى عند بعض الناس تبعا للثقافات المختلفة، فهى عند كل فرد تختلف عنها عن كل الناس. وعليه فدوافع الشخصية – أى حفزاتها – حوافزها أو حاجاتها أو رغباتها هى البداية الحقيقية للسلوك، والدافع هو حالة من التفكك قوامها توتر يحفز الكائن إلى هدف بعينه بالبلوغ إليهما خفض عارض لهذا التوتر يفسح المسرح لتوتر جديد وهكذا.

وتتبدى الغرائز فى صورتين هما الحاجات والانفعالات:

والحاجات تتباين تباينا كبيرا فى طبيعتها وشدتها بل وفى أهميتها النسبية عند كل فرد وهناك كما نعلم حاجات فسيولوجية أولية وهناك حاجات نفسية اجتماعية من قبيل الحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى الحب، والحاجة إلى التعبير، والحاجة إلى المعرفة، والحاجة إلى الحرية، وكل هذه الحاجات الثانوية يصدق عليها ما سبق أن رأينا بالنسبة إلى المعنوية العالية للجماعة فأهميتها حاسمة بالنسبة إلى الإنسان بما هو إنسان. وكلما كانت الحاجة أقل ضرورة لبقاء الكائن الحى، بعدت عن الجمود والضغط والإلحاح، فالحاجة الجنسية أكثر مرونة من الحاجة إلى التنفس أو الطعام.

وظهور الحاجات تصحبه لون من الانفعال يتفاوت بين اللذة والألم تبعا لما تتوقعه الأنا من إشباع أو إحباط. فالحاجة إلى الأمن يصحبها انفعال القلق، والحاجة إلى الشعور بالبراءة وقيمة الذات يصحبها انفعال القلق الخلقى من إثم أو اشمئزاز أو خزى. وهاتان الحاجتان بانفعالاتهما المصاحبة تشكلان بواعث الدفاع ومن ثم السبيل إلى اللاسوية. فهما أساس دفاعات الأنا.

٢ – صياغة السلوك :

تنحصر صياغة السلوك فى شعور الفرد بالحاجة واكتشاف الوسائل والموضوعات إلى الهدف الذى ينشده ويدخل هذا كله ضمن اختصاصات الأنا كما رأينا – واكتشاف الأنا للوسائل والموضوعات التى تحقق البلوغ إلى الهدف مسألة

يتناولها علم النفس العام تحت عناوين العادة للمواقف المألوفة والمرونة العقلية والذكاء للمواقف الجديدة، بينما يتناولها التحليل النفسى تحت عناوين السوية واللاسوية من حيث إن الأولى هى مرونة الشخصية وحريتها بينما الثانية جمودها للتثبيتات الطفلية، وليس التفكير عن روية من حيث هو تجريب عقلى يقوم على تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج المقبلة غير الصورة التى تتخذها مرونة الشخصية وحريتها إزاء الهى والأنا العليا. ففى حالة اللاسوية تكون الأنا عاجزة عن ممارسة التفكير عن روية لأنها عاجزة عن التحرر النسبى من متطلبات البيئة على نحو ما تبدو متطلبات وضغوطا للهى والأنا العليا . ولما كان اختيار الأهداف والوسائل والموضوعات مسألة تبعد عن الجمود الغريزى فإن الاختيار يظل مفتوحا من حيث المبدأ لا تستطيعه إلا الأنا السوية.

(أ) ففى حالة السوية: تتحدد الأهداف بالرجوع إلى الواقع الداخلى والواقع الخارجى ثم تقوم الأنا باختيار الموضوع المناسب الذى يحقق البلوغ للهدف أو الموضوعات البديلة ثم تحدد الوسائل للبلوغ إلى ذلك ومن ثم نشرع فى السلوك أو فى سلسلة من المسالك يتصاعد خلالها التوتر لاذا حتى يبلغ اللحظة الختامية بلوغا إلى هدف من الأهداف الجزئية (رضا الإشباع Sat-isfaction) أو بلوغا إلى هدف كلى يتيح تحقيق الذات والإمكانات (رضا المسرة Gratification) وفى الحالتين يكون الخفض الوقتى للتوتر من حيث هو لذة خالصة بمثابة وقفة راحة تتعبأ بعدها الطاقة من جديد مضيا على الطريق إلى الهدف الكلى، ومن ثم مضيا متصلا على طريق التقدم والصيرورة إثراء للماهية فى محاولات لتحديد المصير. ففى حالة السوية يتطور السلوك فى اتجاه الإشباع تحقيقا للذات والإمكانات ويتتابع توترا لاذا يتصاعد فى «كريشندو» فى إيقاع مطرد الزيادة يبلغ ذروته وعدمه فى اللحظة الختامية.

(ب) أما فى حالة اللاسوية: فتكون حرية الأنا معوقة عن الاختيار بتثبيت على هدف طفلى (وموضوع طفلى)، هذا إلى أن موضوع التثبيت يكون قد عانى الاستدخال مما يتمخض عن تشويه فى إدراك الموضوعات الواقعية.

ومن ثم تكون الأنا عاجزة عن أن تتجه إلى هدف راشد سوى وموضوع راشد حقيقى (مثل عقوبة الذات فى حالة المازوشية المعنوية) ففى حالة اللاسوية لا يتطور السلوك فى اتجاه الإشباع بل فى اتجاه الدفاع ومن ثم يتتابع توترا أليما يدور فى حلقة مفرغة ما بين الحاجات والمعوقات فظهور الحاجة هنا يكون بسبب التثبيت مصحوبا بانفعالات أليمة (قلق - إثم ... الخ)، وهذه الانفعالات الأليمة تعوق تطور الحاجة وتسد عليها كل سبيل. وضد هذه الانفعالات الأليمة والحاجات الغريزية المثيرة لهذه الانفعالات تستعين الأنا بصورية آلية لا شعورية بميكانيزماتها الدفاعية، هنا لا يكون السلوك تزايدا مطردا من التوتر اللاذ بل يقتصر على التوتر بعيدا عن كل لذة يمكن أن تنتج من توقع البلوغ للهدف والاقتراب منه بالتدريج، فتوتر الحاجة يصطدم بالتوتر الأليم للقلق أو الإثم وتسارع الدفاعات لتسد على الحفزة طريقها مما يتمخض فى العادة عن محصلة تتخذ صورة الأعراض المرضية.

وبلغة أخرى يمكن القول بأن الأنا تتعجل فى هذه الحالة خفض التوتر لطردها للانفعالات الأليمة والحفزات الخطرة خارج الأنا وفصلها عن الأنا، وذلك هو الأثر التفكيكى للدفاعات، وعملية التوافق هذه فادحة الثمن، فلابد من استمرارها أو تكرارها وعندئذ فإن الحفزات المكبوتة أو الانفعالات المكبوتة تتسلل فى صورة اشتقاقية إلى التفكير والسلوك ومن ثم فى صورة محرفة لا تتعرف عليها الأنا كما فى الأحلام والأعراض المرضية، ولكى ينبغى التمييز بين ميكانيزمات الدفاع الناجحة وميكانيزمات الدفاع الفاشلة، فالأولى تنهى الدفاع مثل الانفصال عن الكائن المحبوب فى حالة الحداد ومثل الإعلاء حيث الإفراغ مستمر بلا تعويق وإن اتجه إلى هدف اجتماعى غير غريزى ومقبول كما فى تصعيد الجنسية المثلية إلى صداقة وتصعيد الحفزات السادية عند الجراح وتصعيد الحفزات الفمية عند المغنى وكذلك عندما يألف الإنسان أنماطا من المواقف كانت تبعث فى البداية على الدفاع، أما ميكانيزمات الدفاع الفاشلة فتتطلب إنفاقا متصلا فى الطاقة إذ تقوم على تواصل الدفاع ومن ثم تنتهى إلى

إقفار الشخصية، الأمر الذى يقترب بها من لوحة العصاب العقلى سيان كان فى صورة ما يسمى بالعصاب القلق أو فى صورة النيوراستينا.

٣ – النتائج الثانوية للسلوك :

رأينا أن الهدف الأساسى للسلوك هو إشباع الحاجات تحقيقا للذات وللإمكانات، فإذا ما تعذر ذلك يغدو الهدف هو الدفاع بلوغا إلى توافق نكوصى يخفض التوتر بصورة جزئية وإن يكن على حساب قيمة الشخصية ووحدتها. ويمكن اعتبار التوتر فى حالة السوية بمثابة نتيجة ثانوية تترتب على تحقيق الذات والإمكانات بينما يكون خفض التوتر الهدف الأساسى فى حالة اللاسوية، وتوجد نتائج أخرى ثانوية تترتب على السلوك من صياغة الشخصية وتكوين جهاز العادات مما ينتمى إلى التشكيل الذاتى Auto-plastic .وهناك نتائج أخرى للسلوك تتخطى بتأثيراتها حدود الذات إلى البيئة والعالم مما يعرف بالتشكيل البيئى Allo-plasticفالسلوك يستثير عند الآخرين استجابات مكملة تتخذها صورة الانطباعات أو الأفعال، فتكرار أنماط بعينها من السلوك يمكن أحيانا أن يؤدى إلى تكرار أحداث متشابهة بشكل لا يصدق. وهذا التكرار للأحداث التى تكاد تكون متطابقة والتى تكون تعسة يعرف (بعصاب القدر) من ذلك الفنان الذى وجد نفسه مرتين ينتزع الزوجة من بين أحضان زوجها ليقترن بها. كل ذلك يمكن تلخيصه فى أن الأحداث تشبه الأفراد، وهناك بالطبع نتاجات السلوك بمعنى ما يتمخض عن السلوك من أعمال خارجية فليس من شئ يؤدى إلى النجاح مثلا أكثر من النجاح، البطولة أو الجريمة تضع صاحبها فى موقف اجتماعى محدد إلى حد بعيد، هذا إلى أن الأعمال العلمية والأدبية والفنية تنعكس كلها على الشخص فى إحالة متبادلة.

فالشخصية وإن قامت بتحديد السلوك، فإن السلوك بنتاجاته يسهم فى تعديل الشخصية. فكلما اقتدرت الشخصية على مواجهة المواقف الخارجية بنجاح زادت وحدتها، وكلما زادت وحدتها ازدادت قدرتها على مواجهة المواقف الخارجية وهكذا فى إحالة متبادلة ما بين الشخصية ومسالكها.

النظرية السلوكية

ظهـرت المدرسـة السلوكيـة عـام ١٩١٣ على يدى واطسن فى أمـريكا، وكـان ظهـورها بمثـابة رد فـعل لعلم نفس القـرن التـاسع عـشـر الذى كـان يدرس الظواهر الشعورية وفى نفس الوقت كامتداد طبيعى لعلم نفس المنعكسات التشريطية الذى ظهر فى روسيا فى نهاية القرن التاسع عشر على يدى بافلوف، وبختريف.

ومعنى هذا أن سلوكيـة واطسن تستند إلى نزعة مـادية واضـحة فـى علمانيتها، وعلميتها الظاهرية، مما يجعله يرفض الاعتراف بصلاحية الظواهر الشعورية للدراسة العلمية وذلك بحجة استحالتها على المنهج العلمى الوحيد فى رأيه (القياس والتجريب) وكأن واطسن كـان يخشى من أن التسليم بعلميـة هذه الظواهر الشعورية يمكن أن يفتح الباب عريضا أمام الفلسفة المثالية بحيث تدعى «جان دارك» أو غيرها ما يشاء الله لها أن تدعيه. لقد استعار واطسن من العلوم الطبيعية منهجها وراح يبحث له عن موضوع يناسبه فى علم النفس، ومن هنا اقتصر على المسالك الخارجيـة الصريحة والعمليات الفسيولوجية، بينما كان يتحتم عليه أن ينطلق من الإنسان الذى هو موضوع علم النفس ويبحث له عن المنهج الذى يناسبه.

ولم يقتصر واطسن فى ماديته «العلمية» على استبعاد الظواهر الشعورية وعلى إقحام المنهج التجريبى منهجا لدراسـة الإنسان بل اعتبر الفرد والسلوك مـجرد نتاج للتـعلم (الاكـتسـاب) دون أن يكون للفطرة أو الوراثة من أثر فى ذلك ومن هنا فـإن عبارته الشهيرة أعطنى عشرة من الأطفال أصنع لك منهم ما تريد. كأن الأمر فى نظره يقتصر على إقامـة بعض التشريطات تبعا للمهنة المطلوبة. فلم يكن الفرد عند واطسن أكثر من حاصل جمع لمجموعة من العادات، ولم تكن العادة غير سلسلة من المنعكسات التشريطية حيث تعمل نهاية كل منعكس كمثير يطلق المنعكس الذى يليه، وهكذا يتتابع السلوك مجرد تتابع آلى لعدد من المنعكسات التشريطية، ولم يكن الفرد فى هذا كله يختلف عن لعبة البهلوان التى تأتى لكل حـركتـهـا طالما قمنا بتشغيل الزمبرك. بذلك كانت سلوكية واطسن ميكانيكيـة ذراتية إضافية تنكر الدينامية إنكارها للوظيفية.

وقد كان على السلوكية أن تنتظر كانتور و طلمان لتعترف بالدينامية والوظيفية كما كان عليها أن تتبين استحالة السلوك بغير دافع (وإن الدافع ليس غير توتر يعيشه الفرد كخبرة شعورية) وذلك قبل أن تعترف بالظواهر الشعورية جنبا الى جنب مع ما كان يقول به واطسن من مسالك خارجية وعمليات فسيولوجية. بذلك كانت سلوكية واطسن ذراتية (ضد دينامية) وميكانيكية (ضد وظيفية) وكانت بذلك ابتعاثا فى القرن العشرين لتلك الذراتية الميكانيكية التى كانت تتسم بها النظرية الترابطية، بل وأضفت سلوكية واطسن مزيدا من الجمود على الذراتية والميكانيكية بنزعتها الشيئية Cho-sisme التى تعامل الإنسان معاملة (أشياء الطبيعة)، بل ولا تدرس منه غير مثل هذه الأشياء (مسالك خارجية صريحة وعمليات فسيولوجية)، بينما كانت الذراتية والميكانيكية فى النظرية الترابطية فى القرن التاسع عشر أقل جمودا لأنها تنصب على ظواهر شعورية.

(كان الفرد فى القرن التاسع عشر حاصل جميع ملكات. ونعلى الذاكرة والذكاء والخيال ... إلى آخره، وكانت الملكة حاصل جمع إدراكات، وكان الإدراك حاصل جمع إحساسات) كان الانتظام فى النظرية الترابطية فى القرن التاسع عشر شيئا ينضاف إلى المواد النفسية نتيجة للترابطات التى تنشأ بتأثير الترتيبات الخارجية بين هذه المواد النفسية. ومن هنا كانت نظرية الجشطلت بحق ثورة كوبرنيكية على ترابطية القرن التاسع عشر عندما قدمت الأدلة القاطعة على أن الظاهرة النفسية هى فى صميمها انتظام أى جشطلت، فالانتظام لا ينضاف إلى المواد النفسية من خارجها بل هو صميمها ولبها. فما من ظاهرة نفسية بغير انتظام (انظر الفصل الأول من علم نفس الجشطلت – بول جيوم – الترجمة العربية – مخيمر – الناشر سعيد رأفت) وهكذا فإن سلوكية واطسن قد أضفت على الذراتية والميكانيكية مزيدا من الجمود بنزعتها الشيئية. كان الفرد كما قلنا مجرد حاصل جمع العادات، وكانت العادة مجرد تتابع آلى لعدد من المنعكسات التشريطية التى ترابطت نتيجة للتكرار، وكان هذا كله مجرد نتائج للتعلم (الاكتساب) بعيدا عن كل تأثير للعوامل الفطرية أو الوراثية. وكان هذا كله مجرد امتداد طبيعى لما توصل إليه بافلوف وبختريف فى روسيا فى تجاربهما الشهيرة على

الكلاب والتى تمخضت عن علم نفس المنعكسات التشريطية. فتعلم الفئران للطريق الصحيح فى المتاهات فى تجارب واطسن، شأنه شأن تعليم الأفراد للمقاطع الصوتية عديمة المعنى فى تجارب ابنجهاوز، ليس غير «ترابط» ينتج عن التكرار، وبلغة أخرى ليس غير تتابع آلى لمنعكسات تشريطية تلك هى النظرية الميكانيكية فى التعلم التى يتزعمها واطسن والتى تنفتح لانتقادات قاتلة عديدة. فالمنعكس التشريطى قد تكشف فى نهاية الأمر استجابة تشريطية وذلك لأنه فى حالة «سيلان اللعاب» عند الكلاب مثلا تختلف كمية اللعاب ويختلف تركيبه الكيمائى من تجربة لأخرى عندما نقدم المثير التشريطى (جرسا أو ضوءا أخضر مثلا) دون «تعزيز» أى دون أن يظهر بعده المثير الطبيعى (بودرة اللحم مثلا). وأكثر من ذلك أن الاستجابة التشريطية (ولا نقول المنعكس التشريطى بعد أن ثبت بعده عن البساطة والثبات) تنتهى فى هذه الحالة إلى الانطفاء فلا يظهر سيلان اللعاب عند ظهور المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) ولكن بعد فترة من توقف هذه التجارب يمكن عند تقديم المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) أن تظهر الاستجابة التشريطية (سيلان اللعاب) مما يعرف باسم الاسترجاع التلقائى. وطبيعى أن تكون النظرة الميكانيكية عاجزة تماما عن تفسير مثل هذه الظاهرة وربما يكون أعظم الانتقادات تقويضا للنظرية الميكانيكية هذه هو أن التشريط لا يتم إلا إذا كان المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) سابقا لعدة ثوان على ظهور المثير الطبيعى (بودرة اللحم). فلماذا لا يتم التشريط عندما يظهر المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) لاحقا بعدة ثوان على ظهور المثير الطبيعى (بودرة اللحم)، لو أن الأمر مجرد ترابط ينشأ عن التجاور الذى يتكرر مما نسميه بعامل التكرار. انظر المزيد من انتقادات النظرية الميكانيكية فى التعلم فى (المدخل إلى علم النفس التعليمى - مخيمر - الأنجلو) كل هذه الصعوبات تختفى على الفور عندما نضع فى اعتبارنا الدلالة أى الوظيفية، فجرس الطعام فى المدارس الداخلية أو نوبة الطعام فى الجيش (لحن موسيقى خاص) تنطوى على دلالة بعينها هى (الإنذار) بأن الطعام أصبح الآن معدا وجاهزا لتناوله، ومن هنا يكون سيلان اللعاب عند الأفراد استعدادا لتناول الطعام، أما عندما يشرع الأفراد فى تناول الطعام فبوسعك أن تضرب ما شئت

من الأجراس أو النوبات العسكرية فإنها لن تكون علامة على أن الطعام جاهز أى أنها لا تنطوى على هذه الدلالة.

مثال آخر يوضح ذلك: يحضر صديقك «ع» ولا تكاد تستقبله حتى يدق جرس الباب، وإذا بزيارة من الطعام الفاخر قد وصلتك من قريتك ويتكرر هذا الأمر مرات كثيرة حتى يصبح صديقك «ع» ينطوى على دلالة ويغدو «علامة» على الوصول الوشيك حتى يأتيك الخبر. هذه هى «الدلالة» التى ينطوى عليها، ولكن تصور الأمور تمضى على العكس بحيث لا تكاد تصلك زيارة الطعام الفاخر من قريتك حتى يدق صديقك «ع» الباب حاضرا لزيارتك. فى هذه الحالة سيكون ضيفا ثقيلاً يفرض نفسه ويشارك فى زيارة الطعام الفاخر بينما تفضل أن تنفرد به.

كل شئ يبدو واضحا عندما نتخلى عن النظرية الميكانيكية بترابطها المزعوم والناتج عن تكرار التجاور فى الزمان أو المكان لنتبنى الوظيفية.

وكذلك الحال بالنسبة إلى ظاهرة الانطفاء وظاهرة (الاسترجاع التلقائى) تصور معى طالبا تلتقى به طالبة عدة مرات وفجأة شرعت لا تحضر إلى الميعاد الذى يتفقان عليه يذهب الطالب مرة ولا يجدها ثم مرة ثانية فتخلف أيضا موعدها ثم كذلك الحال فى المرة الثالثة. بعد ذلك يكون من الطبيعى حتى لو اتفقا على موعد جديد ألا يذهب للميعاد. هذا هو ما تسميه السلوكية بظاهرة الانطفاء. وطالما أن الطالبة قد اتفقت معه أكثر من مرة على ميعاد للمقابلة ولم تذهب للميعاد، فمن الواضح أنها لم تعد ترغب فى مقابلته، ربما يكون قد ظهر فارس آخر فى الحقل أكثر امتيازا من صاحبنا.

وتمضى أشهر بلا مواعيد وبلا مقابلات وبعد هذه الأشهر يحدث أنهما يتفقان من جديد على موعد للمقابلة، فى هذه الحالة يكون من الطبيعى لصاحبنا الطالب أن يذهب إلى الميعاد. كانت قد انقطعت عنه فإذا بها قد عادت إليه تتفق على لقاء جديد، أغلب الظن أن الفارس الذى كان قد ظهر وشدها إليه قد اختفى الآن ومن هنا يحتمل جدا أن تكون قد عادت إليه. هذا هو ما نسميه السلوكية «الاسترجاع التلقائى» وتفسره بأن الحيوان يكون قد «تعب» من تكرار التجارب وعندما يشعر بالراحة تعود إليه الاستجابة ومثل هذا التفسير لا يقبله العقل، بل يغدو كل شئ معقولا ومفهوما عندما ننظر إلى الأمر من زاوية الدلالة والوظيفية.

ويغدو الأمر أكثر وضوحا في حالة التشريطات الإجرائية التي تسمى أيضا بالتشريطات الوسيلية أو الأدواتية بينما تسمى التشريطات السابقة في تجارب بافلوف وواطسن بالتشريطات الكلاسيكية. فما هو الاختلاف بين هذين النوعين؟.

تتلخص القصة في أن ثورنديك كان في البداية وفي تجاربه على القطط «المحارات» يفسر التعلم عن طريق الترابط الذي ينتج عن التكرار. ولكن ثورنديك عدل بعد ذلك عن التفسير الميكانيكي وقال بنظرية الدافعية في التعلم والتي تعرف أحيانا باسم المحاولة والخطأ والتي انتهى منها ثورنديك إلى قانون الأثر. فمتى تساوت جميع الظروف، فإن الاستجابة التي يصحبها أو يعقبها مباشرة، أثر سار (إشباع أو خفض توتر) تلقى التعزيز، أي تميل إلى أن تتكرر وبالتالي تثبت في صورة تعلم، بينما الاستجابة التي يصحبها أو يعقبها مباشرة أثر كدر (عقوبة أو توتر) تميل إلى أن تختفي أي إلى الانطفاء، ومن الواضح أن قانون الأثر هذا بتشريطه الإجرائي لا يختلف في شئ عن مفهوم الوظيفية في التحليل النفسي، بل عادة ما يعتبر قانون الأثر في السلوكية مناظرا لمبدأ اللذة والألم في التحليل النفسي. فالسلوك الذي يكون أثره سارا أو مريحا يميل إلى أن يتكرر لأن السلوك في هذه الحالة ينطوي على دلالة تنحصر في استجلاب السرور أو الراحة. يتضح ذلك من مثال بسيط: طالب كلما يرتدي بدلته الزرقاء يكون موفقا مع الجنس الآخر بينما كلما ارتدى بدلته الرمادية يلقى الرفض والإهانة من الجنس الآخر. طبيعي أن تستقر لديه ظاهرة التطير أي التشاؤم من بدلته الرمادية والتفاؤل ببدلته الزرقاء. وفي كل هذه الحالات يظل الأمر مجرد دلالة أو وظيفة لا ترابط ينشأ عن طريق التكرار. لكن نعود ونتساءل عن الاختلاف بين التشريط الكلاسيكي عند بافلوف وواطسن وبين الشريط الإجرائي عند ثورنديك ثم عند سكينر الذي ينسب إليه البعض – دون حق – هذا النوع من التشريط من كثرة ما دافع عنه وأوضح تطبيقاته.

في التشريط الكلاسيكي ينصب التعزيز على المثير، بينما في التشريط الإجرائي ينصب التعزيز على الاستجابة. في حالة التشريط الكلاسيكي ينصب التعزيز كما قلنا على المثير فإن كان المثير طبيعيا (بودرة لحم) سميت الاستجابة (سيلان اللحم)

بالاستجابة الطبيعية، أما إذا كان المثير غير طبيعى (جرس أو ضوء أخضر) تكون تسميته بالمثير الشرطى وتسمى الاستجابة فى هذه الحالة (سيلان اللعاب) بالاستجابة الشرطية، ولكن الاستجابة في الحالتين طبيعية بمعنى أنها تمثل جانبا من العتاد الفسيولوجي للفرد، والأمر كله ينحصر فى أننا نضفى دلالة مثير طبيعى (بودرة اللحم) على مثير آخر غير طبيعى (جرس مثلا). ولو وضعنا مثيرا غير طبيعى آخر (ضوء أخضر) قبل الجرس يكون ذلك تشريطا من درجة أعلى هى الدرجة الثانية، وعادة ما يستحيل المضى بالتشريط إلى أكثر من الدرجة الرابعة.

التعميم والتمييز :

عندما يتم تشريط الكلب مثلا بحيث يستجيب بسيلان اللعاب للضوء الأخضر، فإن الكلب عادة ما يكشف عن ظاهرة «التعميم» بحيث يستجيب بسيلان اللعاب لكل ضوء أخضر مهما اختلف عن الضوء الأخضر الأصلى، ولكنه مع الوقت يتعلم التمييز فلا يستجيب إلا للضوء الأخضر بشدته الخاصة ونوعيته الخاصة على النحو الذى كان عليه فى التجارب التشريطية، ويتضح ذلك عند الطفل الذى يميل فى البداية إلى التعميم فينادى كل رجل بكلمة بابا ونتيجة للحرج الذى تشعر به الأم. تحمله على أن يتعلم التمييز بحيث يقتصر استخدامه لكلمة «بابا» على أبيه دون الرجال الآخرين.

التعزيز والانطفاء :

عندما يظهر الضوء الأخضر ويظهر بعده مباشرة المثير الطبيعى (بودرة اللحم) يكون التعزيز مما يعنى فى رأينا تعزيز دلالة الضوء الأخضر كإنذار يبشر بالظهور الوشيك للطعام.أما عندما يظهر الضوء الأخضر ولا يعقبه المثير الطبيعى (بودرة اللحم) فذلك يعمل على النقيض على انطفاء تلك الدلالة التى كانت للضوء الأخضر. وكذلك فى حالة التشريط الإجرائى فإن الاستجابة التى يعقبها أثر سار فى صورة إشباع أو راحة ناتجة عن خفض التوتر، تلقى التعزيز مما يعنى فى رأينا أن تتدعم دلالتها كوسيلة وأداة وإجراء يبلغ بالكائن إلى السرور. وعلى العكس عندما تظهر الاستجابة ولا يعقبها الأثر السار فإنها فى هذه الحالة تعانى الانطفاء أى تميل إلى عدم الظهور والاختفاء.

والخلاصة أنه سيان كان التشريط كلاسيكيا على طريقة بافلوف وواطسن أو إجرائيا على طريقة ثورنديك وسكينر، يتحتم أن يكون الكائن العضوى فى حالة دفاعية عالية، ثم يكون علينا بعد ذلك إما أن نضفى دلالة مثير طبيعى على مثير آخر غير طبيعى فنقدمه سابقا عليه ببضع ثوان ويكون التشريط فى هذه الحالة كلاسيكيا، وإما أن نضفى على استجابة ما دلالة سارة أو كدرة بحيث نجعلها تتمخض عن السرور أو الكدر فيكون التشريط فى هذه الحالة إجرائيا. فالتشريط الكلاسيكى ينحصر فى إضفاء دلالة جديدة على مثير ما، بينما ينحصر التشريط الإجرائى فى إضفاء دلالة جديدة على استجابة ما. وتكون الاستجابة فى التشريط الكلاسيكى استجابة طبيعية يطلقها مثير طبيعى تقوم فى التشريط بإضفاء دلالته على مثير آخر ليس من طبيعته أن يطلق الاستجابة ولكنه يصبح نتيجة التشريط قادرا على إطلاق الاستجابة. أما فى حالة التشريط الإجرائى فإن الاستجابة لا تكون طبيعية (أى تنتمى إلى العتاد الفسيولوجى للكائن العضوى) بل تكون مجرد حركة أو إجراء يصدر عن الكائن العضوى فتعقبه بأثر سار أو بأثر كدر ومن ثم نعمل على تعزيزه وتثبيته أو إطفائه(١).

بذلك نكون قد عرضنا للتشريط الكلاسيكى والتشريط الإجرائى وتبينا كيف أنهما فى الواقع يستندان إلى مفهوم الوظيفية (الدلالة). وكذلك قد رأينا ما يعنيه التعزيز والانطفاء فى التشريط الكلاسيكى والإجرائى بل وما قد يكون هناك استرجاع تلقائى. وبالنسبة إلى التشريط الكلاسيكى رأينا التعميم والتمييز التشريطى من درجة أعلى وبذلك نكون قد عرضنا لأهم المفاهيم – المفاتيح التى تقوم عليها السلوكية.

وفى رسالته(٢) عن العلاج السلوكى – عرض ونقد – أوضح حسام عزب أن العلاج السلوكى (حتى فى أحدث صورة التى تسمى بتعديل السلوك والتى تحاول إنكار السيكودينامية والصراع) إنما تقوم على السيكودينامية شأنه شأن التحليل النفسى. فما

---

(١) وكما أن مبدأ اللذة فى التحليل النفسى يلقى التسليم فكذلك النصف الأول من قانون الأثر عند ثورنديك، بينما مبدأ الألم وما يلحق به من قهر التكرار ينفتح للجدل فى التحليل تماما كما ينتج النصف الثانى من قانون الأثر عند ثورنديك الجدل فى السلوكية.

(٢) رسالة الدكتوراة تحت إشراف مخيمر – جامعة عين شمس – ١٩٧٨ .

يسميه العلاج السلوكى الحديث (تعديل السلوك) بالعوامل غير النوعية (الاستبصار وعلاقة المريض بالمعالج بما تنطوى عليه من رغبة واعتقاد فى الشفاء وقابلية للإيحاء، والتنفيس .. الخ) ليس غير ظاهرة الطرح فى التحليل النفسى، بينما الفنيات التى يعتبرها تعديل السلوك عوامل نوعية توجد فى التحليل النفسى على أنها عوامل مساعدة. فمن المعلوم أن فرويد فى علاج الفوبيات قد أوصى (عندما يصل التحليل إلى تفكيك بنيان العصاب بدرجة كافية) بضرورة تشجيع المريض على مواجهة المواقف المرهوبة بمعنى تعريضه للمثيرات المرهوبة، وهذا التعريض عندما يتم بالتدريج فيمضى من الأقل إرهابا إلى الأكثر إرهابا يكون التحصين التدريجى بينما يكون التعريض فى فنيات أخرى غامرا وبدون تمهيد من الاستبصار سابقا على الغمر. وعندما يكون التعديل بمحاكاة المعالج كأنموذج مما يسمى Modeling فتلك نتيجة مباشرة للطرح الموجب بينما عندما يتم التعديل بغير محاكاة المعالج مما يسمى "Shaping فذلك أثر أيضا من آثار الطرح الموجب حيث يتم التعديل على النحو الذى يريده المعالج.

وهكذا نجدنا مرة أخرى أمام كثرة من المصطلحات المختلفة لمدارس مختلفة الأسماء، بينما يكون المضمون هو هو وبعينه.

الصراع محور الصحة النفسية

أولا : فى وجهات النظر التفسيرية :

١ - هناك وجهة النظر العصبية الفسيولوجية :

فعلم الأعصاب وعلم الفسيولوجيا ينظران إلى الفرد على أنه جهاز فيزيائى معقد ومن ثم ترجع الاختلالات إلى خلل فى الجهاز أو عطل نزل فى بعض أجزائه. هذا العطل يمكن أن يكون نتيجة تلف لجزء أو بعض من الأجزاء بفعل الإصابة أو المرض مما يدخل فى اختصاص طبيب أمراض الجهاز العصبى. كما يمكن للعطل أن يكون نتيجة تلف بفعل سم دخيل كالكحول أو بفعل مادة سامة تفرز فى الداخل. مما يدخل فى اختصاص الفسيولوجيا.

وعلم الصحة النفسية لا يقوم على التفسير العصبى الفسيولوجى باختلالته النوعية من قبيل الأفازيا والإتاكسيا .. الخ ولكنه يسلم بأن هذا تخصص آخر ينتمى إلى الطب النفسى ويتناول اختلالاته الطبيب النفسى الذى هو طبيب عادى تخصص بعد تخرجه فى الاضطرابات العقلية ويقوم علاجه على العقاقير والصدمات الكهربية. ويقضى العرف الشائع على المحلل النفسى أو المعالج النفسى ألا يشرع فى العلاج النفسى لحالة من الحالات قبل أن يتأكد بأن الاختلالات فى هذه الحالة لا ترجع إلى أسباب عضوية، الأمر الذى يتم فى العادة عن طريق فحص طبى.

٢ - وهناك وجهة النظر السيكولوجية :

فعلم الصحة النفسية ينظر إلى الفرد على أنه كائن كادح فى بيئته من أجل إشباع حاجاته. ومن هنا فالمفاهيم الأساسية هى الحاجات والإحباطات والصراعات والتكيفات. فالسلوك غير السوى هو توافق غير تكيفى ينتج فى رأى السلوكية عن صراع بين حاجات الفرد وحاجات البيئة(١) مما نعتبره نتاجا لعملية تعلم فاشلة.. لنأخذ مثلا حالة طفل لديه بالطبع حاجات للنشاط والتعبير الخارجى ولديه أيضا حاجات قوية لحب الوالدين وعطفهما وتقديرهما.

---

(١) بينما ينتج فى رأى التحليل النفسى عن صراع داخلى بين الهى وحاجاتها الغريزية والأنا بدفاعاتها تساندها الأنا العليا.

فإذا وجد من الوالدين صدا لمحاولاته للتعبير عن رأيه ونشاطه فإنه يتعلم من قبيل التوافق الانسحاب والصمت. فالأمر الذى يفهمه التحليل النفسى من الناحية الدينامية والوظيفية على أنه صراعات داخلية بين الحفزات الغريزية ودفاعات الأنا تمخضه عن حلول توافقية تكيفية أو توافقية غير تكيفية، تفهمه السلوكية من زاوية التشريط والعادات.

ثانيا : فى وجهة النظر السيكولوجية :

إن التفسير السيكولوجى للسلوك غير السوى هو هو نفسه بالنسبة للسلوك السوى ففى الحالتين يستند إلى مفاهيم الحاجات والإحباطات والصراعات والتوافقات أو التكيفات. ففى تجارب المحارة والمتاهة فى السلوكية يكون الدفاع عن الحيوان حاجة فسيولوجية وتكون ظروف البيئة معوقة لإشباع هذه الحاجات (دافع – إحباط). وعجز الكائن عن الإشباع يدفعه إلى سلسلة من المحاولات العشوائية: تتتابع فيها الحلول الفاشلة حتى يكتشف فجأة – وربما عن طريق الصدفة– الحل الذى يتأدى به إلى الإشباع الذى يقوم بتعزيز «الاستجابة – الحل» ومن ثم تثبت فى صورة تعلم (استجابات منوعة – حل بنائى(١)). أما فى حالة الإنسان فتظهر إمكانية جديدة هى إمكانية الحلول البديلة التى لا تفى تماما بالغرض، وهذه الحلول البديلة عظيمة الأهمية من زاوية علم الصحة النفسية (علم النفس المرضى) وذلك لأن هذه الحلول البديلة تكون فى السلوكية إما فى صورة ميكانيزمات دفاعية أو فى صورة أعراض مرضية.

كل ذلك بالنسبة للسلوكية، أما فى التحليل النفسى فإن الصراع لا يمكن مهما كانت قوته أن يتمخض عن المرض والاختلالات طالما ظل شعوريا. فالصراع اللاشعورى هو وحده الذى يمكن أن يتمخض عن الاختلالات وعلى وجه الدقة ينحصر هذا الصراع اللاشعورى فى العقدة الأوديبية عندما يعجز الطفل عن تصفيتها فيلجأ إلى استبعادها من الشعور بمعنى أن يكبتها ومن ثم تصبح العصاب الطفلى الذى

(١) تلك هى وجهة النظر السلوكية عند دولارد وميللر وشافروشوبن التى تختلف عن السلوكية الجديدة أى تعديل السلوك التى ترفض مفهوم الصراع وتقتصر فى حديثها على التشريطات الكلاسيكية أو الإجرائية.

هو بذرة كل مرض نفسى أو عقلى فى المستقبل. والصراع فى التحليل النفسى حفزة غريزية خطرة (سواء كانت جنسية أو عدوانية)، ومن ثم يتولد القلق إشارة إنذار بهذا الخطر، وتعبئ الأنا ميكانيزمات الدفاع لمواجهة هذا القلق فإذا نجحت انحل الصراع وإذا فشلت ظهرت الأعراض المرضية محصلة فى العادة للحفزات الغريزية وللميكانيزمات الدفاعية، وإن كانت أحيانا مجرد تعبير عن دفاعات الأنا أو مجرد نتاج لافتقار الأنا من حيث الطاقة النفسية مما كان يدخل عند فرويد تحت العصاب العقلى.

ثالثا: فى الدوافع وصراعاتها(١):

وراء كل سلوك دافع. ولكن الدينامية تقضى بأن يكون السلوك محصلة صراع بين دافعين أو أكثر ومن هنا تظهر أهمية فهمنا للدوافع وصراعاتها. والدافع هو هذا التفكك الذى يطرأ على الاتزان القائم فى صورة توتر يدفع بالكائن إلى إزالة هذا التوتر وإعادة الاتزان.

فالدافع طاقة تحرك (الحافز فى السلوكية يحرك ولا يوجه بل التشريطات هى التى توجه) حتى يتم القضاء على التوتر ويحقق الاتزان من جديد (انظر مبدأ الهيموستازس ومبدأ الثبات .. الخ) ويظهر الدافع فى صورة حاجة يعيشها الشخص فى صورة توتر. فى الموقف المألوف يظهر السلوك المألوف ويكون الإشباع أى إعادة الاتزان. أما فى الموقف غير المألوف فتكون المحاولات التى تبلغ إما إلى الإشباع وإعادة الاتزان وإما إلى الدفاع وإعادة نوع من الاتزان أيضا، فالنهاية إما إشباع وإما دفاع.

وتتباين المدارس فى نظرتها إلى طبيعة الدوافع. فنظرية الغرائز تجعل من الدوافع الأساسية قائمة الغرائز فى الإنسان بينما تكون الدوافع الثانوية بمثابة مشتقات من الأولى. قال ماكدوجال بأربع عشرة غريزة ولكنه انتهى إلى الحديث عن العواطف التى هى الغرائز فى اشتباكها بالبيئة.

---

(١) فيما يتصل بالدوافع انظر الفصل العاشر فى التنشئة ودور الأسرة والمدرسة فى كتاب المدخل إلى الصحة النفسية – الطبعة الثالثة – مخيمر – الأنجلو.

أما نظرية التحليل النفسى فالدوافع كلها ترتد إلى مجموعتين من الغرائز الجنسية والعدرانية التى تمثل المعبر بين البيولوجى والنفسى، وتظهر هذه الغرائز فى صورة طاقة هى الليبيدو والذى يغلب عليه عند فرويد أن يكون طاقة نفس جنسية بينما يعتبره يونج الطاقة الحياتية.

وإذا كانت الدوافع عند مكدوجال فى نظريته التفاعلية تعمل جنبا إلى جنب وفى تفاهم فإن هذه الدوافع فى النظرية التفاعلية عند فرويد تدخل أساسا فى صراعات وتتمخض عن محصلات ،مما يجعل فرويد بحق أستاذ الدينامية فى علم النفس. كما كان سان سيمون أستاذ الدينامية فى علم الاجتماع.

وهناك نظرية المنعكسات التى تعتبر الدوافع الأساسية فى أصلها مجرد ردود فعل تظهر فى الكائن العضوى نتيجة التنبيهات التى تناله ويكون قوامها تغيرات كيمائية ولكن هذا التفسير لا يصدق على الدوافع الثانوية بل ويظل قاصرا فى حالة الدوافع الأساسية.

وهناك أيضا نظرية الحاجات التى تعتبر الدوافع الأساسية مجرد حاجات تظهر عندما يعانى الكائن العضوى ضياع اتزانه من زاوية ما (يظهر الجوع عند اختلال الاتزان من زاوية العناصر الغذائية) ذلك هو موقف ماسلو مثلا الذى يعتبر الدوافع نسقا ثابتا من الانتظام الهرمى للحاجات بحيث لا تظهر رقاقة إلا إذا حظيت الرقاقات التى تحتها بالإشباع. وهذه النظرية تتخطى التفرقة العقيمة بين دوافع فطرية وأخرى مكتسبة.

هناك محاولات لتصنيف الدوافع وحصرها فى قائمة واحدة وبعينها:

(أ) محاولة لتصنيفها إلى دوافع فطرية أولية (غرائز) وإلى دوافع مكتسبة ولكن يصعب الفصل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب ومن هنا يكون الاختلاف (فى النظر إلى التملك والسيطرة ... الخ).

(ب) محاولة لتصنيفها إلى دوافع أولية (عضوية) وإلى دوافع ثانوية تضم بقية الدوافع ولكن كثرة من الدوافع الأخيرة تستند فى الواقع إلى أساس عضوى.

(جـ) محاولة لتصنيفها إلى دوافع فطرية ودوافع اجتماعية ودوافع متراكبة تقوم على التمييز بين ما هو فطرى وما هو مكتسب وتلك ثنائية تخطاها علم النفس(١). فبعض الدوافع تغلب عليها فى الواقع الصفة الفطرية وبعضها الآخر تغلب عليه الصفة الاكتسابية بينما بعض ثالث تغلب عليه أساسا الصفة الشخصية ومن هنا يكون تفوق نظرية ماسلو فى الانتظام الهرمى للحاجات (الحاجات الفسيولوجية) فى قاعدة السلم تحجب ظهور هياكل مافوقها. ثم تأتى بعد ذلك حاجات الأمن والسلامة، ثم تأتى بعد ذلك حاجات تقدير الذات فى نظر الفرد ونظر الآخرين. ثم تأتى أخيرا حاجات توكيد الذات وتحقيق إمكاناتها (انظر جولدشتين) تلك هى الدوافع الأساسية عند ماسلو، وهناك دوافع أخرى تلحق بها. وينبغى التنبه إلى أن هذا الترتيب الدرجى ثابت لا يتغير عند ماسلو فهو لا ينتبه إلى أنه يمكن أن يأخذ انتثارات متباينة بحيث يمكن القول بأن الدوافع عامة ونوعية وفردية معا. وينبغى التنبه أيضا إلى أن الدوافع وإن تعاونت أحيانا فى صياغة سلوك ما إلا أن الأساس هو تصارعها كما يعلمنا التحليل النفسى. وقد يكون الصراع بين حاجات من هذه الدرجة وحاجات من درجة أخرى فى السلم ولكنه يكتشف دائما صراعا بين الحاجات الغريزية وحاجات الأنا إلى الأمن بمجاراتها للقيم الأخلاقية.

بوسع التعلم عن طريق الشريط، أن يعدل من المواقف التى تثير الدوافع كما يعدل من اللون الذى تتخذه. فهناك تحديد ثقافى للمجرى الذى ينبغى أن تسير فيه إلى الإشباع بل والموضوعات التى يمكن أن تتجه إليها الدوافع. فالدوافع وإن كانت عامة فإنها تتشكل ثقافيا وتتخذ عند كل فرد انتشارا فريدا. ومن هنا تظهر أهمية التنشئة للأطفال (انظر سيكولوجية الشخصية نوتكات ترجمة مخيمر حيث تتباين النظريات البيئية من السلوكية إلى الماركسية إلى الأنتروبولوجيا الثقافية، انظر أيضا النظريات التفاعلية فى التحليل النفسى وماكدوجال ونظرية المجال عند كيرت ليفن).

خلاصة هذا كله أن الدوافع تشكل بفعل التعلم وبقدر ما تلقى من الدوافع

(١) ما من تعلم (بيئة) ممكن إلا فى الحدود التى تسمح بها الفطرة، وما من وجود ممكن للفطرة الأعلى مسرح البيئة (التعلم) فكل محاولة لعزل الفطرة (النضج) عن التعلم (البيئة) ليست غير عبث وجهد دون طائل.

الأساسية الفسيولوجية الإشباع تبرز إلى السطح الدوافع الثانوية النفسية الاجتماعية وتحتل مكان الصدارة.

فبالنظر إلى تبعية الطفل لوالديه وخاصة إبان الطفولة فإنه يتعلم الحاجات الاجتماعية أى الثانوية بغية تقبل الآخرين له وحبهم وتقديرهم. فكيما يبلغ إلى الأمن والمحبة يلجأ إلى المجاراة، والتوحد مع الآخرين مما يسمى القطيعية. وبالنظر إلى حضارتنا تتطلب النجاح عن طريق التنافس والمباراة فإنها تولد أيضا عند الأفراد الدافع إلى التفوق والبروز والسيطرة بما ينطوى عليه ذلك من طموح وعدوانية. وحضارتنا لا تسمح في الواقع بإشباع هذه الحاجات إلا عند قلة قليلة. ومن هنا يكون إحباط هذه الحاجات الاجتماعية عند الغالبية طريقا فسيحا إلى الحلول البديلة والاختلالات. هذا إلى عديد من الدوافع المتناقضة الأخرى التى تعكس تناقضات المجتمع الرأسمالى. فهناك الدافع إلى التعبير عن التلقائية ودافع مضاد للإبقاء على محبة الآخرين وتقديرهم. مما يعنى الدافع إلى التفوق وتخطى الآخرين، والدافع المضاد بضرورة معاونة الآخرين لكسب حبهم وتقديرهم. وهناك الدافع إلى الحرية ودافع مضاد من معوقاتها الواقعية. دافع إلى الطموح ودافع مضاد من معوقاته الواقعية. دافع الإشباع تولده الإعلانات المغرية ودافع مضاد من معوقات واقع الأمور وتوزيع الثروات. دافع جنسى تولده التحررية المتزايدة للموضة ودافع مضاد من معوقات القيم الأخلاقية، هذا إلى أن الدافع الجنسى قد يتعارض مع دافع الطموح. وهذا وذاك قد يتعارضان مع دافع الأمن بالإضافة إلى دافع تقدير الآخرين ومحبتهم.. وهكذا فإن الدوافع كما يتعلمها الطفل تفرض على حياته الصراعات.

من زاوية التحليل النفسى فإن دوافعنا الغريزية فى الغالبية منها تعتبرها القيم الثقافية دوافع خطرة. ومن هنا تتعلم الأنا الوقوف فى وجهها والدفاع ضدها بذلك تنشأ الصراعات ولكن حتى فى غيبة هذه التحريمات الاجتماعية فإن الصراع يظل بعدا من أبعاد الحياة، ذلك أن بعض الدوافع الغريزية تمثل بالنظر إلى شدتها وعلى أرضية من ضعف الأنا الطفلية خطرا يتهدد انتظام الأنا بالانغمار ومن ثم تلجأ إلى الدفاع ضد هذه الدوافع الغريزية.

فالصراع بعد من أبعاد الحياة البشرية.

رابعا : في ديناميات الصراع من زاوية السلوكية (ميللر) :

يذهب (دولارد) و (ميلارد) إلى أن الصراع الانفعالى الشديد هو الأساس الضرورى للسلوك العصابى(١) ودراسة الصراع فى علم النفس التجريبى قد ارتبطت بشكل وثيق باسم ميللر وبالنظر إلى أن تحليله لديناميات الصراع هو شئ أساسى لفهم السلوك العصابى فسوف نتناول هذا الأمر فى شئ من التفصيل.

الأنواع العامة للصراع فى نظر ميللر :

١ - صراع الاقتراب - الاقتراب :

وهو يشير إلى الموقف الذى تكون فيه لدى الكائن نزعة الاقتراب من هدفين مستقلين مع كون الاقتراب من أحد الهدفين يتمخض عن فقدان الآخر. مثال نمطى بهذا النوع من الصراع هو الفتاة بين خطيبين جذابين بنفس الدرجة، وتود الزواج من كليهما واختيار أحدهما يتمخض بالضرورة عن فقدان الآخر.

هذا النوع من الصراع عادة ما يكون يسيرا فى فضه، حيث يحدث فى العادة ما يرجح إحدى الكفتين جاعلا أحد البديلين مرغوبا فيه بأكثر من الآخر.

٢ - صراع الاجتناب - الاجتناب :

وهو يشير إلى الموقف الذى يقوم فيه شيئان أو هدفان باستخراج استجابات الخوف ولكن تجنب الواحد يكره الحركة إلى أن تتجه إلى الآخر.

وهذا النوع من الصراع مثاله الطالب الذى يكره أو يخاف من الدراسة وفى نفس الوقت يخاف الرسوب فى الامتحان(٢)، فإذا كان صراع الطالب قويا لدرجة كافية فإن حله يمكن أن يكون بترك المدرسة والعثور على عمل.

٣ - صراع الاقتراب الاجتناب :

هذا النوع أكثر تخريبا من النوعين الأولين، لأنه يحدث عندما يكون هدف بعينه موضع رغبة ورهبة، فى نفس الوقت. وقد حظى صراع الاقتراب الاجتناب

---

(١) أمكن توليد العصاب التجريبى عند الكلاب (ربط الدائرة بالطعام والبيضاوى بصدمة كهربية ثم إظهار شكل وسيط لا يتضح إن كان دائريا أو شكلا بيضاويا).

(٢) لكي يتجنب الرسوب لابد أن يقع فى الدراسة ولو تجنب الدراسة لابد أن يقع فى الرسوب.

بدراسات تفصيلية كما أمكن البرهنة على أن له تأثيرات مضنية على السلوك سواء فى المعمل أو الحياة بصفة عامة.

ومثال لصراع الاقتراب الاجتناب، هو الطفل الصغير الذى تكون أمه مولعة بالعقوبة ولكنه مع ذلك فى تبعية تامة لها من أجل الحب والرعاية،إنه لا يستطيع أن يتجنب أمه بسبب اعتماده عليها، ومع ذلك لا يستطيع أن يقترب بسبب خوفه منها. مثال آخر هو الفتاة التى ترغب فى الزواج وفى نفس الوقت تخاف من الزواج. وفى الحياة تكون معظم صراعاتنا متشابكة، بحيث تغدو صراعات اقتراب – اجتناب مزدوجة أو متعددة، ومثال ذلك فتاتنا فى نفس الوقت (ترغب فى) و (تخاف من) الزواج والتى يتحتم عليها الآن أن تختار بين خطيبين جذابين فى نفس الدرجة، والتأثير التخريبى لصراعات الاقتراب الاجتناب، يرجع إلى كونها مستحيلة على التجنب بحكم طبيعتها، فما لم يكن الكائن تحت شروط غير عادية من التقييد فإنه يستطيع أن يفض صراع الاجتناب الاجتناب أى الاقتراب الاقتراب ولكنه فى حالة صراعات الاقتراب–الاجتناب لا تكون هناك إمكانية للإفلات.

وعندما يكون الكائن العضوى فى حالة صراع فإنه يكون فى حالة استثارة قوية وكدرة(١) فالصراع هو شكل من أشكال الإحباط، وميللر يقوم بتحليل صراع الاقتراب – الاجتناب بالمبادئ أو الافتراضات الأربعة التالية:

١ – أن النزعة إلى الاقتراب من الهدف تكون أكثر قوة كلما كان الفرد أكثر قربا من هذا الهدف ويسمى ذلك ممال الاقتراب.

٢ – أن النزعة لتجنب مثير مرهوب تكون أكثر قوة كلما كان الفرد أكثر قربا من هذا الهدف. ويسمى ذلك ممال التجنب.

٣ – أن قوة التجنب تزداد على نحو أكثر سرعة (على القرب) بأكثر مما تفعل قوة الاقتراب. وبعبارة أخرى فإن ممال التجنب أشد انحدارا من ممال الاقتراب.

---

(١) صميم الصراع فى السلوكية هو هذا التوتر الذى يدفع الكائن إلى سلسلة من المحاولات والأخطاء حتى يقع على سلوك خافض للتوتر، وبالتالى يلقى هذا السلوك التعزيز ويثبت فى صورة تعلم. وقد يكون هذا ميكانيزما دفاعيا أو عرضا مرضيا.

٤ – أن قوة النزعة إلى الاقتراب أو التجنب تختلف باختلاف قوة الحافز الذى تستند إليه النزعتان. وبعبارة أخرى فإن الزيادة فى الحافز تزيد من ارتفاع المجال كله.

ومثال ذلك صراع رجل شاب يرغب بشكل يائس فى لقاء فتيات. ولكنه فى نفس الوقت يرهب بشكل يائس الاتصال مع الفتيات. فعندما يكون بعيدا عن موعد اللقاء، ربما فى يوم السبت، فمن الممكن أن يشرع فى سلوك اقتراب فيطلب من فتاة موعدا فى نهاية الأسبوع ولكن كلما اقترب الهدف المرهوب فإن استجابات الخوف لديه سوف تزداد قوة حتى تبلغ النقطة التى تكون فيها مساوية لاستجابات الاقتراب لديه ثم تلك التى تصبح عندها أقوى من استجابات الاقتراب لديه وربما فى يوم الأربعاء كون نزعات التجنب لديه أقوى من نزعات الاقتراب ومن ثم فسوف يلغى الموعد.

خامسا : الصراع بين السلوكية والتحليل النفسى :

فى السلوكية: الحرمان حالة لا يتحقق فيها إشباع الدوافع بينما الإحباط حالة لا يتحقق فيها أيضا إشباع الدوافع ولكن على نحو ينال من قيمة الذات (العانس تعانى الإحباط أكثر مما تعانى الحرمان) – وعلى الرغم من صعوبة التمييز بين ما هو داخلى وما هو خارجى فإن الإحباط الذى يرجع إلى عقبات داخلية نفسية يسمى بالصراع. والحالات الهينة من الصد نادرا ما تؤدى إلى صعوبات تكيفية خطيرة اللهم إلا أن تكون لدى الشخص حساسية انتقائية إزاء نوعية الموقف. (فالشخص الذى شعر فى طفولته الباكرة بأن الأم لا تقبله يمكن أن يجد نفسه حين يكبر فى موقف صدمى إذ صدته امرأة يحبها وهذا ينتمى فى الواقع إلى الصراع.) أما فى الحالات العادية فإن الفرد يستجيب للصد بالمثابرة أو العزوف فيبلغ إلى الهدف أو ينصرف عنه. وأحيانا ما يستجيب للصد بالعدوان خاصة حين تفشل مثابرته فى البلوغ إلى الهدف.

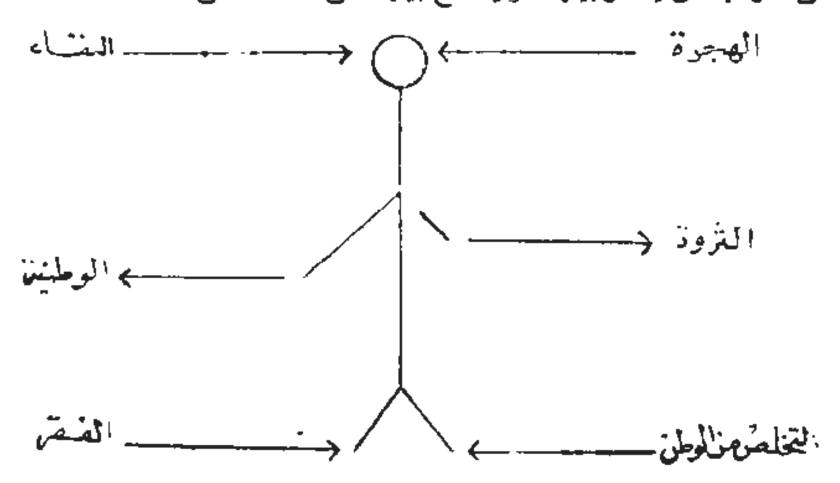
الصراع هو كما قلنا إحباط داخلى بمعنى أنه ينتج عن دافع يعترضه دافع آخر هو مضاد الرغبة. ومن هنا فالصراع هو دافعان يقف كل منهما فى وجه الآخر.

مثال الراغب فى الهجرة :

فى المستوى الأول: قوتان جاذبتان والشخص مشدود بينهما (الثروة فى حالة الهجرة والوطنية فى حالة البقاء).

فى المستوى الثانى: قوتان طاردتان والشخص مضغوط بينهما (التخلى عن الوطن فى حالة الهجرة والفقر فى حالة البقاء).

وفى المستوى الثالث: حين نأخذ الهجرة نجد (سهما يشد الشخص إليها وسهما آخر يدفعه عنها) (الثروة والتخلى عن الوطن) وكذلك حين نأخذ البقاء نجد (سهما يشد الشخص إليه وسهما يدفعه عنه الوطنية والفقر). وأمام هذا الصراع الشعورى يتحتم على الفرد إما أن يختار بينهما أو يصالح بينهما فى حل ائتلافى.



فى التحليل النفسى :

أما حين تكون الصراعات لا شعورية فلا يستطيع الفرد أن يوجهها إلا بالتجاء إلى حلول بديلة لا شعورية (ميكانيزمات دفاعية) وهذه الصراعات هى لا شعورية إما لأنها تنتمى إلى الطفولة السابقة على تعلم اللغة أو لأنها أصبحت من قبيل الدفاع لاشعورية بفعل الكبت. كانت هذه الدوافع الغريزية فى الطفولة شعورية وأصبحت فى وقت ما خطرة وبرز القلق إشارة إنذار بهذا الخطر فتحركت دفاعات الأنا وقامت بكبت هذه الدوافع الغريزية. بذلك يتحقق الاستعداد العصابى إذ يتحقق التثبيت وعندما يكبر

الفرد ويلتقى فى الحياة بموقف يرتبط بالموقف الأصلى الذى تمخض عن الكبت أو ينطوى على تلميح إليه يبرز القلق إشارة إنذار هو شحنة تجريبية من الخطر القديم. ومن ثم تنشط دفاعات الأنا فتقوم بالكبت الثانوى أو التكوينات المضادة أو الاستثمارات المضادة التى تأتلف مع الشحنة التجريبية للحفزة فى صورة الأعراض المرضية.

وخلاصة هذا كله أن الصراعات الطفلية اللاشعورية هى التى تقيم الاستعداد العصابى ومن ثم فإنها تؤثر بشكل مباشر وبشكل غير مباشر فى إمكانية الكائن على التكيف.

تصنيف الاختلالات فى التحليل النفسى: الأعصبة (عدم التناسب بين الإثارة والإفراغ).

١ – بسبب إثارة خارجية = أعصبة صدمية.

٢ – بسبب تعطيل بدنى كالجماع المقطوع = أعصبة فعلية.

(أ) عصاب قلق (قلق هائم).

(ب) نيوراستينيا.

٣ – بسبب تعطيل الدفاعات للإفراغ = أعصبة نفسية.

(أ) أمراض نفسية : أعصبة طرح.

١ – فوبيات (مخاوف مرضية) (هستريا قلق).

٢ – هستريا تبدين (تحولية) ويتبعها التجوال النائم وازدواج الشخصية.

٣ – عصاب قهرى (حواز أى وساوس).

(ب) أمراض عقلية: أذهنة أى أعصبة نرجسية.

١ – ذهان الهوس الاكتئابى.

٢ – البارانويا.

٣ – الفصام (شيزوفرينيا).

هذا إلى جانب الأفعال الاندفاعية من إدمانات كحولية أو إجرامية ... الخ من انحرافات جنسية.

سادسا : خلاصة فى كلمات :

حاجة غريزية :

١ – إشباع (إفراغ كامل ومباشر) : سوية.

٢ – عدم إشباع بسبب خارجى (إحباط خارجى المصدر) : صد.

(أ) عزوف.

(ب) مثابرة حتى النجاح أو فشل فعدوانية : سوية.

٣ – عدم إشباع بسبب داخلى (إحباط داخلى المصدر) : صراع.

صراع شعورى (بين إقدامين – إحجامين – إقدام وإحجام).

ولكن الصراع العصابى هو صراع لا شعورى هو دائما حفزة غريزية خطرة تولد القلق الذى يستنهض الدفاعات أى هو دائما صراع بنيانى بين منظمتين (الهى والأنا).

١ – فض الصراع .

إشباع كامل ومباشر.

٢ – كبت بالمعنى العام ثم إعلاء بضرب الحفزة قبل الإنسالية بشكل مائل بعد انتظام غالبية الطاقة تحت الهيمنة الإنسالية(١).

٣ – كبت بالمعنى الدقيق فيصبح الصراع لا شعورياً (عصاباً طفلياً) أى البذرة والأساس للأعصبة.

عصاب طفلى :

(أ) يواجه الرجل فى الرشد موقفا من الإحباط يشابه الموقف الطفلى أصل الكبت أو يرتبط به.

(فتاة ترفضه بعد حب كما فعلت الأم فى طفولتها).

(ب) أمام الإحباط ينقص جزء من طاقة الأنا إلى نقطة التثبيت أى العصاب الطفلى. بذلك تنضاف طاقة إلى المكبوتات فتصبح قوية وتبدأ عودة المكبوتات فى صورة قلق أى إشارة تنذر بالخطر القديم تحريكا لمبدأ اللذة والألم ومن ثم الدفاعات.

---

(١) الحفزات قبل الإنسالية هى وحدها التى تسمح بالإعلاء وعددها ست : الفمية والإستية والسادية والمازوشية والاستعراضية والنظارية.

(جـ) جزء الأنا الذى لم ينكص يتحرك فى صورة دفاعات ويضرب المكبوتات العائدة ومحصلة ذلك هى الأعراض المرضية (وكبت ثانوى أو تعديل الأنا فى صورة تكوينات مضادة تتحد مع الشحنة العائدة فتكون الأعراض المرضية (إفراغ جزئى غير مباشر).

ملاحظة :

القلق هنا عودة المكبوتات فى صورة جزئية فهو قلق لاحق على الكبت.

أما فى البداية عند نشأة الصراع فالقلق كما هو واضح سابق على الدفاع بل هو سبب الدفاع أو قل سبب الكبت. وكذلك فى النقطة الأخيرة فإن القلق إشارة إنذار والذى هو شحنة تجريبية لتحريك الدفاع يمكن أن يؤدى فيما بعد إلى الكبت الثانوى فيكون القلق بذلك سابقا على الكبت.

الصراع العصابى فى التحليل النفسى

الصراع يكون دائما بين الهى والأنا

الصراع بين الغرائز المتضادة :

يمكن أن يوجد مطلبان غريزيان متضادان فى الهدف جنبا إلى جنب فى الهى فلا يشعر الشخص بصراع ولكن حين يشعر بتناقضهما وصراعهما فذلك لأن أحد المطلبين يعمل فى خدمة دفاعات الأنا وبالتالى فالصراع بنيانى أى بين جهازين مختلفين، بين الهى والأنا (مثلا الجنسية المثلية تضطلع بكبت الغيرية، وتضطلع السادية بكبت المازوشية).

فى هذه الحالة يكون الصراع فى الظاهر هو صراع بين غريزتين ولكنه يترجم فى الواقع عن صراع بين حفزة كريهة وبين مشاعر (قلق أو إثم) مضاد لتلك الحفزة وعليه فهو صراع بين الهى والأنا. وهذه المشاعر المضادة تسخر فى خدمتها حفزة أخرى تضاد فى هدفها الحفزة الكريهة وذلك بأن تزيد من شدة الحفزة المضادة.

والتكوينات المضادة هى فى العادة وعلى وجه الخصوص تستند إلى الغرائز ذات الأهداف المضادة، والغرائز ذات الأهداف المتضادة لا تدخل فى صراع إلا إذا اضطلعت الأنا بدفاعاتها بتدعيم أحدهما وبالتالى صراع بنيانى بين الهى والأنا فالصراع العصابى هو صراع بين حفزات الهى ودفاعات الأنا.

العالم الخارجى فى الصراعات :

إن المثيرات الخارجية تلعب دورا مهماً كباعث للدفاع ولكن العالم الخارجى لا يمكنه أن يضطلع بالدفاع والكبت فذلك يتم بفضل الأنا. فالعالم الخارجى يرغم الأنا على خلق قوى كابتة. وباختصار لا دفاع بغير الأنا وبالتالى لا عصاب بغير الأنا فالصراع بين الهى والعالم الخارجى لابد أن يتحول إلى صراع بين الهى والأنا إن كان له أن يكون صراعا عصابيا.

والعالم الخارجي يتعرض للاستبعاد :

(أ) كمصدر غواية لميول لا شعورية.

(ب) كمصدر عقوبة لميول لا شعورية.

وبالتالى فالصراع بين الأنا والعالم الخارجي يترجم فى الواقع عن الصراع بين الأنا والهى أى الحفزات الغريزية.

وعليه فالأنا هى التى تستطيع استبعاد الحفزات الغريزية أو استبعاد العالم الخارجى.

فى العصاب تتجه الأنا أساسا إلى استبعاد الحفزات وبصفة ثانوية بعض إدراكات العالم الخارجى، أما فى الذهان فتتجه الأنا أساسا إلى استبعاد العالم الخارجى. فالعصابى يخضع للواقع على حساب الغريزة أما الذهانى فالعكس ولكن هذا لا يصدق بصفة عامة.

الأنا العليا فى الصراعات :

انتهينا إلى أن الصراع دائما صراع بين الأنا والهى، وبدهى أن الأنا العليا إما أن تكون فى صف الأنا وإما ضدها.

الأنا العليا فى صف الأنا: إن الأنا فى غربلتها للحوافز إذ تسمح بالإفراغ أو تقرر الكبت إنما تتبع أوامر الأنا العليا.

الأنا العليا ضد الأنا: فى كثير من الحالات وخاصة القهرية والاكتئابية تدافع الأنا ضد مشاعر الإثم مستخدمة نفس الميكانيزمات التى تستخدمها ضد الغرائز.

باختصار تستخدم الأنا استثمارا مضادا مزدوجا يتجه بعضه ضد الغرائز وبعضه ضد مضادات الغرائز فى الأنا العليا، وفى هذه الحالة يمكن لمشاعر الإثم أن تخترق الدفاع بصورة مموهة.

وباختصار الصراع دائما بين الأنا والهى :

(أ) صراع الغرائز هو صراع بين الأنا والهى.

(ب) صراع الهى والعالم هو صراع بين الهى والأنا.

(جـ) صراع الأنا والعالم هو صراع بين الأنا والهى.

(د) الأنا العليا لا تغير الأمر فهى إما فى صف الأنا أو فى صف عدائى لها كالهى.

فى تعريف القلق(١) وأنواعه :

القلق إما انغمار ينتج من إثارة هى نسبيا غامرة، وإما إشارة إنذار بتحقق وشيك لخطر سابق هو هذا الانغمار، فالقلق وإن كان استعادة لخبرة قديمة خطرة (الميلاد) إلا أنه يظل فى خدمة المحافظة على الذات يعلن عن أخطاء جديدة. فقلق الإنذار يهيئ لاستجابة المواجهة، بينما قلق الانغمار يستنفد طاقة الاستجابة: الأول شحنة تجريبية للإنذار والتعبئة كالمصل، والثانى تفجر للقلق فى صورة ذعر.

ولكن القلق كرد فعل من الأنا ينذر إما بخطر خارجى (قلق سوى) وإما بخطر داخلى من جانب الأنا العليا (قلق خلقى فى صورة إثم أو اشمئزاز أو خزى). وإما بخطر داخلى (طفح المكبوتات) من جانب الهى (قلق عصابى)، وتلك هى أنواع القلق. ورد الفعل هذا من جانب الأنا فى حالة إشارة الإنذار بالخطر (صورة مستأنسة هينة من القلق الذعر) تستنهض الدفاعات لمواجهة هذا الخطر. فإذا فشلت الأنا فى المواجهة تفجر القلق (أى انغمار) أو تفجر القلق الخلقى (انغمار لانسحاق أو الاشمئزاز أو بالخزى) وعليه فالقلق إما صدمة أو إشارة إلى أن صدمة من هذا النوع توشك أن تقع مرة أخرى، وفى هذه الحالة الأخيرة إما أن تنجح الإشارة فى استنهاض دفاعات تتفادى الصدمة وإما أن تنغمر الأنا بالصدمة وتلك هى الطبقية الثلاثية للقلق.

(١) فيما يتصل بالقلق عند مدرسة السلوكية التقليدية وعند معدلى السلوك .. الخ انظر (فنيات العلاج النفسى) من كتاب المدخل إلى الصحة النفسية – الطبعة الثالثة – مخيمر – الأنجلو.

فى وظيفة القلق

١ – إشارة إنذار، صورة هينة مستأنسة لقلق الذعر تنذر بالخطر كيما تستعد الأنا للمواجهة فالقلق هو الباعث الأساسى للدفاع.

٢ – القلق هو المادة الخام التى تصنع منها الأعراض المرضية كوسائل دفاعية وإشباعات جزئية فى نفس الوقت (أمن وإشباع معا).

٣ – القلق وإن كان تعبيرا عن الصراع من حيث ما ينطوى عليه من خطر فهو فى نفس الوقت وسيلة جزئية وأوائلية للإفراغ (رجيم نجده أوائلى) وذلك خاصة فى حالة الانغمار.

الوظيفة الأساسية للقلق هى إذن الإنذار بالخطر :

(أ) تشعر الأنا أمام مطلب غريزى لن إشباعه ينطوى على خطر تذكره ومن هنا يتحتم بأى شكل كبح الشحنة الغريزية فإذا كانت الأنا قوية وسبق أن أدمجت النزعة الغريزية فى تنظيمها تنجح فى هذا الكبح أما إذا لم تكن الأنا أى أن النزعة تنتمى إلى الهى (فى حالة كبت) فإن الأنا تلجأ إلى استخدام شحنة تجريبية – معنى ذلك أن الأنا تستبق بإشباع للنزعة فى كمية ضئيلة وكأنها مصل فتستعيد الأنا الشعور بالألم المرتبط بالخطر عندئذ ينشط مبدأ اللذة الألم وتقوم الأنا بالدفاع ضد النزعة الجديدة الخطرة.

(ب) فالأنا إذن تستخدم شحنة تجريبية تطلق إشارة خطر لتحريك مبدأ اللذة الألم فتستجيب الأنا إما: أولا: كبت ثانوى.

وإما ثانيا: بالاستعانة بشحنة مضادة تتحد مع طاقة النزعة المكبوتة فتنشأ الأعراض المرضية.

وإما ثالثا: بالتعديل من نفسها فى صورة تكوينات مضادة.

وإما رابعا: فى صورة إعلاءات تزيح الشحنة التجريبية إلى هدف اجتماعى مقبول لتتيح بذلك إفراغا بديلا مكتملا ولكن غير مباشر.

وإما خامسا: وأخيرا تفشل فى كل هذه فيكون الانغمار.

الطبقية الثلاثية للقلق

١ – يخرج الطفل إلى العالم بإمكانات بيولوجية قليلة ومن ثم فهو عاجز عن إشباع حاجاته وهذا العجز يجعله ينغمر بالمثير (صدمة)، (قلق ذعر). وهذا الانغمار يطلق إفراغات نجدة آلية أوائلية.

الطبقة الأولى صدمة انغمار. قلق ذعر أي قلق آلي غير نوعي (الأصل المشترك لمختلف الوجدانات اللاحقة).

٢ – وكما يحدث في المصل الذي يعطي كمية هينة من الميكروبات تستنهض الدفاعات ومن ثم تحقق المناعة، فكذلك تتعلم الأنا بالتدريج استئناس هذا القلق الذعر فلا تسمح للقلق أن يغمر الشعور بل صورة هينة من القلق تكون بمثابة شحنة تجريبية، إشارة إنذار بالخطر تستنهض دفاعات الأنا للمواجهة.

فالطبقة الثانية استئناس القلق الآلي في خدمة الأغراض الدفاعية للأنا، فتوقع الشخص للخطر يضعه إذن في حالة هينة شبيهة بالصدمة أي قلق إشارة إنذار.

٣ – قد تفشل الأنا في استئناس القلق على النحو السابق فالتوقيع الذي كان يستهدف التحذير من حالة صدمية يطلق هو نفسه هذه الحالة وذلك بسبب زيادة التوتر (احتباس بسبب مكبوتات سابقة، أو ضعف الأنا أو تعطيل بدني للإفراغ) وبذلك تعاني الطبقة الثالثة نكوصا للطبقة الأولى (نوبات القلق في هستيريا القلق).

فالطبقة الثالثة هي كالأولى : صدمة – انغمار – ذعر .

وفي عام ١٩٣٢ (والمحاضرات الجديدة) بلغ فرويد إلى الصورة النهائية فأصبحت الأنا هي المقر الوحيد للقلق والمولد الوحيد للقلق ويترتب على التمييز بين المنظمات الثلاث للجهاز النفسي أن يكون القلق الموضوعي السوي والقلق العصابي والقلق الخلقي تناظر العلاقة مع الواقع والهي والأنا العليا.

تلخيص:

الصراع العصابي كما رأينا حفزة غريزية خطرة تولد القلق فيولد الدفاع معنى ذلك أن الصراع العصابي يكون دائما بين حفزات الهي ودفاعات الأنا وذلك حتى عندما يبدو في صورة أخرى.

فالحفزات الغريزية تولد القلق. كيف يحدث ذلك؟ أنا الطفل ضعيفة ومن ثم تنغمس بالغرائز. ومن هنا تبدو الغرائز خطرة ومن هنا يكون الدفاع ضد الغرائز فالأصل هو قلق الانغمار، الصدمة، الذعر (الطبقة الأولى) وتكبر الأنا فتشرع في استئناس هذا القلق الآلي (تستخدم كصورة هينة كمصل أي إشارة إنذار بالخطر (الطبقة الثانية) وتتم الدفاعات بإحدى هذه الطرق.

(أ) تنجح الأنا في المواجهة فيحدث الإعلاء.

(ب) يتم كبت الحفزة كبتا ثانويا.

(جـ) تعدل الأنا من نفسها بتكوين مضاد.

(د) تفشل الدفاعات ويحدث الانغمار (الطبقة الثالثة وهي كالأولى).

تلك هي الطبقية الثلاثية للقلق. فالأنا عند الراشد وظيفتها إذن تجنب قلق الذعر أي يصدر عنها دائما قلق إشارة إنذار ينجح أو تنغمر الأنا والقلق الأولي أي الانغمار نموذجه الأصلي صدمة الميلاد ومنه تتفرع كل الوجدانات، وبالنسبة لإشارة الإنذار هناك أنواع من القلق سوي – عصابي – وخلقي.

الآن يمكن تعريف القلق فهو إما انغمار أو إشارة لتجنب هذا الانغمار، إما صدمة وإما إشارة إنذار لتجنب حدوث الصدمة إما رد فعل من الأنا يستنفد الطاقة أو رد فعل يعبئ الطاقة للمواجهة.

وظيفة القلق أساساً هي الإنذار بالخطر، لاستنهاض الدفاع، ومادة خام تصنع منها الأعراض ولكن أيضا إفراغات نجدة أوائلية.

ولكن هل يتخذ القلق شكلا واحدا في كل المراحل؟ كلا بل يتباين فهو خطر من

الانغمار ثم من فقدان حب الوالدين ثم من الخصاء (عند الولد) أو فقدان الحب (عند البنت) ثم فقدان تقدير الأنا العليا (التنبه إلى أنه فى البداية تكون النرجسية والجنسية ممتزجتين معا بحيث يرفع الطعام من قيمة الذات ثم تنتقل الجنسية لترتبط بالموضوعات. أما النرجسية فيسقطها الطفل على الأبوين ثم يستدخلها فتصبح الأنا العليا هى المصدر المنظم لقيم الذات أى ترتبط النرجسية بالأنا العليا).

ولكن الأخطاء الداخلية تتكشف فى النهاية خارجية وصميم القلق هو خطر انغمار تنظيم الأنا أى اجتياحه.

ميكانيزمات الدفاع وتكون الأعراض

فى ميكانيزمات الدفاع كمبادئ لتفسير السلوك :

كانت النظرة إلى الشخصية ترجعها إما إلى الفطرة والوراثة (الجبلة) وما يتصل بذلك من سمات وأنماط وعوامل وملكات وخصائص بدنية أو غددية ... الخ. وإما إلى التعلم والاكتساب والخبرة وما يتصل بذلك من عادات واتجاهات وقيم وتطبيع اجتماعى ... الخ.

كانت الشخصية إما صرحا قائما بنفسه فى استقلال عن البيئة وإما مجرد مرآة تعكس تأثيرات البيئة. وأخيرا انتقل الأمر إلى نظريات التفاعل وخاصة فى صورة الدوافع بذلك انتقل التفسير من العلية الخطية (مركزية كانت أو محيطية) إلى العلية الشبكية.

فعند ماكدوجال يعيش الشخص الغرائز من خلال تجاربه فى صورة عواطف تجاه موضوعات خارجية أو أفكار. فهو لا يعيش العدوانية وإنما كراهية لهذا الشخص أو لهذا الشئ مما يفترض التفاعل بين الشخص والبيئة. ولقد قام بمحاولته لعمل قائمة بالدوافع الأساسية التى يمكن أن ترجع إليها كثرة المسالك.

وثمة فكرة مهمة عند ماسلو تستوحى نظرية الجشطلت وتعنى استحالة وصف الدافع فى عزلة عن الدوافع الأخرى بل ضمن الانتفاء الكلى لدوافع الفرد فهناك ترتيب درجى للدوافع بحيث لا يظهر إلا بعد إرضاء الدوافع السابقة عليه من حيث

الأهمية مما كان ينبغي أن يعني وجود انتشار فريد وانتظام بعينه للدوافع عند كل شخص.. فالدوافع وإن كانت عامة عند جميع الناس فإنها تتخذ اشكالا خاصة، باختلاف الثقافات، وفي الثقافة الواحدة باختلاف الأفراد.

ولم يحاول فرويد وضع قائمة مفصلة عن الدوافع الأساسية وإنما قال في البداية بتعارض ما بين دوافع جنسية للإبقاء على النوع ودوافع ذاتية للإبقاء على الفرد، ثم ضمها بعد ذلك تحت اسم دوافع الحياة أو الجنسية في مقابل دوافع الموت أو العدوانية(١) ، لم يكن فرويد يستهدف وصف الشخصية عن طريق الدوافع وإنما عن طريق صراعاتها بمعنى الدوافع المصطرعة والمحصلات أي ميكانيزمات الدفاع والمسالك والأعراض. فلم تكن الدوافع عنده كما كانت عند ماكدوجال تعمل متفاهمة جنبا إلى جنب أو الواحدة بعد الأخرى.

وصحيح أن الغرائز عند ماكدوجال لا تبدو عارية نقية وإنما في صورة عواطف وبالتالي مختلطة بالتعلم مما يسميه موراي الجدولة أو التتريع ولكن ماكدوجال لم ينتبه إلى أن الدوافع يمكن أن تتعدل وتستحيل إلى نقيضها (الجنسية الغيرية المحارمية الإيجابية تصبح مثلا من قبيل الدفاع جنسية مثلية سلبية) .

وفرويد يعتبر أن المهمة الأساسية لا تنحصر في رد الأفعال إلى دوافعها وإنما في دراسة ما يطرأ على الدوافع من صورة التبدل والتعديل.

ومن هنا غدت ميكانيزمات الدفاع بأكثر من الغرائز مبادئ للتفسير السيكولوجي. كان جانيه يقرر أن المرض النفسي ينتج من الذكرى المنسية لحادث صدمي بمعنى أن الذكريات الخاصة بالموقف الصدمي تصبح لا شعورية، وكان يعتقد أن الضعف النفسي هو الذي يجعل الذكريات تسقط في اللاشعور. أما فرويد فجاء بالتصور الدينامي إذ قرر أن الحفزات الغريزية المستهجنة والذكريات الأليمة تريد أن تبقى على مسرح الشعور بينما تريد لها الأنا، تسندها الدوافع الأخلاقية، أن تختفي

---

(١) يرى مخيمر كما سبق أن العدوانية هي طاقة الحياة التي تخدم غرائز الحياة والموت معا وفي نفس الوقت.

وتنكبت، وميكانيزمات الدفاع هى هذه القوى الكابتة التى تستخدمها الأنا لتسد على المكبوتات سعيها الدائب للعودة إلى مسرح الشعور.

وهذه الميكانيزمات دفاعية لأنها تتيح تجنب التعبير المباشر عن النزعات الكريهة وذلك بما تتمخض عنه من أسلوب تعبيرى يصالح ما بين الحفزات الغريزية والمتطلبات الأخلاقية الاجتماعية. وإذا كان فهمنا للشخصية الميانية يتحقق بفهمنا لصراعاتها النوعية فمعنى ذلك أننا نبلغ إلى فهم هذه الشخصية حين نتبين الحفزات الغريزية الخطرة التى تثير عندها القلق والدفاعات النوعية التى تواجه هذا القلق. إن فهمنا لشخص معناه معرفتنا بأنواع المواقف التى يغلب أن تثير لديه القلق والأساليب التى تلجأ إليها ليواجه هذه المواقف.

فحين نجد أساليب قليلة متميزة منذ الطفولة ومتكررة فإننا نحقق بذلك مبدأ الاتصال الذى يسند مفهوم الشخصية ووحدتها، فميكانيزمات الدفاع من حيث هى أساليب متميزة يتخذها الفرد فى مواجهة بعض أنواع التهديد يمكن اتخاذها بمثابة مبادئ تفسيرية تنتظم حولها مجالات كثيرة من الشخصية.

فليس العلم فى صميمه إلا محاولة لرد كثرة الظواهر إلى وحدة المبدأ أو عدد قليل من المبادئ التفسيرية فميكانيزمات الدفاع تمثل أقيم ما لدينا الآن لفهم الشخصية ويلحق بها تصور زمله الأعراض المرضية من حيث هى صورة النكوص إلى مرحلة سابقة من النمو فهى تكرار لما كان فى حينه مسايرا لمرحلة النمو ومن ثم طبيعيا ولكنه يعد الآن مرضيا بالنسبة للراشد. واختلالات السلوك لها وظيفتها الخاصة من زاوية المريض. فما يبدو سخيفا غير منطقى فى الظاهر يصبح معقولا عندما ننظر إليه كمحصلة للصراعات الداخلية أو قل كمحاولة دفاعية من جانب الأنا ضد القلق الذى هو إشارة تنذر بخطر الحفزات الغريزية (حالة الشخص الذى يرفض الأكل من طبق أكل منه غيره فهذا السلوك يصبح مفهوما عندما نتبين أنه تعبير (مع التعميم) عن دفاعه ضد القلق الناشئ من احتمال تحقيق الرغبة المحارمية التى تتخذ تعبيرا لها فى المستوى الفمى كرغبة فى تناول وجبات شهية من نفس المكان الذى يتناول منه الأب) . **فميكانيزمات الدفاع هى الوسائل التى يتخذها الشخص لا شعوريا لتجنب**

للتعبير المباشر عن نزعاته الخطرة المهددة (إسقاط الرغبة الجنسية المكبوتة عند العانس على الأخريات) ففى هذا التجنب ما يحقق الدفاع ضد التهديدات الداخلية والخارجية معا أو فيه ما يصالح بين ما هو غريزى وما هو أخلاقى.

(النزعة الاستعراضية والدافع الأخلاقى يتمخضان عند فتاة عن ظهور أرتيكاريا فى بداية الفخذ الأيسر كعرض مما يرغم الحالة على أن تكشف عن بعض أجزائها الداخلية أثناء هرشها فى وجود الآخرين دون أن تكون مسئولة من الناحية الأخلاقية) وهكذا فى قطاعات من السلوك تبدو سخيفة لا معنى لها وإن كان لها حين نفهمها دلالتها ووظيفتها الخاصة (حالة الزوجة الراغبة فى ترك منزل الزوجية مع تقديرها لمسئوليتها إزاء أطفالها فكانت لا تنقطع عن التثبت من عدم ضياع مفتاح السكن أثناء وجودها خارجه – أيضا حالة الإغماء فى زحام المترو كوسيلة لتحقيق الرغبة الجنسية باستسلام مع تجنب المسئولية الأخلاقية فى الوقت نفسه).

فى موقع ميكانيزمات الدفاع من التحليل النفسى :

لم تنتج نظرية فرويد فى النمو النفس جنس عن الملاحظة المباشرة للأطفال وإنما عن إعادة بناء ذكريات الراشدين بناء جديدا على طريقة النهج الجاليلى فى الاستقراء المركزى للوقائع وإعادة بناء المعطيات فى أنماط كيفية أو علاقات مثالية تعد من الحالات العيانية تجسيدات متباينة لها.

لم ينظر فرويد إلى الطفولة وأحداثها على حدة وفى ذاتها وإنما من حيث ما لها من دلالة تحكم حياة الراشدين. ومعنى هذا أن الطفولة هى دينامية سبيل التطور وكيان فى صيرورة متصلة (مشروع يمضى إلى التحدد) فلابد من أن نفهم الطفولة ليس فحسب بالقياس إلى إطارها البيئى وإنما أيضا بالقياس إلى مجمل وحدتها الكلية التاريخية. وقد يتضح هذا من الذكريات المكبوتة فى الطفولة تحدد إلى حد بعيد أحلام الكبار وأعراضهم المرضية وبالتالى تكشف عن أهم الحفزات وأخطرها فى الطفولة. ويتضح هذا أيضا من الدور المهم الذى تلعبه التثبيتات، فالعصاب هو نكوص إلى مرحلة التثبيت وذلك أمام موقف من الإحباط يشبه فى بنيته الموقف السابق موضوع

التثبيت أو ينطوى على تلميح إليه. وهذا الشبه أو التلميح هو الذى يعطى الموقف الحالى قوته المرضية. والتثبيت ينشأ عن حاجة غير مشبعة أو جد مشبعة أو حاجة يحقق إشباعها الأمن ويترتب على التثبيت والنكوص تكرار الموقف الأصلى بإشباعاته وعقوباته.

ومن هنا كان التكرار مفهوما محوريا فى الأمراض النفسية، فإذا كان الذكاء استجابة جديدة يقتضيها الموقف الجديد وكانت العادة استجابة قديمة يقتضيها الموقف القديم المألوف فإنه يمكن القول بأن المرض النفسى استجابة قديمة لموقف جديد يرتبط عند الفرد بموقفه الطفلى.

وهكذا فالكبت يؤدى إلى التثبيت – والتثبيت يقف بالتطور عند المرحلة التى حدث فيها التثبيت وذلك بالنسبة إلى أغلبية الطاقة مما يسهل النكوص، تماما كالجيش إذ يغريه ضعفه بالتراجع فإنه يتراجع إلى النقطة التى كان قد ترك فيها أثناء تقدمه أكبر عدد من قواته.

(فموت الرئيس كيندى بشكل مفاجئ (بصورة الأبوية) يمكن أن يبتعث التخيلات الأوديبية مما يعنى أن يتم النكوص إلى المرحلة الأوديبية التى عانت التثبيت).

وهذا النكوص يضيف طاقة جديدة إلى طاقة المكبوتات فتصبح قوية وتشرع فى العودة متجهة إلى الشعور الذى انطردت منه الطفولة، ولكن تعترضها دفاعات الأنا وتكون المحصلة هى الأعراض المرضية.

تلك هى عودة المكبوتات التى يتمخض عنها عصاب أو ذهان حسب الدرجة التى يتوغل بها النكوص. فالذهان (الفصام مثلا) يتضمن النكوص إلى مرحلة اللاتمايز حيث الأنا لم تكن قد تمايزت بعد عن الهى. أما العصاب فنكوص إلى مرحلة من المراحل الطفلية. هذا كله إذا تصدت الأنا بالدفاع للمكبوتات العائدة فإذا لم تفعل كانت الانحرافات الجنسية، وهناك ميكانيزمات أخرى ليست دفاعية بحسب ما يعتقد فرويد.

فالميكانيزمات الدفاعية التى تعبر عن دافع خفى يكمن وراء فعل سخيف فى

ظاهره ولكنه ينطوى على محاولة لتخفيف القلق أو الدفاع ضد خطر ما، أما الميكانيزمات غير الدفاعية(١) فهى تعبير عن المنطق الخاص بالهى مما يسميه فرويد بالعمليات الأولية أو النمط الأولى (عمل الحلم - الرمزية - الإزاحة - التكثيف - التمثيل بالضد .. الخ) ومع ذلك فالحدود ليست فاصلة فهناك ميكانيزمات تكون دفاعية أحيانا ولا دفاعية أحيانا أخرى كما هى الحال فى الإسقاط وكل هذه الميكانيزمات هى التى تتيح لنا أن نفهم الأحلام والأعراض المرضية خاصة (ضمن واقعية عيانية فى سياقها بلغة التصورات الشرطية فى النهج الجاليلى).

فالمحلل لا يفكر فى الميكانيزم ليحدد أسبابه بطريقة تجريبية وإنما ينظر إليه ضمن سياقه أى ضمن مواقف معينة فى النمو الباكر عند فرد بعينه ثم يستخدم الميكانيزم فيما بعد فى مواقف تعد تكرارا للأصل من ناحية أو تباينا من تشكيلة تبايناته العديدة من ناحية أخرى، وهكذا فإن الميكانيزمات الدفاعية ليست غير عدد من الملاحظات والتصميمات التى تقوم على الاستقراء المركزى والتى تفسر عمليات متكررة أثناء التحليل، والتى إذ تتيح تفسيرا لبعض الأعراض تمكن المحلل من تفسير أعراض أخرى. فالمشتغل بالتحليل لا ينظر إليها على أنها قوى مجردة وإنما ضمن سياقاتها من الأحداث والأشخاص، فلكل ميكانيزم أنموذجه الأصلى الخاص فى تجارب معينة إبان الطفولة وحين يظهر بإزاء المعالج فى «الطرح» يعد تكرارا للتجارب الباكرة.

وتفسير هذه الأسباب المتكررة يعد جانبا أساسيا من التحليل. ومن هنا فإن ميكانيزمات الدفاع فى صورتها الخالصة ليست مادة للتفكير اليومى للمحلل، وإنما هى أنماط لعلاقات مثالية تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيلة من التباينات تتباين انتظاماتها بتباين الأفراد. فالمحلل يشاهد ويدرك دلالة ما يشاهده رغم سخافته فى الظاهر، وهو يدرك استنادا إلى إعادة بناء الوقائع والبلوغ إلى نمط العلاقة المثالية وبذلك يتم التعرف على العملية الدفاعية وتفسيرها وهو بذلك يتعرف على الفنيات

---

(١) يرفض مخيمر كما سبق أن رأينا هذا التمييز ما بين ميكانيزمات عمل الحلم والميكانيزمات الأخرى، فكلها بالنسبة إليه دفاعية تستهدف التمويه والإشباع الجزئى فى مراعاة للأمن الذى تقتضيه الأنا.

الدفاعية الخاصة للمريض فى مواجهة المواقف التى تثير فيه القلق وميكانيزمات الدفاع المشهورة هى أساليب استخدمها الناس وليس لها من حيث المبدأ مدى محدد فالفاكهة مثلا تضطلع بهذه الوظيفة وإن أغفلتها الدراسة أحيانا.

كان التحليل فى البداية يهتم بالغرائز المكبوتة والتعرف عليها وتقبل المريض لها. أما اليوم فالاهتمام الأول هو بالمقاومة أى بالميكانيزمات الدفاعية أى بهذه الأساليب التى انكبتت بها الغرائز والتى يستخدمها المريض الآن فى علاقته الطرحية مع المحلل، ومن هنا يعثر المحلل على أمثلة من هذه الأساليب فى مجرى علاقة المريض به أى خلال ظاهرة الطرح وفى التحليل الفرويدى الأصيل نقتفى أثر عرض ما فى الطفولة حتى نتبين مرحلة النمو التى كانت فيها الغريزة مبعثا للقلق والتهديد والخطر ثم نتبين ما كان من أساليب الدفاع ضد الحفزة الغريزية، ويعتبر هذا الدفاع أنموذجا متكررا فى المشكلات الحالية فى حياة المريض ويكتمل التحليل حين يظهر لكل حدث دلالته سواء من ناحية الحوافز الغريزية فى الطفولة أو من ناحية استجابات المريض الدفاعية ضدها وإذ تتعدل اتجاهات المريض إزاء المشكلة وهو يحياها (طرحا) على المعالج. يتحقق بذلك الشفاء (ما من سبيل للقضاء على عفريت الحفزات والاتجاهات واللاشعورية الطفلية المرضية) إلا باستحضاره هنا فى النور فيما يتحقق بالطرح عندما يعيش المريض عصابة فى صورة عصاب الطرح أى فى علاقته بالمحلل، ثم يكون بعد ذلك على المريض أن يقوم بالمواجهة فى النور فيرفض حفزاته واتجاهاته الطفلية المرضية ويقوم بتعديلها ومن ثم يتقوض ما كان أساسا لمرضه فيكون الشفاء.

معنى ذلك أنه إذ جمدت الشخصية إبان الطفولة فى اتجاهات بعينها تكررها فى المواقف اللاحقة بحيث يكون حاضرها تكرارا لماضيها أو قل إنها تعجز باتجاهاتها الجامدة عن أن تجد الحل الخاص بها الذى يتلاءم مع مقتضيات الحاضر.

فى ميكانيزمات الدفاع الناجحة (الإعلاء) :

فالميكانيزمات إما ناجحة تنتهى الحفزة بإتاحة إفراغها «إعلاء» (تحول من السلبية إلى الإيجابية وتبديل الهدف أو الموضوع – تحقق الألفة مع مصدر الخطر ..

الخ)، وإما فاشلة أى مولدة للمرض تستلزم مواصلة الدفاع أى استمرار إنفاق الطاقة لتعويق الحفزة التى تنجح مع ذلك أحيانا فى الطفح خارج الكبت. وينبغى التنبه إلى أن الحدود الفاصلة بين الأنواع المختلفة للدفاعات الفاشلة ليست قاطعة فالإنكار والتكوين المضاد والمحو والعزل بل الإسقاط والاستدخال يمكن اعتبارها أشكالا للكبت.

وهنا يتحتم التمييز بين الكبت بالمعنى الدقيق الذى يستند الى استثمار مضاد بالمعنى العام من حيث هو استبعاد للحفزة الأصلية من الشعور بمعنى استبعاد هدفها الأصلى.

بهذا المعنى الأخير يعتبر الإعلاء كبتا ناجحا. أما فى حالة الكبت بالمعنى الدقيق فالحفزة الأصلية ليس لها إمكانية الإفراغ الكامل بل تزيح بعض طاقاتها إن أمكن على حفزة أخرى فتجعلها بذلك فرعا لها أى مشتقا. هذا المشتق الذى يتميز بفضل الطاقة المزاحة بالمغالاة «أفكار حضارية» قد يتعرض للكبت الثانوى فيخلف فجوة فى الذاكرة أما إذا قامت دفاعات الأنا لا بالكبت الثانوى بل بضرب المشتق بدفاعات أخرى نتيجة الأعراض المرضية ومن هنا فإن الكبت بالمعنى الدقيق يترجم عن نفسه فى صورة أفكار ومشاعر حضارية أو فى صورة فجوات وإذا حدثت تكوينات ضدية لا يكون هناك داع للمكبوتات الثانوية وعليه فإن الإعلاء:

ليس بميكانيزم نوعى بل أى إجراء دفاعى يتيح إفراغا كاملا للحفزة الأصلية المكبوتة بالمعنى العام للكبت. وعادة ما يتحقق ذلك باختفاء الهدف الأصلى أو الموضوع الأصلى وإحلال هدف جديد أو موضوع جديد. بهذا المعنى تتلاشى الحفزة الأصلية بالإعلاء إذ تنسحب طاقتها لصالح حفزة بديلة، أو تتجه إلى هدف آخر أو موضوع آخر. أما فى الدفاعات الأخرى فليبيدو الحفزة الأصلية محبوس باستثمار مضاد قوى.

والحفزات التى يتم إعلاؤها هى قبل الإنسانية(١) والشرط اللازم لإمكانية إعلائها أن تكون قد كبتت لا بالمعنى الدقيق للكبت بل بالمعنى العام. ثم يتحقق انتظامها فى أغلبها تحت الهيمنة الإنسالية ثم يتم إعلاء الباقى.

(١) المقصود الفمية والإستية والسادية والمازوشية والنظارية والاستعراضية.

معنى ذلك أن طاقة الحفزة الأصلية ينتظم أغلبها تحت الهيمنة الإنسالية أى يخضع لتعديل الأنا وبذلك تصبح الحفزات التى كانت مكبوتة بالمعنى العام والتى هى دائما قبل إنسالية تصبح ميكانيزمات اللذة التمهيدية للجماع. أما الجانب المتبقى من هذه الطاقة فتضربه الأنا ضربا مائلا فيتحقق الإعلاء - ولكن فينخل لا يقصر الإعلاء على ذلك بل يسحبه على كل دفاع ينجح فى تحقيق الإفراغ الكامل للطاقة. وإذا كان الإعلاء يتميز بتلاشى الهدف الأصلى للحفزة أى تجردها من الهدف الغريزى وذلك بفضل تعديل فى الأنا وامتصاص طاقة الحفزة الأصلية لحساب الاتجاه الجديد فذلك كله يتحقق أحيانا لبعض التوحدات كما هى الحال فى تكوين الأنا العليا بل إن الإعلاءات فى الطفولة تحدث عادة بفضل النماذج أو البواعث الاجتماعية المتاحة للتوحد. فثمة ارتباط وثيق بين الإعلاء والتوحد مما يظهر أيضا فى ألعاب الأطفال، وبالنسبة إلى هذه الحفزة الأصلية يمكن أن يكون اتجاه الإعلاء فى نفس الاتجاه أو مع تعديل طفيف (كما فى الجراحة والغناء بالنسبة للسادية والفمية) ويمكن أن يكون فى الاتجاه المضاد للحفزة الأصلية (فالاشمئزاز بالنسبة للتلذذ من رائحة البراز - والرحمة بالنسبة للعدوانية).

فى ميكانيزمات الدفاع الفاشلة : المولدة للمرض :

١ - الصراعات بين الغريزة والقلق أو الإثم لا تولد بالضرورة مرضا فهناك الاقتصاديات النفسية ونوعية الدفاع المستخدم، هذا إلى أن المطالب الغريزية العادية حتى يكون لها مكانها داخل انتظام الأنا وتحظى بإشباع دورى تظل الصراعات قليلة الفاعلية. فذلك ضمان الصحة وشرط الإعلاء.

٢ - وبدهى أن الحفزات التى ضربتها دفاعات الاستثمار المضاد تظل مستبعدة من أن تنتظم ضمن الأنا، تظل طاقتها حبيسة اللهم إلا أن تنزاح على حفزة أخرى فتجعلها مشتقا للإفراغ غير المباشر (بعض الأعراض المرضية مشتقات من هذا القبيل).

٣ - الصراعات المولدة للمرض أصلها جميعا فى الطفولة حيث قامت الأنا بطرد الحفزات قبل الإنسالية ومن هنا فكل مرض يستند إلى عصاب طفلى هو النواة. وفى العلاج عند القضاء على الدفاعات العازلة لهذه الحفزات تعود وتنتظم ضمن الأنا فى أغلبها بينما الباقى يتداوله الإعلاء.

٤ - أنموذج الدفاع يتضح فى العصاب الصدمى فى الإغماء من حيث هو إغلاق لوظائف الأنا فالدفاعات هى إغماءات جزئية أى تنصب على وظائف معينة.

الإنكار

إن رفض الاعتراف بالجوانب الكدرة من الواقع سمى ما قبل مراحل الدفاع، وتلك ظاهرو مألوفة عند الأطفال كتعبير عن مبدأ اللذة، وكمقابل للإشباع الهلوسى للرغبة.

ولكن النمو التدريجى لاختبار الواقع والإدراك والذاكرة يجعل من المستحيل التزييف الكامل للواقع. وبالنظر إلى أن الجنسية تنضج فى وقت متأخر فإنها تفلت من مبدأ الواقع أثناء الطفولة. وتظل أحلام اليقظة عند الكبار بمنأى عن مبدأ الواقع فهى للراشد السوى المجال الوحيد للإنكار.

(أ) فى الطفولة المتأخرة يتم الإنكار فى اللعب والخيال، بينما الجانب المنطقى من الأنا يتبين الطابع اللعبى لذلك، وعند الراشد السوى يقتصر الإنكار على أحلام اليقظة.

(ب) عند العصابى تنشطر الأنا إلى جزء سطحى يتبين الحقيقة وجزء أعمق ينكرها إنكار المهبل.

نلتقى كثيرا فى حالات العجز الجنسى عند الرجال بإنكار المهبل حيث يدرك الواحد منهم بالطبع الفارق الجنسى ولكن تظهر المرأة دائما فى أحلامه على أنها كائن بقضيب مما يعنى أن المهبل لا وجود له بالنسبة إلى الأعماق ويرجع هذا الدفاع ضد مخاوف الخصاء فى المرحلة الأوديبية عن طريق إنكار المهبل والاعتقاد اللاشعورى بأن كل الكائنات لها قضيب، وبالتالى ليس له أن يخشى من فقدان قضيبه طالما لا توجد على الأرض كائنات بغير قضيب.

(جـ) فى حالة المرض العقلى التى هى نكوص للطفولة الأولى وخاصة فى الفصام يبرز الإنكار بأوضح ما يمكن.

ظهر فى الصحف المصرية منذ سنوات حيث كان أخوان يعيشان بمفردهما ومات الأخ الأكبر وأدت الصدمة بالأخ الأصغر إلى الفصام فاعتقد أن أخاه لم يمت بل ينام وبالتالى تركه فى فراشه حتى تنبه الجيران إلى الرائحة وأبلغوا الشرطة – وفى كل حالات الفصام (الشيزوفرينيا) ينكر المريض الواقع الكريه بإنكاره للعالم فلو دخل شخص فجأة إلى بيته فوجد زوجته الحبيبة بين أحضان صديقه فمن الممكن للصدمة عندما تكون شخصيته تنطوى على استعداد عصابى أن تتمخض فى الحال عن الفصام. بذلك ينتهى العالم الواقعى بالنسبة إليه ولا تصبح زوجته هى زوجته ولا صديقه هو صديقه ويكون بوسعه أن يداعبهما بالنكات.

وفى بعض حالات الكذب المرضى تستهدف الإنكار بإقناع المستمع بصحة شئ غير صحيح أو عدم صحة شئ صحيح ومن ثم فهو شاهد على إمكانية خطأ الذاكرة ومن ثم يكون الإنكار.. هذه هى حالات الميتومانيا أى الولع المرضى بالكذب.

الإسقاط

إن أول حكم للأنا ينحصر فى البلع أو البصق، فالإسقاط صورة للرفض فى مرحلة أنا اللذة الخالصة حيث كل شئ أليم لا ينتمى إلى الأنا وشرط ذلك أن يكون الخط الفاصل بين الأنا واللا أنا غير قاطع التحديد مما يتوفر فى الطفولة الباكرة وفى حالة الأذهنة. ومن هنا فالانفعالات والحفزات الكريهة يتم بصقها فالإسقاط هو استجابة أوائلية تحدث فى البداية بصورة آلية ثم تستأنسها الأنا فيما بعد وتستخدمها لأغراضها الدفاعية شريطة أن يتوفر نكوص نرجسى ينال من وظيفة اختبار الواقع ومن الحدود الفاصلة بين الأنا واللا أنا ويصبح الإسقاط فى الفلسفات الكونية للأوائلية الأرواحية وفى النزعة الأرواحية فى الطفولة الباكرة حيث الاعتقاد بأن الأشياء لها هى الأخرى أرواح كما يظهر عند العصابيين فى الفوبيات والتأويلات الزائفة للواقع حسب حاجاتهم ويبرز عند الذهانيين وخاصة عند مرضى البارانويا، حيث يصبح الشخص الذى كان موضع عشق مثلى من المريض ثم أصبح موضع كراهية من المريض هو العدو الذى يكره المريض ويضطهده (اليهودى فى داخلنا ولكن من الأيسر محاربته فى آخرين).

فى الفوبيات أى المخـاوف المرضـية كـخوف هانز من أن يعضه حصان بدلا من أن يشعر بالخوف من أبيه . يظهر الإسقاط بشكل واضح من الأب إلى الخيل وعادة ما يظهر الخوف من القضيب، وذلك نتيجة للإسقاط فى صورة مخاوف مرضية من الثعابين أو الفئران أو السحالى أو الكلاب أو الأبراص أو الصراصير، بينما يظهر الخوف من المهبل فى صورة مخاوف مرضية من القطط أو الفراخ.

وبالنسبة إلى البرانويا يكون الإسقاط فى القضية الثالثة التى ذكرها فرويد:

١ – رجل يعشق جنسيا رجلاً آخر ولكن هذا مستهجن وبالتالى.

٢ – الرجل يكرهه الرجل الآخر الذى كان موضع عشقه.

ولكن هذا مستهجن أيضا ومن هنا تنكبت العدوانية ويكون إسقاطها على الرجل الآخر وبالتالى.

٣ – الرجل الآخر يكرهنى ويضطهدنى وبالتالى.

٤ – إنه يفعل ذلك لأننى عظيم (جنون العظمة) ولكن من حقى أن أضطهده كما يضطهدنى (جنون الاضطهاد).

ولكن الإسقاط يوجد أيضا عند الأسوياء مما يظهر من عبارة الإنجيل بأن الإنسان يرى القذى فى عين أخيه ولا يرى الوتد الذى فى عينه، فغالبية الناس لا يسرها أن ترى عيوبها فى أنفسها وبالتالى تراها فى العادة لصيقة بالآخرين.

الاستدخال

فى مرحلة اللذة الخالصة كل شئ لاذ يتم بلعه أى قبوله أى استدخاله وفى نفس الوقت فإن الاستدخال هو الأنموذج الأولى لاستعادة القدرة المطلقة التى سبق إسقاطها على الراشدين.

والاستدخال كأنموذج أولى للإشباع الغريزى أى كتعبير عن الحب يمكن بعد ذلك أن يصبح فى نفس الوقت وبفضل تناقضه الوجدانى تعبيرا عن الكراهية بتدمير

الموضوع المحبوب الذى يتم استدخاله وعندئذ يصبح الاستدخال أداة للعدوانية.

وحيث إن الاستدخال هو الهدف الأوائلي الأول تجاه الموضوع مما ينتج عنه التوحد وهو أكثر العلاقات أوائلية مع الموضوع فإن أى نمط لاحق فى العلاقة مع الموضوع أو الهدف يمكن أن ينكص أمام الصعوبات إلى الاستدخال والتوحد (الصبى مثلا عندما تعترض حبه لأمه صعوبات يتوحد معها فيصبح أنثويا). وتوجد ثلاثة أشكال أساسية للتوحد. فهناك التوحد مع المحبوب كتوحد الابن مع الأم التى لا تريده، وهناك التوحد مع المحسود كتوحد الابنة مع أمها فى فيلم بئر الحرمان،وأخيرا هناك التوحد مع المعتدى كتوحد اليهود أثناء الحرب الثانية مع النازيين، وطالبة جامعية كانت تشكو من أنها عندما تغضب فإنها تضرب الخصم سيان كان من جنسها أو من الجنس الآخر بالروسية والركبة، وكانت تخشى بعد تخرجها كمدرسة أن تستمر فى هذا السلوك الخطر والمشين. وقد تبين أنها الابنة الأولى بين خمس بنات وأن أباها لا يزال يكرهها لأنه يعتقد أنها (وشها فقر) لم يكن يجد ما يأكله واستمرت الحال كذلك حتى ولدت البنت الثانية فعمل كمخبر بالشرطة وراحت أحواله تزدهر مع الوقت. وقد اتضح كثيرا أنها رأته يمارس عمله عند القبض على أحد الأفراد وأن من عادته أن يضربه بالروسية والركبة بحيث يجعله يدوخ وتسهل قيادته إلى قسم الشرطة. هذا مثال للتوحد مع المحبوب. وفى حالة أخرى كان الشاب ملاكما ومع ذلك كان يرتعد من مشهد الدم ويرتبك لو سأله أحد فى الطريق عن مكان أو شارع، كان الابن الأول سبقته أخت ولم تكن أمه ترغب فيه على الإطلاق ومن هنا كان توحده معها فى خوفها من الدم وفى نزعاتها الأنثوية التى راح يلتمس لها التعويض فى تقوية عضلاته ليوهم نفسه والآخرين برجولته المسرفة.

وفى فيلم (بئر الحرمان) يظهر التوحد مع المحسود – فالابنة الصغيرة بحكم عدوانيتها تجاه أمها استغلت براءة الأطفال المزعومة لتخبر أباها بسلوك أمها المشين فى غيابه مما انتهى إلى طلاقها. كانت تحسد أمها شهوانيا لعلاقتها مع أبيها ولكن أحاسيس الذنب الناتجة عن رغبتها فى أن تكون مكانها فتأدى بها إلى أن تتوحد مع أمها لكن لا من الناحية الشهوية بل من الناحية العقوبية. ومن هنا نراها فى نهاية

القصة تصاب بالهستيريا فى صورة ازدواج الشخصية. كانت تقضى نهارها على أحسن ما يكون من الفضيلة ولكنها تخرج من المساء لتكرر السيرة المشينة لأمها.

وفى حالة التوحد(١) مع المعتدى نذكر المثل المشهور فى صعيد مصر (إن جالك الغصب اعمله خاطر) فالنوبى رئيس الخدم أمام الباشا وبطشه وحاجته إليه فى نفس الوقت ليس أمامه الآن أن يتوحد معه وأن يصبح مع الخدم الآخرين تحت رئاسته بمثابة باشا آخر مستبد وأمام طغيان النازية لم يكن أمام اليهود الذين لا يستطيعون إفلاتا إلا أن يتوحدوا مع النازيين ومن ثم أصبحوا على ما هم عليه من عدوانية لا إنسانية وعادة ما نلتقى بميكانيزم الاستدخال فى حالات الهستيريا بينما نلتقى بالإسقاط فى البارانويا والإفلات ويظل الإنكار فى صورته المكتملة أهم ما يخصص الفصام.

الكبت

الكبت هو ميل لاشعورى إلى النسيان أو عدم الوعى بالحفزات والمشاعر المستهجنة الأمر الذى لا يتحقق مع ذلك إلا فى الكبت الناجح أى الإعلاء لا الكبت بمعناه الدقيق حيث يظل المكبوت فعالا.

وينبغى أن ننتبه إلى أن الفكرة هى التى تكون مكبوتة، أما الوجدان فإن بعضه ينزاح على حفزة أخرى بجعلها مشتقا ومعنى هذا أن البعض الآخر من الوجدان يظل مع الفكرة أى حفزة وإلا لكان الأمر إعلاء.

والكبت بالمعنى الدقيق هو الميكانيزم الرئيس فى الهستيريا (معاملة الجنسية وكأنها غير موجودة) بينما هناك ميكانيزمات أخرى للعدوانية وحيث يكون العزل لا تكون هناك حاجة للكبت طالما أن الفكرة معزولة عن التنفيذ.

وعليه فمصير المكبوت بمعنى الكلمة هو إزاحة بعض الطاقة على حفزة فتصبح

---

(١) يقال أيضا التطابق. والتعيين الذاتى، والتقمص مما ينتج عن الاستدخال.

مشتقا مما يبدو فى المغالاة والقوة المسرفة لهذه الحفزة التى أصبحت مشتقا وأحيانا ما يتم كبت المشتق (كبت ثانوى) ومن ثم يعبر الكبت عن نفسه فى صورة:

(أ) ذكريات حاجية أو أفكار حصارية.

(ب) فجوات فى الذاكرة.

وما دام المكبوت يظل فعالا تكون ضرورة تواصل الكبت أى إنفاق الطاقة ونضوبها، ومن هنا يكون الشعور بالتعب والدونية وضمانا لعدم انبعاث المكبوت يظهر التجنب (فوبيات) أو اتجاهات مضادة (تكوينات مضادة) وما إلى ذلك.

التكوين المضاد

اتجاهات تتميز بالمغالاة والجمود والعمومية .. فالتكوينات المضادة كما رأينا نتيجة تلزم عن كبت مستقر ولا ضمان لاستمراره فى تجنب للحاجة إلى كبوتات ثانوية فتصبح الشخصية مستعدة على الدوام وكأن الخطر ماثل دوما. ومعظم السمات المرضية للشخصية هي من هذا النوع خاصة فى العصاب القهرى حيث يعمل أيضا ميكانيزم المحو وميكانيزم العزل، وسواء استخدمت التكوينات المضادة حفزات غريزية مضادة للحفزة الأصلية أو قامت بتطوير اتجاهات مضادة للاتجاهات الأصلية المستهجنة فإنها تظل دائما نوعا من الضمان للإبقاء على الكبت وجبهة أمامية متقدمة لاستمرار هذا الكبت.

فالابن عندما يكبت أحاسيسه العشقية المستهجنة تجاه أمه كثيرا ما يستعين بتكوينات مضادة من كراهيته لأمه بحيث يحرص على أن يكون دائما فى سوء تفاهم معها يحميه من كل غواية محتملة.

والفرد الذى يكبت عدوانية شديدة كثيرا ما يضع أمامها واجهة من التكوينات المضادة قوامها الدماثة المسرفة والأدب الجم مع الجميع وفى كل الظروف. وأحيانا ما تكون الرقة المسرفة عند النساء تكوينا مضادا يخفى وراء عدوانية قوية، وأحيانا ما تكون النزعة النباتية عند بعض الناس تكوينا مضادا أيضا لعدوانية عارمة.

المحـــو

رأينا أن التكوين المضاد قوامه اتجاه مضاد لاتجاه الحفزة الأصلية، أما المحو فقوامه عمل شئ إيجابي مضاد بشكل حقيقي أو سحري لما تم فعله في الواقع أو في الخيال (فعلان قهريان) ثانيهما عكسي مباشر للأول.

وأحيانا لا يتم المحو بإتيان فعل معاكس بل بإتيان قهري للفعل نفسه ولكن بدلالة لاشعورية مخالفة فالهدف هو إتيان الفعل نفس الفعل وقد تحرر من دلالته اللاشعورية الخفية، فإذا ما اندس جزء من الحفزة الأصلية في التكرار الأول لزم أن يطرد التكرار ومن هنا ظواهر التكرار والعد والشك في الأعصبة القهرية.

مثال: مهندس في الخامسة والعشرين من عمره كان في طفولته يتصل جنسيا بشقيقته وبلغ الأمر إلى الاتصال الكامل بها. كان يتحدث عن ذلك في جلسات التحليل النفسي بكل هدوء ودون إحساس بالذنب وكأنه يتحدث عن مسألة عادية مشروعة. كان من الواضح أنه قد عزل فكرة الاتصال الجنسي بشقيقته عن الوجدان العادى المصاحب ونعني الشعور بالذنب – وقد اتضح بعد ذلك أنه قد ربط هذا الإحساس بالذنب الذى عزله بشئ آخر هو الزنا. كانت فكرة الزنا لديه تجعله يثور بكل عنف استنادا إلى القيم الدينية. كان قد التقى بعد تخرجه وفي الدراسات العليا بزميلة بيضاء ممتلئة تزيد على المائة كيلو في وزنها بحيث كانت عيناها لا تكاد تظهر من اللحم المتراكم في وجهها. كان كل همه أن يجعل زملاءه يضحكون منها فلم يكن يستطيع أن يمنع نفسه عن السخرية منها. ولم يكن هذا بالطبع غير دفاع ضد ما يستشعره في أعماقه من ميل جارف إليها. قال في وصفها ماشفتش واحدة في رخامتها غير أمي وبعد أشهر كان قد تزوج منها وكانت المفاجأة، فبعد كل مرة يتصل بها جنسيا يشعر بقلق عارم يحيل حياته إلى الجحيم ولا يستطيع أن يهدأ قبل أن يتخيل زميلة من زميلاته في العمل أو جارة من جاراته ويستمنى عليها. وبذلك كان يهدأ تماما.

لم يكن بوسعه أن يضاجع أخرى بعدما ارتبطت كل مشاعر الذنب لديه بالزنا. (ذلك بعد عزلها عن فكرة الاتصال الجنسي بشقيقته) كانت الدلالة اللاشعورية

لاتصاله بزوجته تعنى اتصاله بأمه، ومن هنا كان القلق الذى يجتاحه، ومن هنا كان أيضا يتحتم عليه أن يمحو ذلك ويلغيه باتصال بأخرى لا ينطوى على المحارمية وحيث إن الزنا شئ لا يمكن تصوره فقد كان يستمنى على أية امرأة أخرى. وبذلك نكون قد تبينا العزل وما يستتبعه من وصل وتبينا أيضا المحو.

ومن الشائع فى الحياة أن يشعر بعض الأزواج (عندما يتصل الواحد منهم أثناء نهاره بأخرى) برغبة قهرية فى الاتصال بالزوجة إن كان له أن يهدأ أو ينام. فى هذه الحالة تكون وظيفة الاتصال المشروع بالزوجة هى محو الاتصال غير المشروع الذى تحقق أثناء اليوم. وفى طقوس الحياة الدينية التى تقوم على التكفير والاستغفار أفضل تجسيد لميكانيزم المحو فى حالاته السوية.

وبالنظر إلى أن تكرار الفعل، نفس الفعل وإن يكن بدلالة أخرى يضطلع بوظيفة المحو فكثيرا ما تشيع عند العصابيين القهريين ظاهرة التناظر، بمعنى أن يصطدم قدمه بحجر صغير فى الطريق فلا يستطيع أن يتحرك من مكانه قبل أن يضرب بقدمه الأخرى نفس هذا الحجر، مما يعنى المحافظة على التوازن بين الغريزة والدفاع ومن هنا فإن العصابى القهرى يفضل دائما الأعداد الزوجية لأنها لا تخل بالتوازن بين الجنبات الغريزية والدفاعات الأخلاقية.

العــزل

إن المكبوتات فى الهستيريا هو الحادثة الصدمية. أما هنا فالمكبوت هو الوصلات والدلالة الانفعالية لا المحتوى الفكرى. فالاستثمار المضاد هنا يعزل ما ينتمى بعضه إلى بعض. وأهم أشكال العزل هى:

(أ) عزل فطرى كدره عن بقية الشخصية.

(ب) عزل الشهوية عن العاطفية فى الجنسية فلا شهوة حيث الحب والعكس (يحبون حيث لا يشتهون ولا يشتهون حيث يحبون).

ومن هنا فعندما يشعر الفرد بالحب يكون عاجزا من الناحية الإنسانية كما يظهر

فى قصة السراب لنجيب محفوظ وأيضا فى فيلم قاع المدينة.

ففى قصة السراب حيث تعمل قسوة الأم على تثبيت الابن يجد نفسه من زوجته التى هى من نفس طبقة أمه فى حالة حب ولكن يظل عاجزا معها كرجل بينما ينطلق بقدراته الجنسية مع الراقصة التى لا تنتمى لخط الأم إن جاز القول.

وفى مثل هذه الحالة يكون العزل مذ الطفولة كدفاع ضد ما يعانيه الصبى من صراع عندما يشعر بحبه لأمه وبأنه يشتهيها جنسيا على الرغم من كونها ذروة المحارم. عندئذ يعزل الحب عن الشهوة بحيث يكون عاجزا جنسيا مع كل من يحبها ويقتدر جنسيا حيث لا حب ومن هنا تبدو أهمية نظام البغاء فى العالم.

وفى فيلم قاع المدينة لا تختلف البداية عن قصة السراب ولكن البطل بعدما ينجح جنسيا مع زوجة الساعى تغمره الفرحة فيغدق عليها المال ويكاد من فرحته أن يستشعر الحب نحوها، وفى هذا ولا شك ما يهدده بالعجز الجنسى. ومن هنا يتحول البطل فجأة إلى البخل والعدوانية ليبقى على قدرته الجنسية معها فقد شرعت مع إغداقه المال عليها ترتفع بمظهرها عن طبقتها إلى طبقة أمه.

(جـ) عزل الحب عن الكراهية فى صراعات التناقض الوجدانى. يصبح الحب بعد الزواج خالصا للأم بينما تلتصق العدوانية بالحماة.

(د) عزل مجالات الحياة بعضها عن بعض عند الأطفال.

ما يمثل الحرية الجنسية عن ما يمثل الفضيلة.

(هـ) عزل الفكرة عن طاقتها الانفعالية على النحو الذى رأيناه فى ما قلناه فى ميكانيزم المحو.

ومن هنا يمكن للمضامين الفكرية المستهجنة أن تصبح شعورية ما دامت معزولة عن وجدانها وعن الفعل. فالقهرى غالبا ما يهرب من الانفعالات المرعبة إلى عالم الأفكار اللهم إلا أن يعيش الانفعالية بحسبانه تجريبيا أو تلهيه أى معزولا عن الجدية وفى الاجترارات الحصارية للأفكار أحيانا ما تعود الانفعالية المكبوتة فتكتسب الأفكار أهمية مسرفة.

(و) ازدواج الشخصية يقوم على العزل إذا كان الشخص يعرف وجود الحالة الأخرى وإلا كان الأمر يقوم على الكبت. ويورد فينخل فى كتابه (نظرية التحليل النفسى فى العصاب) ترجمة مخيمر - الحالة التالية التى توضح استفحال العزل.

فى البداية استمناء بغير شعور إثم عند شاب عمره (١٧ سنة) تم تحذير من القس من الاتصال بأى شخص يستمني وعندئذ يتجنب «الولد الذى يستمنى» وضمانا لتجنب هذا الولد استحدث فوبيات وقهورا معينة:

(أ) يبصق كلما التقى بالولد المتجنب.

(ب) لا اتصال بالولد أو أسرته أو أصدقائه.

(جـ) تجنب صالونات الحلاقة فوالد الولد المتجنب حلاق.

(د) تجنب من يحلق ذقنه عند الحلاق.

(هـ) تجنب الحى الذى به صالون حلاقة والد الولد المتجنب.

(و) اشترط على نساء أسرته عدم الذهاب للحى الممنوع وتألم من رفضهن طلبه.

(ز) مضى هو فى تجنب الحى ولكن بدأ يفكر بشكل حصارى فى الحى ويتألم من التفكير فى شئ غير لائق فى وجود نساء الأسرة.

(ح) يفكر فى شئ غير لائق (الولد) فيفكر فى جدته (العقدة الأوديبية أساس الاستمناء) كان يتألم من هذه الوصلة ولا يستريح حتى يحقق الفصل (يفكر فى الشئ الممنوع دون مصاحب من الأشياء اللائقة).

(ط) التقسيم إلى لائق وغير لائق اتسع فشمل جميع الأشخاص والأماكن وانهماك طول اليوم فى الوصل والفصل واستحالة التحول عن نشاط أو مكان يحدث فيه الوصل إلا بعد أن يحقق الفصل.

(ى) عودة المكبوت وتردد المريض على الأماكن غير اللائقة ثم كرس نفسه

للتفكير فى الأشياء غير اللائقة (استمناء متصل وأحيانا حين يشتد التوتر الفكرى يجد نفسه يقذف).

ومن حيث النشأة يعد التابو القديم للمس الأنموذج الأولى للعزل، فكل حفزة غريزية تستهدف فى الأصل لمس الموضوع.

النــكوص

عند الإحباط عادة ما يبرز حنين إلى أنماط ماضية من الإشباع كانت أكثر اكتمالا. وتعتمد شدة الحنين على مدى تردد الفرد فى تقبل الأساليب الجديدة للإشباع وعلى مدى تثبيته على أساليب أسبق من الإشباع. ذلك هو النكوص. فثمة تتام بين النكوص والتثبيت (بقدر ما يكون الانتظام قبل الإنسالى قويا يكون الانتظام الإنسالى ضعيفا ويسهل على الشخص التنازل عنه كشئ غير مهم فالفرد الذى لديه مثلا تثبيت على الإستية يتقدم على مضض إلى الأوديبية ويظل مهيا لأن يتخلى عن هذا الاكتساب الجديد إما إحباط أو تهديد هين. ولكن الإحباطات أو المخاطر أو التهديدات الشديدة يمكن أن تثير النكوص حتى فى حالة تثبيتات غير قوية. والنكوص ميكانيزم دفاعى يوجد فى كل الأمراض ومع ذلك فدور الأنا فى النكوص مختلف عن دورها فى الميكانيزمات الدفاعية الأخرى إذ تكون سلبية تعانى النكوص لا إيجابية بوسائل أوائلية فى الدفاع.

ويرجع النكوص فيما يبدو إلى أن الغرائز عند إحباطها ومنعها عن الإفراغ المباشر تبحث عن بديل ومن ثم فشرط النكوص ضعف من نوع خاص فى تنظيم الأنا. وهناك نوعان من النكوص:

النوع الأول من النكوص :

من الجنسية الراشدة إلى الطفلية وهو الشرط السابق اللازم للأعصبة. فعندما تتعرض الجنسية الراشدة لإحباط أو تهديد يمكن أن ينكص الراشد إلى هذا المستوى من جنسيته الطفلية المثبت عليها لا شعوريا أى إلى هذا المستوى الذى سبق كبته فبقى على

حاله فى اللاشعور ولكن كيما ينشأ العصاب ينبغى أن يتسبب هذا الابتعاث للجنسية الطفلية فى ابتعاث الصراعات القديمة فإذا كان النكوص شاملا بحيث لا يقتصر على ذلك بل يحل الانتظام قبل الإنسالى الإستى بنزعاته محل الانتظام الإنسالى فذلك هو العصاب القهرى (فالقهرى شخص تنازل عن إنساليته وأصبح من جديد إستيا ساديا).

النوع الثانى من النكوص :

من الجنسية الراشدة إلى النرجسية الأولية يبرز أقدم نمط للدفاع وتعنى غلق الأنا مما يسمى بالفصام (شيزوفرينيا).

تلخيص :

١ - الصراع العصابى هو حفزة غريزية خطرة تولد القلق فيولد الدفاعات ولكن الحفزات الغريزية الخطرة هى عند فرويد جنسية أساسا وعند آدلر عدوانية .. الخ. وتكون هى المسئولة عن توليد القلق عند فرويد وعن توكيد الشعور بالدونية عند آدلر .. الخ.

وهذا القلق يستنهض ميكانيزمات الدفاع عند فرويد والتى هى أسلوب الحياة عند آدلر وعمليات الأمن عند سوليفان والصور المثالية ونسق الغرور عند هورنى .. الخ.

٢ - ميكانيزمات الدفاع هى مفهوم لفهم الشخصية. ففى التحليل نتبين الدفاعات النوعية من خلال المقاومة ومن ثم نصل إلى الحفزات الغريزية التى انكبتت لأنها خطرة.

مثال: طبيب كان فى تعلق شهوى بأخته فى الطفولة وأثناء لعبه الجنس معها ضبطه الأبوان وأوقعا به عقوبة شديدة ومع الوقت ظهرت لديه الدفاعات التالية:

* دفاعات من حيث هى أساليب غير مباشرة للتعبير عن الرغبة (بدأ يعتقد أنه ليس ابن أبيه وأمه مما يعنى أن أخته غير محرمة له وتفوق تفوقا شديدا فى الدراسة حتى لا يكون مدينا لهما، هذا إلى تحررية فكرية معرفية تبيح

الجنسية المثلية ولا تقتنع بتحريم العلاقة الجنسية مع الأخت).

* وظهرت دفاعات من حيث هى تسد الطريق على الحفزة (انسحاب الليبيدو من القضيب إلى الإست وأصبحت الممارسات كلها مثلية تنصب على إسته أو تتجه إلى إست الآخرين). كما ظهرت دفاعات التكفير ضد الشعور بالإثم الناجم عن استمرار الرغبة فى الأخت (اقتصار على ٥ ساعات من النوم بحيث يظل طوال اليوم متعبا. مع الهرب فى العمل المتصل بشكل قاتل وكأنه يحطم نفسه).

٣ – ميكانيزمات الدفاع ليست قوانين مجردة – بل هى كما رأينا مبادئ لتفسير السلوك وفهمه، هى أساليب يفهمها المحلل ضمن سياقها كدفاع ضد حفزة خطرة بعينها ثم تتكرر بعد ذلك عند الشخص. فالعملية هى إعادة بناء الواقع أى منهج جاليلى. ومن هنا لم يحاول فرويد حصرها وتصنيفها فى قائمة هذا إلى تداخلها.

٤ – ميكانيزمات الدفاع تعتبر نظرية تفاعلية فى الشخصية وهى تفضل نظرية ماكدوجال التى تغفل الصراع بين الدوافع، ونظرية ليفن التى تغفل البعد الزمنى. وهذه النظريات كلها نظريات تقوم على العلية الشبكية بالقياس إلى نظرية العلية الخطية مركزية كانت أم محيطية.

٥ – هناك مجرد الميكانيزمات التى هى العمليات الأولية للهى، وهناك ميكانيزمات الدفاع التى تنتمى إلى الأنا. وتنقسم هذه الميكانيزمات الأخيرة إلى:

(أ) ميكانيزمات الدفاع الناجحة (الإعلاء) عن طريق ضرب الحفزة ضربا مائلا.

(ب) ميكانيزمات الدفاع الفاشلة عن طريق الضرب العمودى للحفزة.

٦ – تتكون الأعراض من تفاعل الشخصية والبيئة. والشخصية جبلة وخبرة والبيئة إحباطات شديدة أو هينة متراكمة أو هينة لها دلالة خاصة.

٧ – إذا لم يكن هناك استعداد عصابى أى العصاب الطفلى فالفرد يتغلب على

الإحباط. أما عند وجود الاستعداد العصابى فالإحباط يؤدى إلى نكوص جزئى يضيف طاقة إلى المكبوتات فتقوى وتشرع فى العودة وتضربها الدفاعات فتكون المحصلة هى الأعراض المرضية.

الأعراض ونشأة الأعصبة النفسية :

ينشأ العصاب النفسى نتيجة للتفاعل ما بين الشخصية والبيئة :

١ - (أ) الشخصية من حيث هى جبلة «وراثة» يعترف التحليل النفسى بدور الوراثة ولكن يعتبرها الجدار البيولوجى الذى تتوقف أمامه المحاولة العلمية والعملية. فالأفراد يتفاوتون فى تأثرهم بالإحباطات والمثيرات تبعا لاستعداداتهم الفطرية. وكذلك تتفاوت عند الأفراد شدة الحاجة الجنسية والاستجابة العدوانية تبعا لاستعداداتهم الفطرية. وبدهى أن هذه العوامل تتأثر بدورها بالخبرات التى يعيشها الفرد.

(ب) الشخصية من حيث هى خبرة: ليس هناك عصاب نفسى دون استعداد عصابى أى دون عصاب طفلى. والتحليل النفسى هو الذى كشف عن الأهمية الحاسمة للعصاب الطفلى ومرحلة التثبيت والميكانيزمات الدفاعية الخاصة بهذه المرحلة التى حدث عندها التثبيت.

فالتثبيت ينتج إما عن إحباط شديد تصاحبه زيادة فى النشاط التخيلى أو ينتج عن إشباع مسرف يجعل الشخص عاجزا عن تحمل الإحباطات اللاحقة ومن ثم ينكص أمامها إلى مرحلة الإشباع المسرف فيكون ذلك فى تثبيته. ويعتبر فرويد أن عقدة أوديب هى نواة العصاب يتخطاها السوى بينما لا يقدر المريض على تصفيتها بالدرجة الكافية.

٢ - البيئة المحيطة: تلعب البيئة دورها كعلة حافزة عن طريق إثارة الإحباط. فى بعض الحالات يتجسد أثر البيئة فى حادث شديد أليم كخيانة زوجته الحبيبة، وفى حالات أخرى يتجسد أثر البيئة فى إحباط هين نسبيا ولكنه مستمر يتراكم مع الوقت مما قد يحدث فى حالة زوجة عصابية غير محتملة، وفى حالات ثالثة يتجسد أثر

البيئة في حادث عادى ولكنه ينطوى بالنسبة إلى الفرد على دلالة خاصة مثل مقتل كيندى كوجه أبوى.

٣ – أمام إحباطات البيئة يستطيع الفرد حين لا يكون لديه استعداد عصابى أى عصاب طفلى أن يتحمل هذا الإحباط وأن يجيب عليه بسلوك متكيف يتجه به مثلا إلى موضوع آخر جديد.

أما إذا كان لدى الفرد استعداد عصابى فإنه:

(أ) يستجيب للإحباط بعزوف جزئى عن العالم الخارجى وبزيادة تعويضية فى النشاط التخيلى.

(ب) بذلك تستقل الحاجات الغريزية عن العلاقات الواقعية وعن رقابة الأنا كيما تحظى بإشباع وفق مبدأ اللذة.

(جـ) نكوص إلى مرحلة أسبق ولضمن وابتعاث اهتمامات أقدم عهدا كانت تتيح له الإشباع ومن ثم يصل به النكوص إلى نقطة التثبيت.

(د) ولكن النكوص لا يكون كليا فتستمر الأنا فى تأدية وظائفها بأسلوب سوى إلى حد كبير ومن ثم تستعين الأنا بالميكانيزمات الدفاعية لتمنع هذه الحفزات المكبوتة التى يتشبث بها الآن الليبيدو الناكص من أن تحصل على إشباع مباشر مكتمل وإلا كانت الانحرافات الجنسية، وكلما أخفقت بعض الدفاعات قامت الأنا بتعبئة دفاعات غيرها لتسد الطريق على هذه الحفزات ما لم تتخذ أسلوبا من المصالحة يمكن للأنا أن تتبناه وتعبر عن به نفسها.

وهكذا فهناك جانب من الأنا ذهب به النكوص إلى نقطة التثبيت – يبتعث الحفزات– المكبوتة بينما يقف جانب آخر فى وجه هذه الحفزات فيمنعها من العودة.

(هـ) ومن هنا لا تستطيع الرغبات المكبوتة أن تظهر بشكل مباشر بل فى صورة بديلة على نحو ما يحدث فى الحلم، هذه الصورة البديلة هى الأعراض المرضية التى تحقق إشباعا جزئيا وغير مباشر للحفزات إذ تسد فى الوقت نفسه الطريق

على هذه الحفزات اللاشعورية. ومن هنا فالعرض المرضى مصالحة ومحصلة للرغبات المكبوتة ودفاعات الأنا.

(و) هذه العوامل كلها لاشعورية ولكن النشاط الشعورى وقبل الشعورى للأنا يكون استخدامه بشكل يساير المصالحة التى تمت على نحو ما يحدث فى الحلم ويظهر بصفة خاصة فى التبرير.

(ز) مما سبق نرى أن الأعراض النفسية تحقق للمريض شيئا من التخفيف لتوتره اللاشعورى بقدر ما تعذر عليه الكبت الناجح ويتعذر عليه الإفراغ الكامل المباشر، هذا الإفراغ الجزئى غير المباشر هو المكسب الأولى للعصاب. ولكن المريض إذ يستغل أعراضه العصابية فيمارس نفوذا معينا على بيئته ويحقق مكاسب معنوية لنفسه فذلك هو المكسب الثانوى للعصاب، فهذان المكسبان الأولى والثانوى من شأنهما أن يدفعا بالمريض إلى أن يتحالف مع العرض المرضى وأن يتشبث به على الرغم مما يلحق به من أذى. ومن هنا تكون مقاومته للشفاء الذى يقضى على العرض. وهكذا فإن المريض يتحالف مع المرض وفى نفس الوقت يقاوم المرض، والأعراض المرضية تتحالف مع الحفزات المكبوتة وفى نفس الوقت تقاوم هذه الحفزات المكبوتة (طبيعة ديالكتيكية).

ملحق

نظرية جديدة فى الإسقاط ص ٨٧

هذه صورة من الخطاب الذى بعثت به إلى أخى الدكتور / حسين عبدالقادر(١) إيضاحا لبعض النقاط وإجابة على بعض التساؤلات التى أثارها معى فى مناقشاتنا العديدة الساخنة حول نظريتى الجديدة فى الإسقاط والتى أقوم فيها بتطبيق النهج الجاليلى فى تناول الوقائع على كل مظاهر الإسقاط.

١ – لا علم بغير مجانسة، لأنها السبيل الوحيد إلى تحقيق مبدأ الاقتصاد فى العلم. فبغير المجانسة يستحيل على العملية العلمية من حيث هى إعادة بناء للوقائع أن ترد كثرة الوقائع المتماثلة الداخلة تحت (جنس واحد) إلى وحدة النظرية التفسيرية أو القانون التفسيرى الواحد وذلك ببنائها الأنموذج الهيكلى للظاهرة أى ببنائها لنمط العلاقة المثالية القائمة بين الجنابات الرئيسة للظاهرة. وهذه العلاقة مثالية بمعنى أنها لا يمكن أن تتحقق فى الواقع العيانى إلا بشكل تقريبى. فبالنظر إلى تباين السياقات البيئية مما يعرف بالشرطية تتخذ هذه العلاقة المثالية صورة فريدة من التجسد فى كل حالة عيانية (انظر قانون الجاذبية وقانون تدحرج الأجسام على سطح مائل فى مقدمة مخيمر لكتاب (كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية) سامية القطان.

٢ – وبناء على ماسبق لا تكون هناك ثلاثة أصناف من الإسقاط مما ينتمى إلى التفكير بلغة الفئات فى النهج الأرسطالى، بل هناك أنموذج هيكلى واحد ينطوى على علاقة مثالية واحدة تتبدى فى تشكيلة لا متناهية من التجسيدات المتباينة بتباين السياقات البيئية.

وعليه لا يوجد صنف من الإسقاط قوامه ميكانيزم دفاعى، ولا يوجد صنف آخر من الإسقاط تتحدد حدوده بالإدراك، ولا يوجد صنف ثالث وأخير تتسع حدوده

---

(١) محاضر فى نظريات التحليل النفسى بقسم علم النفس بكلية الآداب، جامعة عين شمس، وفى نظريات الفن بمعهد السينما بأكاديمية الفنون، وسكرتير نقابة المهن التمثيلية. هذا كله بالإضافة إلى أنه واحد من أكثر ممثلينا اقتدارا، ومخرج يعد بالكثير بالنسبة إلى مستقبل الإخراج فى شرقنا العربى.

بحيث تشمل كل ما يصدر عن الفرد من مسالك. بل وأكثر من ذلك لأنه لا يوجد جنس للإسقاط يمكن عزله عن الصور الأخرى التى تتخذها المحصلات الناجمة عن دينامية الحقل أى صراع عوامله الذاتية الداخلية مع عوامله الخارجية البيئية. ومن هنا كانت أزمة فرويد وكان خلطه فى حديثه عن ميكانيزماته الدفاعية. فلا حدود فاصلة بل ولا يمكن أن تكون هناك حدود فاصلة(١) بين ميكانيزمات دفاعية كالإسقاط(٢) والإزاحة(٣) والصبغ بالمثالة(٤) فكلها إزاحة يسقط بها الفرد بعض نفسه على موضوع خارجى أو يزيح بها بعض ما فى نفسه من موضوع إلى آخر، ويستوى فى ذلك أن تكون المادة النفسية التى يضيفها على الموضوع الخارجى أمثل آماله وفضائله أو أقبح مخاوفه ورذائله. فعندما يهلوس الفرد رغباته فيستبقها بالإشباع إنما يدافع عن كيانه تماما كلما يفعل عندما يهلوس مخاوفه فيستبقها بالاستبعاد. فالذى يتوهم لنفسه الخير والفضيلة يدافع عن كيانه كذلك الذى يتوهم لنفسه البرء من الشر والرذيلة. فالأمران وجهان لعملة واحدة هى دفاع الفرد عن كيانه.

(٥)

وهذا يذكرنا بعمليتى التوحد(١)(٥) والتناحى فى نظرية الجشطلت. فالتوحد مع اللذة أو الفضيلة هو عندما ننظر إليه من الناحية الأخرى ليس غير تناحى عن نقائضهما، وهكذا تبقى العملية الدفاعية واحدة رغم تباين وجهيها. ثم ما الغريب فى ذلك والتحليل النفسى يرد الفوبيات فى أصلها إلى الرغبات بحيث يكتشف الخوف من

---

(١) فميكانيزم الإنكار هو نوع من الكبت كما أن الكبت نوع من الإنكار، وكان فرويد فى البداية يستخدم مصطلح الكبت للتعبير عن كل الدفاعات. وكذلك المحو فإنه تكوين مضاد ممعن بينما التكوين المضاد نوع من المحو الخ.

(٢) Projecstion

(٣) Displacement

(٤) Idealization

(٥) Unification أى إقامة الوحدة مع عناصر أخرى فى الحقل، فليس المقصود هنا التوحد بالمعنى التحليلى Indentification

دائما أبدا عن رغبة في. كل ذلك وما إليه من دينامية الوقائع وديالكتيكية الحياة يسخر تماما من كل محاولة للتقطيع وعبث التصنيف في فئات. والتحليل النفسي كما نعلم لا يقصر الميكانيزمات الدفاعية على المرضى بل يسحبها لتشمل الأسوياء ونعني الدرجات الهينة من العصابية. فالاختلاف إنما ينحصر في الدرجة والشدة مما يتفق مع النهج الجاليلي بمفاهيمه عن السلسلية (Serial Concepts) وعن المتصل الواحد Continuum.

وفي كتابه عن التناقض الوجداني، وفي تناول جديد في تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية أتيح لمخيمر أن يبلغ إلى تحقيق المجانسة ليس فقط بالنسبة إلى كل أشكال العلاج النفسي بل وأيضا وبالنسبة إلى كل الصور التي تتخذها الأعصبة. ولم يكن في هذه الناحية الأخيرة يبتعد كثيرا عن عبارة فينخل الشهيرة والتي يرينا فيها كيف أن التشخيص لا ينبغي أن ينصب على الأمراض بل على الميكانيزمات وذلك لأن هذه الميكانيزمات الدفاعية حتى عندما نعتبرها نمطية (وفي هذا من التجاوز ما فيه) فإنها تنتظم في كل حالة على نحو فرويد، بحيث تكون اللوحة الكلينيكية في كل حالة أشبه ما تكون ببصمة الإصبع أو ورقة الشجرة(١). من هنا كانت أهمية المواءمة Accomodation في التشخيص ومن هنا أيضا يتضح ومن جديد أنه ما من علم نفس ممكن إلا بالحالة الفردية (انظر مقدمة مخيمر لكتاب كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية، الجزء الأول – سامية القطان).

٣ – وفي مناقشة للرسالة التي تقدم بها حسين عبد القادر (للماجستير) الفصام: بحث في العلاقة بالموضوع كما تظهر في السيكودراما، أبان عن أن السيكودراما ليست غير تنويعة Variety وكوكبة من بين تشكيلة التباينات التي يمكن أن يتخذها النمط الكيفي الواحد لكل العلاجات النفسية. فإذا ما تصورنا متصلا Continuum يمضي من

(١) ومن هنا فالأدق هو تشخيص الميكانيزمات لا تشخيص الأعصبة فميكانيزمات الدفاع تمثل عناصر نمطية تشكل ائتلافاتها اللانمطية غالبية الأعصبة الواقعية عند الأفراد فينخل ١٩٦٩ صفحة ٢٠٤، الجزء الثاني.

الأعماق اللاشعورية للفرد إلى أفعاله الخارجية الصريحة مع الآخرين وبينهم لكان بوسعنا أن نتصور عديدا من النقاط الوسيطة التى تقع بين الطرفين القصويين، وليس من شك فى أن رغبات الأعماق، يتحتم عليها أن تعانى التحريفات والتشويهات كلما اقتربت من السطح، توافقا منها بالضرورة مع مقتضيات العالم الخارجى، خاصة عندما تستحيل إلى أفعال خارجية صريحة. وإذا كان التحليل النفسى يمضى ما وسعه الجهد إلى أقرب ما يستطيع من النبع ليمسك بالحفزات والدفاعات فى عالم الأحلام وأحلام اليقظة، وما يصطنعه من حالة شبه حلمية بفنية التداعى الطليق، فإن السيكودراما تحاول أن تمسك بنفس الشئ فى عالم الأحلام التى يلعبها أصحابها أقوالا وأفعالا مع الآخرين وبينهم إطار من ضحالة الانتظام، وضحالة التحدد، بيما لا يختلف عن لوحات التات T.A.T فى الاختيارات الإسقاطية. تناول جديد فى تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية ص ١٥، ١٦ .

وإذا أردنا التعبير عن هذا كله بلغة لُخرى لقلنا مع (جوتا) بأن ما هو فى الداخل هو أيضا فى الخارج ولكن بقدر ما يبعد التمخرج عن النبع تبرز التحريفات الدفاعية وإن ظلت الصورة التى يتخذها التمخرج فى كل حالة مجرد محصلة للعوامل الداخلية العميقة فى الفرد؛ شأنها شأن الحسناء العارية فى مخدعها والتى يتحتم عليها أن تمعن فى إخفاء مفاتنها بقدر ما تمعن فى تقدمها إلى العالم الخارجى حيث تتربص بها تلك النظرات الشرهة التى تتحرق إلى تمزيق أستارها التهاما لمفاتنها.

وهكذا يتلخص الأمر كله فى تلك الديناميـة المخصصـة للحقل النفسى والتى يكون السلوك (وليس الإدراك غير ضرب من السلوك) بمثابة المحصلة التى تنجم عن عوامل الفرد الذاتية فى تفاعلها مع شروطه البيئية شريطة أن نضع فى اعتبارنا الطبيعة الدفاعية للسلوك البشرى سيان فى ذلك استباق الرغبات بالتحقيق فى الهلوسات والخيالات الخ أو استباق المخاوف والوصمات بشتى صور الإنكار فى الإدراكات والتصرفات. بذلك تتحقق المجانسة ليس فقط للأصناف الثلاثة المزعومة للإسقاط بل وأيضا لكل الصور الدفاعية التى يستعين بها الكائن البشرى فى توافقه على هذه الأرض.

وخلاصة ما سبق أن الأنموذج الهيكلي والنمط الكيفي لكل صور الإسقاط إنما ينحصر في الطابع الدينامي والدفاعي(١) للسلوك.

(أ) فالسلوك محصلة العوامل الذاتية للفرد في تفاعلها مع شروطه البيئية ومن ثم فهو يمثل درجة من درجات التمخرج تزداد بزيادتها وبالضرورة الطبيعة الدفاعية للسلوك.

(ب) السلوك دفاعي في طبيعته. فإشباع الرغبة دفاع ضدها طالما أن صميمها هو توتر. هذا إلى أن الإشباع دفاع ناجح يتيح الإفراغ بشكل مباشر بينما الإعلاء دفاع ناجح لا يتيح الإفراغ إلا بشكل غير مباشر.

هذا عن الإشباع، وفيما عدا ذلك فكل شئ يسلم الجميع بأنه دفاع وإن كان من المستحيل في الحقيقة العثور على سلوك غير دفاعي. وقد رأينا كيف تتداخل الدفاعات وتتشابك بحيث يكون من المستحيل التمييز بينها ومن قبيل ذلك أن استباق الرغبات بالتحقيق كما يحدث في الأحلام والقصص الإسقاطية إنما هو بمعنى ما إنكار لواقع مايزال قاصرا ينطوي على الإحباط، وكذلك الحال وبدرجة أوضح عندما يلصق الفرد مخاوفه الأليمة وكل ما يستهجنه بالعالم الخارجي فإنه إنما ينكر بذلك انتسابها إلى ذاته. وفي هذا ولا شك ما يجعل الإسقاط في هاتين الحالتين الأخيرتين مجرد أسلوب من أساليب الإنكار. فالإسقاط في شتى صوره يتداخل ويتشابك مع الأساليب الدفاعية الأخرى التي تزداد تعقدا ولا شك كلما ازدادت درجة المخرجة(١) بحيث يغدو ما هو في الداخل شديد التحريف، على النحو الذي يبدو عليه بالفعل.

ويكون على الاستبصار التحليلي في كل حالة أن يكشف في نهاية الأمر عن صدق مقولة «جوتا» التي تقرر بأن ما هو في الداخل هو أيضا في الخارج (مهما حرفته الدفاعات تطويعا لمقتضيات الشروط البيئية).

سامية القطان

---

(١) كل ظاهرة نفسية تدافع عن كيانها ضد كل تغيير مما يعرف بقانون الإمتلاء وأحسن جشطلت ممكنة، بالهوميوستازس والانضباط الذاتي (انظر في علم النفس العام) التعليق على مصطلح الفرد في تعريف الشخصية ص ١٣٣).

كيف تقوم بالدراسة
الكلينيكية

الجـــزء الأول





www.anglo-egyptian.com
ISBN 977-05-9772-4

